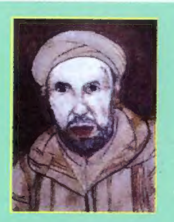
محمد بن أحمد الكانوني العبدي



علائق أسفي و منطقتها بملوك المغرب

تحقيق :

علال ركوك | الرحالي الرضواني | محمد الظريف

تقديم :

محمد بنشريفة



محمد بن أحمد الكانوني العبدي

علائق أسفي و منطقتها بملوك المغرب

تحقيق :

علال ركوك　　　الرحالي الرضواني　　　محمد الظريف

تقديم :

محمد بنشريفة

منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر

10



الكتاب : علائق أسفي ومنطقتها بملوك المغرب

المؤلف : محمد بن أحمد العبدي الكانوني

تحقيق : علال ركوك - الرحالي الرضواني - محمد الظريف

تقديم : محمد بنشريفة

الإيداع القانوني : **2004 / 0783**

الطبعة : الاولى **2004/1425**

مطبعة : ربا نيت **Rabat Net Maroc**

Av. Hassan II Cité Manar
n° 6/3 Diour Jamaâ
Rabat - Tél.: 061 20 37 76
061 07 83 63

طبع هذا الكتاب بدعم من جمعية حوض أسفي «مكتب فرع أسفي»

علائق أسفي ومنطقتها بملوك المغرب

شكر وامتنان

يسعد جمعية البحث والتوثيق أن تتقدم بجزيل الشكر وعميق الامتنان إلى كل من ساهم من قريب أو بعيد في إخراج هذا العمل إلى النور.

فضيلة العلامة الدكتور محمد بنشريفة على حسن الظن وجميل التقديم ودوام التشجيع

وأعضاء مكتب فرع أسفي لجمعية حوض أسفي على الدعم المادي والمعنوي والطاقم العلمي الذي سهر على تخريج نص هذا العمل ومراجعته وتصحيحه وضبطه وتيسير قراءته.

تقديم

هذا كتاب آخر من كتب العلامة الجليل محمد بن أحمد العبدي الكانوني، أسعد بتقديمه إلى المهتمين وعموم القراء بعد أن سعدت بتقديم الجزء الثاني من كتابه جواهر الكمال في تراجم الرجال الذي أخرجته جمعية البحث والتوثيق ضمن منشوراتها الرائدة لابراز العطائات الثرة لحاضرة أسفي وآفاقها واستحضار مساهمة أبنائها في بناء التاريخ المغربي.
وتبرز قيمة هذا العمل المتميز في عدة أمور منها:

1- **مكانة صاحبه المتميزة.** فهو علم بارز من أعلام النهضة المغربية الحديثة ونموذج متميز في الثبات والعصامية. فعلى الرغم من الظروف الصعبة التي حاطت بحياته وهو يشق طريقه نحو المجد والعراقيل التي اصطنعها أعداؤه لإثنائه عن عزمه، فقد استطاع بإيمانه القوي وإرادته الصلبة أن يبلغ مبلغا عاليا من العلم رفعه إلى صف صفوة من العلماء، وأصبح يزاحم بالمناكب أعلام المغرب يومئذ في الحواضر أمثال الفقيه التعارجي في مراكش والفقيه ابن علي في سلا والفقيه الحجوي والفقيه المدني بن الحسني في الرباط ومولاي الكبير بن زيدان في مكناس وغيرهم، ولو قدر له أن يعيش أكثر لكان له شأن آخر في العلم والوطنية، ولقدم من العطاءات ماتقر به العيون وتنشرح له الصدور.

2-**مجال اشتغاله،** فهو يتناول ملمحا دقيقا من ملامح تاريخ أسفي لم تنل كبير عناية في الكتابات التاريخية والاتنوغرافية التي كتبت حولها، هو مساهمتها في تدبير الشأن العام المغربي منذ بداية استعراب المغرب وانتشار الإسلام في ربوعه على يد الطلائع العربية الأولى بقيادةعقبة بن نافع الفهري إلى زمن السلطان محمد الخامس، وعلاقة نخبها السياسية والحربية بمختلف الامارات والممالك التي تعاقبت على حكم هذا البلد الأمين خلال هذه الفترة الطويلة والحوادث الكبرى التي عاشتها والحروب التي خاضتها ضد أعدائها في الداخل والخارج والنكبات التي ابتليت بها والأمراض والطواعين والملمات التي أصابت أهلها وغير ذلك من الأحداث والعطاءات التي أسهمت بها هذه الحاضرة إلى جانب غيرها من الحواضر والآفاق في بناء التاريخ الوحدوي المغربي.

3- **قيمته العلمية:** فهو مصدر أساس من مصادر التاريخ التي لا غنى للباحثين والمهتمين من الرجوع إليها للتعرف على التاريخ المحلي لحاضرة أسفي ودورها في توجيه الاحداث الكبرى التي عرفها المغرب على امتداد التاريخ. ويستمد قيمته العلمية مما يحيل عليه من أمهات المصادر المغربية الثمينة مثل كتاب الجمان للشاطبي و الحلل الموشية للمراكشي ووصف إفريقيا للحسن الوزاني والبدور الضاوية للحوات والاستقصاء للناصري وغيرها، فضلا عما يتضمنه من رسائل ووثائق وشهادات حية ونقول من بعض الكتابات الأجنبية ككتابات شينيي الفرنسي ودوسوزى ومانويل البرتغاليين وغيرهم.

لهذه الاعتبارات وغيرها لا يسعني مرة ثانية إلا أن أنوه بهذا العمل الجليل شاكرا لجمعية البحث والتوثيق حسن الصنيع، داعيا للقائمين عليها والداعمين لها بدوام التوفيق لإخراج ما تبقى من آثار هذا العلامة الجليل بصفة خاصة وآثار من سبقه أو جاء بعده حول آسفي وآفاقها بصفة عامة، والله ولي التوفيق.

الرباط في12ربيع الثاني 1425هـ
الموافق ل2004/06/01

الدكتور محمد بنشريفة

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

المقصد السادس، في علائق أسفي ومنطقتها بملوك المغرب
وما كان بها من الحوادث والكوائن الدهرية وما مر بأهلها خلال ذلك
من انخفاض وارتفاع وشرف واتضاع

"أسفي ومنطقتها في دولة بني أمية"

أول أمير وطئت قدمه المغرب الأقصى وبلغ أسفي الأمير عقبة بن نافع لفهري، (ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وتولى إمارة المغرب مرتين) أولهما في دولة الخليفة الصحابي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وثانيهما في خلافة ولده اليزيد بن معاوية, فتقدم عقبة إلى المغرب الأقصى سنة اثنتين وستين من الهجرة النبوية في جيش كثيف جعل على مقدمته زهير بن قيس البلوي, وكان معه من الصحابة كما نقله ابن عذارى المراكشي[1] عن مسالك البكري, ثمانية عشر صحابيا , والذي يقتضيه كلام ابن خلدون[2] كما سيأتي , أنه أكثر من ذلك ففتح طنجة ومدينة وليلي بزرهون, ثم تقدم إلى بلاد المصامدة ففتح مدينة أغمات ووريكة ومدينة نفيس, وبنى فيها مسجدا كان مازال ماثلا في حدود القرن السابع الهجري, وَحُدِّثْتُ أن آثاره الآن موجودة, وحاصره المصامدة بجبل درن فكانت بينهم وبينه حروب, فنهضت إليهم زناتة وكانوا خالصة للمسلمين, فأفرجوا عنه, وأثخن فيهم قتلا وحملهم على الإسلام, ثم فتح تارودانت, ودخل السوس الأقصى , وقاتل من وراءه بالصحراء ولمسوفة ولمتونة وغيرهم, فدوخ تلك البلاد , ثم عطف راجعا على ساحل البحر المحيط الأطلنتيكي فانتهى إلى بلاد أسفي كما ذكره الشاطبي في الجمان[3], ونقله صاحب الاستقصاء, وذكره الورتيلاني في رحلته

---

[1] - ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. ج23/1

[2] - عبد الرحمان بن خلدون، تاريخ ابن خلدون. ج 237/4 دار الفكر للطباعة و النشر.1988

[3] - الشاطبي، الجمان، (نقل عنه صاحب الاستقصاء)ج1.

نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار، وكان قد جال في بلاد المصامدة أولا وثانيا وأسس المساجد كمسجد نفيس ومسجد ماسة وحمل المصامدة وغيرهم على الإسلام, وترك بعض أصحابه يعلمون الناس القرآن وشرائع الإسلام, منهم شاكر صاحب الرباط الشهير، بحوز أسفي, وترك أيضا غيره كما نقله ابن عذارى[1] عن مسالك البكري قال : ولم يدخل من ولاة بني أمية بالمشرق إلا عقبة بن نافع, ولم يعرف المصامدة غيره , وقيل إن أكثرهم أسلموا على يديه، وكونُ شاكر من أصحابه ذكره صاحب التشوف[2] أيضا. ثم إن عقبة لما قضى هذا الغرض، ونادى به الحق المعترض، وأسلم على يديه العباد، وتشرفت بمقدمه هذه البقاع والبلاد، ولم يبق له فيها منازع ولا معاند ولا مدافع, وهم بالانصراف, قصد بحر بلاد أسفي كما للشاطبي والورتيلاني وغيرهما، فأدخل قوائم فرسه البحر ووقف ساعة ثم قال لأصحابه : ارفعوا أيديكم ففعلوا, وقال : اللهم إني لم أخرج بطرا ولا أشرا وإنما أطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تعبد ولا يشرك بك, اللهم إنا معاندون لدين الكفر ومدافعون عن دين الإسلام, فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام, وأمن أصحابه على دعائه وانصرف راجعا إلى القيروان, وانتهى إلى طينة من أرض الزاب وكان معه كسيلة أمير البربر في معتقله، وصرف عقبة العساكر إلى القيروان مكتفيا بما دوخ البلاد حتى بقي في جند قليل, فتراسل كسيلة مع البربر فطمعوا في عقبة وأصحابه وأحاطوا بهم, فترجل عقبة وأصحابه, وكسروا أجفان سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا. قال ابن خلدون: فاستلحم عقبة وأصحابه وكانوا زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين استشهدوا في مصرع. قال: وأجداث الصحابة رضي الله عنهم أولئك الشهداء بمكانهم من أرض الزاب لهذا العهد , وقد جعل على قبورهم أسنمة، ثم جصصت واتخذ على المكان مسجد عرف باسم عقبة, وهو في عداد المزارات, ومظان البركات, بل هو أشرف مزور من الأجداث في بقاع الأرض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ أحد مدى أحدهم ولا نصيبه الخ ه. وذلك سنة ثلاث وستين من الهجرة.

[1] - ابن عذارى، البيان المغرب، ج27/1

[2] - أبن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص 51 – 52 .

وصية عقبة بن نافع لأولاده وإشارته لعدم رجوعه من غزوة المغرب الأقصى

قال الإمام أبو زيد عبد الرحمان بن الدباغ في معالم الإيمان[1] : لما خرج-يعني لسفره الذي استشهد فيه- دعا أولاده فقال لهم : إني بعت نفسي من الله ولا أدري ما يقضي على في سفري, ثم قال : يا بني إني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها, إياكم أن تملئوا صدوركم شعرا وتتركوا ما تهتدي به ألسنتكم ويدلكم على مكارم الأخلاق, ثم انتهوا عما وراءه وأوصيكم ألا تتداينوا ولو لبستم العباءة فإن الدين ذل بالنهار وهم بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم وتبقى لكم الحرمة مع الناس ما بقيتم, ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيملوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله, ولا تأخذوا دينا إلا من أهل الورع والحيطة, فإنه أسلم لكم, ومن احتاط سلم ونجا, ثم قال : وعليكم سلام الله وأراني لا تروني بعد يومكم هذا هـ. وقد رواها ابن مندة مختصرة كما في الإصابة. وهي وصية جامعة لمحاسن الدين والدنيا، قال ابن حزم في الجمهرة[2]: أولاد عقبة لهم في المغرب عقب كثير هـ. وفي الإصابة ومن ولده بمصر والشام وأفريقية بقية هـ، ومنهم عبد الرحمان بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة والي أفريقية وولده يوسف بن عبد الرحمان صاحب الأندلس, وعليه دخل عبد الرحمان بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل فقتله ووليها هو وبنوه، ومن بني عقبة بيت آل الفاسي بفاس، أوليتهم بالأندلس وخرجوا منها إلى القصر لما استحوذ الأسبان على الأندلس, ثم من القصر لفاس, وهو بيت كبير تعدد فيه العلماء والصلحاء وشهرتهم أغنت عن التعريف بهم, ومن بني عقبة أل سيدي المختار الكنتي[3] بالصحراء, وهم علماء صلحاء نفع الله بهم تلك الأصقاع الصحراوية, جزاهم الله خيرا. وقولنا:

---

[1] - عبد الرحمان بن الدباغ، معالم الإيمان، جاءت عند ابن عذارى المراكشي. البيان ج1 / 24 .

[2] - أبن حزم، الجمهرة. "عبارة مكتفيا وضعت مكان بياض موجود بالأصل" وردت هذه المعلومات كذلك عند ابن عذاري وغيره من المؤرخين.

[3] - ال سيدي المختار الكنتي : أسرة علم وتصوف معروفة في الصحراء، ، ساهمت بدور كبير في نشر القادرية في أزواد وما حولها من بلاد صحراوية وسودانية، ويعتبر الشيخ المختار الكنتي المتوفى سنة 1226 هأ 1811م من أبرز رجالها، أنظر حوله: الطرائف التالدة من كرامات الشيخين الوالد والوالدة، سيدي محمد الكنتي، وهو مخطوط، فتح الشكور في معرفة أعيان علماءالتكرور، لأبي عبد الله البرتلي الولاتي ص 152 ، المدرسة الكنتية كأبرز قناة للتواصل بين الأفريقيتين في العصر الحديث، محمد المنوني، مجلة كلية الأداب الدارالبيضاء، عدد 19814) الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء المغربية ص 106 محمد الظريف، منشورات كلية الأداب المحمدية 2002 .

أول من أدخل الإسلام إلى المغرب عقبة بن نافع , هو ما ذكره غير واحد من المؤرخين المتقدمين, وقد نقل أبو العباس ابن الحاج في كتاب الدر المنتخب، الجزء الخامس منه و أبو عبد الله سيدي محمد بن جعفر الكتاني في الأزهار العاطرة الأنفاس نقلا عن بعض المؤرخين أن أول من أدخل الإسلام للمغرب رجال سبعة من ركراكة وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم وكلموه بالبربرية وأجابهم بها، قال صاحب الدر المنتخب، وقد كانوا اثنى عشر رجلا اجتمعوا مع النبي صلى الله عليه وسلم وكلمهم بلغتهم, والصحيح أنهم لم يجتمعوا به وإنما أسلموا على يد سيدنا عمر وعلمهم دينهم وتوجهوا لمغربهم، ولما بلغوا قومهم، منهم من أسلم ومنهم من أبى, وذلك سنة ثمانية عشر قال : والذي للمؤرخين ونقله في الدر النفيس[1], أن أول من أظهر الإسلام بالمغرب عقبة بن نافع الفهري أيام يزيد بن معاوية عام اثنين وستين هـ. وجُمع بينهما بأن أول من أدخل الإسلام هم الرجال السبعة أو الاثنى عشر: وأول من أظهره وحمل الناس عليه عقبة بن نافع هـ. قلت قد تقدم الكلام مستوفى على صحبة الرجال السبعة فلينظر هناك. "كذا" والله الموفق.

أسفي وما يليها في إمارة موسى بن نصير

كانت تولية موسى بن نصير على المغرب عام سبعة وسبعين، وقيل عام سبعة وثمانين، ولاه الوليد بن عبد الملك، وكان موسى من سادات التابعين شجاعا عاقلا لم يهزم له جيش، فتقدم إلى المغرب الأقصى فوجد الأيدي قد اختلفت على البربر واختل نظامها فأصلح شأنها ولم شعثها ودخل بلاد المصامدة واسترهن أبناءهم فأنزلهم بطنجة. وشيد المساجد والمنابر وحمل الناس على الإسلام وتعليم القرآن وخلف من أصحابه سبعة عشر برسم التعليم، فانتشر الإسلام انتشارا باهرا, ورسخ في كثير من الناس رسوخا بينا، ودخل بلاد سوس ودرعة فرتب الأمور وبث الدعوة الإسلامية ورجع وولى على طنجة مولاه طارقا[2] وأنزل معه سبعة وعشرين ألفا من العرب، واثنى عشر ألفا من البربر وأمرهم أن يعلموا الناس القرآن والفقه, ثم أقلع راجعا إلى المشرق بما معه من الغنائم سنة خمسة وتسعين فتوفي بالمدينة المنورة سنة 98 هـ. ثم اختلفت أيدي العمال والأمراء الواردين من المشرق ووقعت بين الفريقين حروب عظيمة كان من أسبابها عدم رضوخ البربر للسلطة العربية

---

[1] - المقصود بالمؤرخين معظم النصوص التاريخية التي أشارت إلى دخول عقبة بن نافع إلى المغرب الأقصى، كابن عذارى مثلا في كتابه البيان المغرب ج24/1 – 27 .

[2] - المقصود هنا طارق بن زياد

ـزة وسوء سيرة بعض العمال أخرى, فكان البربر يثورون المرة بعد المرة على العمال ويحاربونهم ويرتدون عن الإسلام, وقد نقل غير واحد عن أبي محمد بن أبي زيد القيرواني أن البرابر ارتدوا عن الإسلام اثني عشر مرة, فكانوا مهما أحسوا بخفة وطأة الجيش العربي ثاروا ضد العرب ومهما قويت شوكة العرب، استكانوا تحت سيطرتها, ولم تستقر السلطة العربية بالمغرب الأقصى إلا بقدوم المولى إدريس بن عبد الله الكامل رضي الله عنهما.

استقلال المغرب عن الدولة العباسية

أسفي وما يليه في دولة الأدارسة

دولة مولانا إدريس بن عبد الله

كانت بيعة الإمام مولانا إدريس بن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم بمدينة وليلي يوم الجمعة رابع عشر رمضان سنة 172 من الهجرة بعد ما بث الدعاة فيما يظهر, فوفدت عليه قبائل البربر مبايعين له، ولما استقام ملكه ورسخت قدمه جمع جيشا عظيما من وجوه قبائل البربر وتوجه به إلى بلاد تامسنا، فنزل على مدينة شالة ففتحها ثم تقدم إلى قبائل برغواطة المدعين للنبوة بتامسنا فأسلم منهم من أسلم وضرب الجزية على من لم يسلم فاستكانوا لصولته, فمهد بلادهم وتقدم لبلاد المصامدة التي منها أسفي فرتب أمورها وبلغ إلى ماسة من بلاد السوس الأقصى فدوخها وأصلح شأنها وبث فيها الشعائر الإسلامية ورجع على طريق تادلة ففتح حصونها ومعاقلها, ودخل إلى عاصمته وليلي أواخر حجة عام اثنين وسبعين ومائة هـ. فمكث بها شهر المحرم من سنة ثلاث وسبعين ريثما أصلح شأنه وخرج غازيا ما بقي من بلاد المغرب، فلم يزل يستنزلهم من المعاقل والحصون حتى أدخلهم في دين الإسلام، ورجع إلى مدينة وليلي ثم خرج مرة

أخرى برسم غزو تلمسان ففتحها صلحا وأمن أهلها، وقد انتظم له ملك ما بين تلمسان إلى ماسة.
وفاته : توفي مسموما عشية الاثنين فاتح ربيع الأخير سنة سبع وسبعين ومائة، وقيل غير ذلك في تاريخ وفاته، ودفن حيث ضريحه الآن من جبل زرهون أعلى الله درجته في السابقين ومنزلته.

الإمام إدريس بن الإمام إدريس رضي الله عنهما

مولده يوم الاثنين ثالث رجب سنة سبع وسبعين ومائة , صفته كان أبيض مشربا بالحمرة, اكحل العينين جميل الوجه، اقنى الأنف، مليح العينين, واسع المنكبين, افلج أدعج , كنيته أبو القاسم كان عالما بالقرآن والسنة والفقه والنحو والشعر وأمثال العرب وحكمها وغير ذلك, عارفا بركوب الخيل والرمي ومكايد الحروب، بويع بمدينة وليلي يوم الجمعة فاتح ربيع الأول سنة ست وثمانين ومائة كما في الجذوة [1], وسنة ثمانين كما في الغير, قبل أن يحتلم, ووفدت عليه الوفود من قبائل العرب وفي سنة 189 هـ وفدت عليه العرب من أفريقية والأندلس, فاستوزر منهم عمير بن مصعب الملجوم, والشيخ داوود بن قاسم القيسي واستقضى عامر بن محمد القيسي, واستكتب أبا الحسن عبد الله ابن مالك المالكي الخزرجي, ولما كثرت عليه الوفود أسس مدينة فاس سنة إحدى وتسعين ومائة , فانتقل إليها واتخذها عاصمة, فاستبحر عمرانها حتى صارت من أعظم مدن المعمور, حرسها الله بعين عنايته، وفي سنة سبع وتسعين ومائة , خرج غازيا بلاد المصامدة ففتح مدينة النفيس وأغمات وتامسنا وسائر بلاد المصامدة, فأخضعهم وأسلم على يديه من كان بقي من زمان والده وضرب الجزية على برغواطة, وتقدم إلى بلاد السوس الأقصى والفائجية, فمهدها ورجع إلى مدينة فاس سنة اثنين ومائتين, فانتظمت له مملكة المغرب الأقصى والأوسط, ودافع بني الأغلب بأفريقية, وزاحمهم في المناكب, وهمّ باقتحام عدوة الأندلس لكن الأجل المحتوم عاجله، فتوفي في يوم ثاني جمادى الأخيرة سنة ثلاث عشر ومائتين, وقيل غيره ذلك , ودفن بمسجده بفاس رضي الله عنه.

---

[1] - أبن القاضي، جذوة الأقتباس في ذكر من حل من الاعلام بمدينة فاس: القسم I /160-161.

حسب ابن القاضي: فإن بيعة ادريس الثاني كانت سنة ثمان وثمانين ومائة ، وهو ابن إحدى عشر سنة، وليس سنة ست وثمانين

دولة الإمام أبي عبد الله بن محمد ابن الإمام إدريس رضي الله عنهم

صفته : أسمر اللون, حسن القد, مليح الوجه, أجعد الشعر , كان ذا نباهة وعلم وعدل , بويع يوم وفاة والده, وقسم ملك المغرب على اخوته, وبقي هو بفاس, فأعطى القاسم طنجة والبصرة وسبتة وما والى ذلك وعمر تيكاس[1] وغيرها وداوود تازا وما والاها, ويحيى القصر وأصيلا وما والاها, وعبد الله أغمات ونفيس وما والاها, وعيسى شالة وتامسنا وأزمور ودكالة وما والاها, ثم خرج عيسى عن طاعة أخيه وطلب الأمر لنفسه, فقاتله عمر وهزمه, وتولى عمله، وقبر الأمير عيسى رضي الله عنه الآن ببلاد أيت اعتاب شهير, وقفنا عليه سنة 1430 هـ. ثم التفت عمر للقاسم فقاتله أيضا لكونه لم يطع أخاه الإمام محمد في قتال أخيه عيسى حين عصاه، فنزل عليه بظاهر طنجة ,و كانت بينهما حروب انجلت عن هزيمة القاسم واستولى عمر على عمله, فصار الريف البحري كله في عمل عمر من تيكاس وغمارة وسبتة وطنجة, وهو ساحل البحر الرومي, ثم أصيلا والعرائش وسلا وتامسنا وأزمور ودكالة وأسفي وهو ساحل البحر المحيط, فاتسعت بذلك ولاية عمر, وأخلص طويته لأخيه إلى أن توفي سنة عشرين ومائتين وحمل إلى فاس فدفن مع والده رضي الله عنهما, وعقد الإمام محمد على عمل عمر لإبنه علي, فانتظمت له مملكة المغرب, فضبط البلاد وأمن السبل وسار في الناس سيرة حميدة إلى أن توفي رحمه الله يوم الأربعاء في شهر ربيع الثاني سنة إحدى وعشرين ومائتين ودفن بازاء أبيه.

دولة أبي الحسن ابن الإمام محمد رضي الله عنهما

بويع بعد وفاة والده باستخلافه إياه في حياته, وسنُهُ تسعة أعوام وأربعة أشهر, وقام بأمره أولياؤه وحاشيته، وظهر منه من النبل والذكاء والفضل ما يقتضيه شرفه الصريح ونسبه الصحيح، فسار بالناس سيرة أبيه وجده ووسع الناس عدله وغمرهم فضله ونبله.

وفاته : توفي يوم الأربعاء رابع رجب سنة 234 هـ ودفن مع أبيه وجده، ومدة ملكه ثلاث عشرة سنة.

---

[1] تيكاس من مدن المغرب القديمة التي لم يبق لها أثر.

دولة أبي زكرياء يحيى بن الإمام محمد رضي الله عنهما

بويع بعد وفاة أخيه بعهد منه إليه فسار سيرة سلفه، فامتدت دولته وعظم سلطانه، في دولته عمرت مدينة فاس وقصدها الناس من الأندلس وأفريقية وغيرها، وفي أيامه بني جامع القرويين، بنته فاطمة أم البنين سنة 245 هـ.
وفاته : توفي بفاس سنة خمس أو تسع وأربعين ومائتين ودفن مع والده.

دولة أبي الحسن علي بن عمر بن إدريس رضي الله عنهم

بويع بفاس وسائر أعمالها واستقام أمره إلى أن ثار عليه عبد الرزاق الخارجي الصفري، فكانت بينهما حروب هزم فيها الأمير علي وخرج بنفسه إلى بلاد أوربة ودخل الخارجي فاسا، وخطب له بعدوة الأندلس وامتنعت عليه عدوة القرويين وكان ما سنذكره.

دولة أبي زكرياء يحيى بن القاسم بن إدريس الحسني

بويع بعدوة القرويين وحارب عبد الرزاق حتى أخرجه عن فاس[1] [ ]على فاس إلى أن توفي مقتولا سنة اثنين وسبعين ومائتين.

دولة أبي زكرياء يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس الحسني

بويع له بعد موت يحيى العوام بفاس وسائر أنحاء المغرب, قال في القرطاس[2] كان يحيى هذا أعلى بني إدريس قدرا وصيتا وأطيبهم ذكرا ووقتا وأقواهم سلطانا وأوسعهم ملكا، وأكثرهم نعما، وأغزرهم كرما, وكان فقيها حافظا للحديث ذا فصاحة وبيان ولسان، ومع ذلك كان بطلا شجاعا حازما ذا صلاح ودين وورع لم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه , غير أنه صادف عنفوان الدولة الفاطمية , فغمرته بقوتها وصولتها, فقصده مصالة ابن حبوس المكناسي[*] سنة خمس وثلاثمائة، وكان عاملا للفاطميين، فصالحه يحيى بعد حربه على أن كتب بيعته لعبيد الله الفاطمي فرجع مصالة, وترك موسى بن أبي العافية, ولما قدم مصالة للمرة الثانية سنة تسع وثلاثمائة وشى موسى بن أبي العافية بيحيى إلى مصالة بما أوغر عليه صدره فقبض عليه مصالة وقيده بالحديد ونفاه إلى نواحي أصيلا, وبقي يتقلب إلى أن مات جوعا غريبا بالمهدية سنة 332 هـ. رحمه الله.

---

[1]- بياض في الأصل والراجح أن المحذوف هو وبقي
[2] - أبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 96 .
[*] - مصالة بن حبوس المكناسي هو أحد قواد عبيد الله الشيعي القائم بأفريقية.

دولة أبي علي بن الحسن بن محمد بن إدريس المدعو الحجام[1] الحسني

بويع سنة عشر وثلاثمائة, وكان شجاعا فاقتحم فاسا على ريحان عامل الفاطميين وقتله , وقيل نفاه, وبايعه أهلها ودخل الناس في طاعته, وفي سنة إحدى وعشر خرج لقتال موسى بن أبي العافية فأوقع بابن أبي العافية وقعة شنعاء, ثم كانت العاقبة لموسى فانهزم الحسن ورجع مفلولا لفاس, فتعجل ودخل قصره وترك عسكره خارج فاس, فغدره عامله حامد بن حمدان وقبض عليه, وأغلق المدينة في وجه الجند وأرسل إلى موسى فدخل فاسا وأراد قتل الحسن فندم حامد على ذلك وأطلق الحسن ففر ليلا وسقط من أعلى السور فانكسر ساقه فتحامل حتى بلغ عدوة الأندلس ومات بها مختفيا لمضي ثلاثة أيام من سقطته سنة ثلاثة عشرة وثلاثمائة , وانقرضت دولة الأدارسة من فاس والبقاء لله, وبقي المغرب الأقصى تارة في طاعة الفاطميين ملوك مصر, وتارة في طاعة الأمويين ملوك الأندلس, وكان موسى متمسكا بدعوة الفاطميين ونوابهم العبيديين بالقيروان, فلما استوثق له الأمر وملك كثيرا من أعمال المغرب طرد الأدارسة من فاس وشردهم فتفرق أكثرهم في البوادي والقرى وأخفوا نسبهم, وفي هذا التاريخ خرج سلف الشرفاء بني امغار ونزلوا على يمين القطر من ساحل دكالة وخرج مولاي عمر بن اليزيد ابن صفوان بن خالد بن زيد بن عبد الله بن إدريس واستوطن أيضا عين الفطر قرب أزمور وبها توفي, وخرج مولاي الحسن بن قاسم بن محمد بن القاسم بن الإمام إدريس واستوطن ثغر أسفي, وبه توفي وخرج مولاي أحمد بن كنون بن القاسم ابن محمد بن القاسم بن إدريس واستوطن تادلة على وادي أم الربيع وبها توفي وعقبه هناك قال العلامة العباس أحمد المقري في كنوز الأسرار: قد خرج من فاس ما يزيد على السبعمائة, أخذ الظالم موسى بن أبي العافية أمتعتهم وقد خرج جلهم لجبل العلم وحجر النسر، وحاصرهم بها , ورام استئصالهم حتى عزله كبراء دولته, فاستحيا ورجع عن ذلك إلى فاس وترك عامله محاصرا لهم, أبعده الله وقبح سعيه, ثم بعد الإفراج عنهم تجددت دولة أخرى هناك ببلاد الريف, فكانت تارة تحت طاعة الشيعة وتارة تحت المروانيين, وفي سنة سبع وأربعين وثلاثمائة أنفذ الشيعي قائده جوهر إلى المغرب في عشرين ألف حين سمع بالأدارسة نبذوا طاعته, فدخل المغرب الأوسط والأقصى, وحارب جيوش المروانيين وهزمهم, وتتبع المغرب الأقصى ففتح مدنه ومعاقله حتى بلغ أسفي وصاد السمك من البحر المحيط وأرسله إلى مولاه المعز بالقيروان, وانصرف

---

[1] - لقب بذلك لشجاعته وفتكه بأعدائه

بعدما ذل المغرب, واستنزل إمارته واصطحب معه خمسة عشر رجلا في أقفاص فطيف بهم في القيروان ثم المهدية وحبسوا فيها حتى ماتوا في سجنها, ومكث جوهر في تمهيد المغرب ثلاثين شهرا، وكان رجوعه سنة تسع وأربعين وثلاثمائة، وقد كانت مدينة أسفي دول هؤلاء الولاة مشمولة النظر لهم معروفة العمارة من لدن الفتح الإسلامي، ومرساها مقصد السفن التجارية وغيرها حتى تظاهرت الطائفة البرغواطية بتامسنا بدعواها النبوة, وأرغمت الخلق على التدين بدينها الخبيث, ومن لم يقبل انصب داؤها عليه بالقتل للخلق والتخريب للمدن, وكانت أسفي مما أصيب بتلك النكبة, ولقد قرأت بخط صاحبنا المؤرخ الكاتب المطلع أبي عبد الله السيد محمد بن علي الدكالي السلوي حفظه الله ما نصه : أعلم أن عمارة ثغر أسفي كانت معروفة من عهد الفتح الإسلامي إلى أن طرأت الطائفة الضالة البرغواطية على النواحي الحوزية, وكان رئيسها صالح بن طريف المتنبئ اليهودي الأصل، كان من الفساد الذي طرأ على المغرب أن خرب 300 مدينة منها أسفي .

الدولة البرغواطية وأوليتها

أوليتها : كان مؤسسها أبو صبيح طريف كما في المسالك للبكري[1] يهوديا من ولد شمعون ابن يعقوب ابن اسحاق كما أخبر ذلك أبو صالح زمور بن موسى، بن هشام البرغواطي, وكان صاحب صلاتهم حين قدم على الحكم المستنصر رسولا من قبل صاحب برغواطة أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار, وكان وصوله إلى قرطبة في شوال سنة اثنين وخمسين وثلاثمائة. وكونه يهودي الأصل ذكره ابن أبي زرع في القرطاس[2] ونقله أبن خلدون عن صاحب كتاب الجوهر وشيء من بساتين البر, وكان من أصحاب ميسرة رئيس الصفرية وداعيتهم, ولما انقرض من ميسرة والصفرية احتل تامسنا, قال ابن خلدون[3]: ويقال أيضا إنه تنبأ أو شرع لهم الشرائع ثم هلك, وولي مكانه أبنه صالح وكان حضر مع أبيه حروب ميسرة , وكان من أهل العلم والخير ثم انسلخ من آيات الله وانتحل دعوى النبوة وشرع لهم الديانة التي كانوا عليها

---

1 -أبو عبيد البكري، المسالك و الممالك، ج819/2

2 - ابن ابي زرع، روض القرطاس. ص 165 .

3 - ابن خلدون،كتاب الدول الإسلامية بالمغرب القسم الأخير من التاريخ الكبير المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبرفي أيام العرب والعجم والبربر ج275-274/1، دار طباعة الدولة، الجزائر، 1851 .

من بعده, وادعى أنه نزل عليه قرآن كان يتلو عليهم سورا منه*، وقال ابن أبي زرع في القرطاس : كان صالح بن طريف الذي ادعى فيهم النبوة رجلا خبيثا، يهودي الأصل من ولد شمعون بن يعقوب، نشأ ببرناط من بلاد الأندلس ثم رحل إلى المشرق فقرأ على عبيد الله المعتزلي القدري, واشتغل بالسحر فجمع منه فنونا كثيرة فقدم المغرب فنزل بلاد تامسنا ووجد بها قبائل من البربر جهالا فأظهر لهم الإسلام والزهد والورع وأخذ بعقولهم واستمالهم بسحره وأراهم من نرجه وتمويهاته فاستغواهم بذلك وأقروا بفضله واعترفوا بولايته فقدموه على أنفسهم وصدروا عن رأيه في جميع أمورهم، فادعى النبوة وتسمى بصالح المؤمنين, وقال لهم : أنا صالح المؤمنين الذي ذكر الله في كتابه, وشرع لهم الديانات التي أخذوها عنه. وذلك سنة خمس وعشرين ومائة, قال ابن خلدون[1] : وقد قيل إن ظهوره كان لأول الهجرة وأنه,إنما تنحل ذلك غناء ومحاكاة لما بلغه شأن النبي صلى الله عليه وسلم, والأول أصح , قال زمور[2] : وكان موت[3] صالح بعد النبي صلى الله عليه وسلم بمائة عام, وخرج إلى المشرق بعد أن ملك أمرهم سبعا[4] وأربعين سنة, ووعدهم أن يرجع إليهم في دولة السابع منهم وعهد إلى ابنه إلياس بديانته وبموالاة صاحب الأندلس من بني أمية وبإظهار دينه إلى أن قوي أمرهم فقام إلياس بعده ولم يزل مظهرا الإسلام مسرا لدينه – كما أوصاه أبوه به– حتى هلك لخمسين سنة من ملكه, وولى أمرهم، ابنه يونس فأظهر ديانته وقتل من لم يدخل فيها حتى أخلى مائة وسبعاً وثمانين[5] مدينة, وقال ابن فضل الله في : "في مسالك الأمصار" إنه أخلى مائتين وسبعا وثلاثين مدينة , حمل جميع أهلها على السيف حتى قتل منهم بموضع يقال له : تاملوكات – وهو حجر نابت بوسط السوق– سبعة آلاف وسبع مائة وسبعين قتيلا, وقتل من صنهاجة –خاصة– في وقعة واحدة ألفا، وفي البيان المغرب أنه أخلى ثمانمائة موضع من مواضع البربر، قال البكري في المسالك[6] : كان يونس منذ شرب الدواء للحفظ يحفظ ما سمع , ونظر في الكلام والجدل, وأخذ ذلك عن غيلان, وكان يخبرهم بأشياء قبل كونها فعظم بذلك عندهم, وعرف ضعف عقولهم فأظهر

* سورة الديك، وسورة الجمل وسورة الفيل وسورة أدم.

[1] - نفس المصدر . ج1 / 275 .

[2] - زمور كان المترجم وصاحب صلات صالح بن طريف

[3]- في الأصل: مولد

[4]-جاء في المسالك و الممالك ج280/2 خمسين سنة.

[5]-نفس المصدر: ثلاثمائة مدينة وسبعا وثمانين مدينة.

[6] - أبو عبيد البكري ، المسالك و الممالك، ج821/2

دياناته ودعا إليها وهلك لأربع وأربعين سنة من[ ][1] عن بنيه إلى أبي عفير محمد بن معاذ بن إلياس, واشتدت شوكته وعظم أمره, وكانت له الوقائع المشهورة في البربر, منها وقيعة تيمغس , وكانت مدينة عظيمة, أقام القتل فيها ثمانية أيام من الخميس إلى الخميس, ومنها وقيعة فهت، عجز الإحصاء عن عدد قتلاها, وهلك أخريات المائة الثالثة لتسع وعشرين سنة من ملكه, وولى بعده ابنه أبو الأنصار عبد الله, فاقتفى سنته , وكان ملوك عصره يهادنونه ويدا فعونه بالمواصلة, توفي في سنة إحدى وأربيعن وثلاثمائة لأربع وأربعين سنة من ملكه , ودفن بتاسلاخت من بلاد تامسنا, وقبره بها, وولى بعده ابنه أبو منصور عيسى وهو ابن اثنين وعشرين سنة, فعلا أمره, وقويت شوكته ودانت له قبائل المغرب , قال زمور كما في المسالك : إنه كان يركب في ثلاثة آلاف فارس, ومن قبائل المغرب من المسلمين الذين ينضافون إلى مملكتهم نحو اثني عشر ألف فارس وليس في عسكرهم طبول ولا بنود , ولم تسجد ملوكهم إلا له, وقد كان لملوك العدوتين في جهادهم آثار عظيمة كما أن الرجال السبعة رؤساء رجراجة كانت لهم مع برغواطة مواقف مشهورة, وحروب، فقد ذكر صاحب التشوف[2] أن يعلى بن مصلين الرجراجي، وهو أحد الرجال السبعة غزاهم مرات وأن طبله هو الباقي برباط شاكر، وذكر صاحب العيون المرضية أن رجراجة مع من دان بالتبعية لهم بدين الإسلام اجتمعوا وتناصروا على قتال برغواطة، وكانت لهم معهم غزوات عظيمة كان بعضها على وادي تانسيفت حتى جرى الوادي بالدماء، وكان الظفر في ذلك حليف رجراجة, قال ابن خلدون[3] : كان لملوك العدوتين في جهاد برغواطة آثار عظيمة، من الأدارسة والأمويين والشيعة, ولما أجاز جعفر بن علي من الأندلس إلى المغرب, وقلده المنصور بن أبي عامر علمه سنة 366 هـ فنزل بالبصرة , وصرف وجهته إلى جهاد برغواطة واعتده من صالح عمله, وزحف إليهم في أهل المغرب وكافة الجنود الأندلسيين فلقوه ببسيط بلاد البرغواطيين, وكانت عليهم الدائرة، ونجا بنفسه في فل من جنده, وأجاز إلى المنصور باستدعائه، ثم حاربتهم أيضا صنهاجة لما غزا بلكين بن زيري المغرب سنة 368 هـ، فصرف وجهته إلى جهاد بغرواطة وزحف إليهم فلقيه أبو منصور عيسى بن أبي الأنصار في قومه وكانت عليهم الدائرة وقتل أبو منصور وأثخن فيهم بلكين بالقتل, وبعث سبيهم إلى القيروان، ولم أقف على

---

[1] بياض في الأصل

[2] - ابن الزيات، التشوف، ص 52 ، يذكر ابن الزيات أن بن مصلين الرجراجي حارب برغواطة من رباط شاكر.

[3] - ابن خلدون كتاب الدول الإسلامية بالمغرب، ج1 / 277 .

من ملك أمرهم بعد أبي منصور ثم حاربتهم جنود المنصور بن أبي عامر لما عقد عبد المالك بن منصور، لمولاه واضح إمرة برغواطة هؤلاء فيمن قبله من الأجناد وأمراء النواحي، فعظم الأثر فيهم بالقتل والسبي, ثم حاربهم بنو يفرن, فغزاهم تميم بن زيري بن يعلى اليفرني في أول المائة الخامسة, وكان موطنه بمدينة سلا, مجاورا لبرغواطة، فكان له أثر كبير في جهادهم, كان يغزوهم في كل سنة مرتين وذلك في سنة عشرين وأربع مائة، فغلبهم على تامسنا وولى عليها من قبله بعدما أثخن فيهم سبيا وقتلا، ثم تراجعوا من بعده إلى أن سادت دولة لمتونة، فزحف إليهم أبو بكر بن عمر أمير لمتونة في المرابطين من قومه، وكانت له فيهم وقائع واستشهد في بعضها صاحب الدعوة الكبرى عبد الله بن ياسين سنة خمسين وأربعمائة ه، واستمر أبو بكر وقومه من بعده حتى استأصلوا شأفتهم ومحوا من الأرض آثارهم وكان صاحب أمرهم لعهد انقراض دولتهم أبو حفص عبد الله من أعقاب أبي منصور[فوت لك][1] في خروجهم وعليه كان قطع دابرهم على يد هؤلاء المرابطين, وكانت مواطن برغواطة من المصامدة في بسائط تامسنا وريف البحر من سلا، وأنفا وأزمور وأسفي، وعاصمتهم "الدار⁄البيضاء" حاليا, قال صاحب ألفية الزهور إن طريفاً بناها كما بنى مدينة طريف بالعدوة. وما ذكرناه من كون الطائفة السيئة يهودية الأصل قد انتقده الفيلسوف ابن خلدون[2] قائلا بعد تأسيسه إن برغواطة من المصامدة بشهادة المجاورة ما نصه : وأما صالح بن طريف فمعروف منهم وليس من غيرهم ولا يتم الملك والتقلب على النواحي والقبائل لمنقطع جذمه دخيل في نسبه , سنة الله في عباده, وقد أسس على قاعدته في المقدمة وهي وهي أن الملك والدولة إنما يحصل كل منهما بالقبيل والوصية لما فيها من النصرة والتذامر واستمالة كل واحد منهم دون صاحبه الخ... ونحن نقول بحول الله إن حصر تناول الملك في العصبية والقبيل غير صحيح, فكم من إنسان دخيل في قوم رأسهم وثبتت له الدولة والغلبة من غير عصبية وذلك أن الروابط الإنسانية التي تدعو إلى الاستماتة والتناصر ليست محصورة في عصبية النسب والقبيل بل كما تكون بذلك تكون بالدين والسحر والسياسة والدهاء وبتسهيل من الله وتيسيره , وهاك أمثلة ممن كانت لهم الدول والغلبة بلا عصبية ولا قبيل, فهذا أبو عبد الله المحتسب الشيعي دخل كتامة فريدا وحيدا وتمكن بإظهار الدين والزهادة والدهاء من قلوبهم حتى خرج منهم بالجيوش التي مهد بها أفريقية وغيرها. وعلى عاتقه قامت دولة الفاطميين

---

[1] - كلمة غير مفهومة في الأصل

[2] - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون. ج1 / 279 .

ملوك مصر والمغرب, وهذا أبو مسلم الخراساني دخل خراسان وحده على حمار وخرج منها بجيوش جرارة , بل كانت دولة العباسيين على يد العجم, قل وهذا الإمام أبو العلاء المولى إدريس بن عبد الله رضي الله عنهما دخل المغرب فارا بنفسه فانقادت له البربر بدون عصبية, وهذه دولة السعديين أيضا بالمغرب الأقصى والسوس قامت بالدين بلا عصبية , فمن طالع تراجم هؤلاء وغيرهم ممن يكثر عددهم يعلم أن دولهم لم تقم على عصبية نسب، بل بدهاء أو سياسة أو سحر أو دين أو غير ذلك من الأمور النافعة في ذلك الشعب, ولا نذهب في الاستدلال على ذلك شوطا بعيدا فهذا الإمام. وابن خلدون[1] نفسه في مقدمته قال : فصل في أن الدولة العامة الاستيلاء، العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق, فصل في أنه يحدث لبعض الدول أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية, فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة وهذا وإن كان قابلا للتأويل والجمع بين بعضه ببعض فإنه عند التمحيص يظهر ببادئ الرأي نقض القاعدة المذكورة، وقد أشار لنقضها أبو زيد الفاسي في ابتهاج القلوب نقلا عن ابن الأزرق وابن حجر وغيرهما , قال : وقد أنكر عليه كثيرا مما برهن عليه في مقدمته من الملح العقلية غير واحد من المتأخرين كتلميذه الحافظ ابن حجر وابن الأزرق وغيرهما، ورأوا جل ذلك يقبل التعليل بعلل غير ما ذكر , قال ابن حجر في فهرسته لما عرف به حسبما وجدته بخط الشيخ القصار ما نصه : أما معرفته بالأمور والتجارب فإليه المنتهى ولا نظير لمقدمته إلا أن دعواه فيها عريضة والأمور التي يبني عليها غالب قواعدها منقوضة مثل قوله إن الملك لا يتم إلا بالعصبية أو قوله : إنه ما كان يمكن عليا أن يستمر في الخلافة لتعصب قبائل العرب لبني أمية إلى غير ذلك, قلت لم تكن دولة معاوية رضي الله عنه منتصرة بعصبية النسب بل بالدهاء والسياسة وبذل المال سياسة, فاجتمع هو وسيدنا عمرو بن العاص وكانا من دهاة العرب فأقاما دولة بني أمية , ولم تكن دولتهم بعصبية النسب, وذلك يعلم من مراجعة التاريخ، فهو الأعدل شاهد وخصوصا التواريخ الكبيرة والله سبحانه الموفق للصواب, فإذا ظهر بطلان حصر تناول الملك في العصبية والقبيل وأنه كما يكون بالعصبية يكون بغيرها أيضا من الروابط التي تدعو إلى الاستمالة والتناصر من دين وسحر وسياسة فيكون كذلك رئاسة أولاد صالح في برغواطة لأسباب غير العصبية منها تزلف طريف لميسرة

---

[1] - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، الفصل الرابع ص 197، الفصل الثالث ص 196 .

الصفري، داعية الصفرية وحضوره معه حروبه وبالحري أن يكون مظهر النحلة الصفرية فكان لذلك من قواعده، ثم زاد أمره صعود صالح بن طريف الذي تعلم السحر والشعوذة والجدل ورحل في ذلك وعفت مخارقه، فأظهر للبربر من نيرجته وسحره ما أمكنه به جلب قلوبهم والاستماتة دونه، ثم جاء يونس فأظهر من السحر أنواعا , فكان يخبرهم بالكوائن والأمور الغيبية، فعظمت بذلك مكانتهم وضخمت دولتهم وهذا ليس ببدع, فإنا ما زلنا نرى من يدخل قبائل البربر ويسودهم بدهائه وسحره فيضحون دونه بالأنفس والأموال, وهذا مشاهد لا يحتاج إلى نصب الدليل والبراهين عند من طالع تواريخ البربر وغيرهم من الأمم المغفلة , والله أعلم.

الدولة اللمتونية المرابطية

أوليتها: إن نسب لمتونة في صنهاجة, وقد سبق بيان صحة انتساب صنهاجة عرب اليمن, وكان دخولهم، أي صنهاجة للمغرب، لما تمكن افريقش اليمني من دخول بلاد المغرب فدخلوا معه , وفي كتاب أخبار الدول وآثار الأول لأبي العباس أحمد القرموني, ودائرة الأنظار للصفاقصي كان أول مسير لمتونة عن اليمن في أيام أبي بكر الصديق سيرهم إلى جهة الشام، ثم انتقلوا إلى مصر، ثم إلى المغرب مع موسى بن نصير وأحبوا الانفراد فدخلوا واستوطنوها ه، وفي كتاب ابن الأحمر المؤلف في بيوتات فاس[1] أن لمتونة لما سمعوا بخلافة الإمام إدريس الأكبر قدم عليه وفدهم وأسلموا ورجعوا إلى بلادهم، وأما غانة فأسلموا على يد عبد الله بن ياسين ه، وهذا إنما يوافق القول الأول أو يكون إسلامهم تنوسي فقدم وفدهم لتجديد الإسلام، ولما حج منهم يحيى بن عمر اللمتوني حضر مجلس الشيخ أبي عمران الفاسي بالقيروان وطلبه فيمن يذهب معه إلى الصحراء لنشر الدين والشرائع الإسلامية فكتب له إلى أبي وجاج بالمغرب الأقصى فبعث معه تلميذه عبد الله بن ياسين الجزولي، فوجدهم قد أخلوا بكثير من الشرائع الإسلامية سوى الشهادتين، فجعل يدعوهم إلى شرائع الإسلام الحقة, فعظم ذلك عليهم فنابذوه ورفضوا طاعته، فلما أيس منهم بالرجوع إلى المغرب، فقال له الأمير يحيى هلم بنا إلى جزيرة في البحر نعبد الله فيها، فدخلاها ومكثا يعبدان الله فجعل الناس يتسللون إليهم فرادى، كل واحد يسلم إسلاما جديدا ويمكث معهم, وكان يسميهم المرابطين حتى اجتمع لهم عدد كبير، فقال لهم عبد الله بن ياسين نخرج إلى الناس وندعوهم إلى الله،

---

[1] - عبد الكبير بن هشام الكتاني، زهر الآس في بيوتات أهل فاس. ج2/ 160 – 161 .

فخرجوا ودعوهم إلى الله فلم يطيعوه فجاهرهم بالمرابطين، وكانت له النصرة عليهم فمهد الإسلام بتلك الأنحاء وعظم أمره, وفي سنة سبعة وأربعين وأربعمائة توفي الأمير يحيى، فولى عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر في هذه السنة (وقيل سنة خمسين) دخلوا درعة بعد حروب انجلت عن نصرتهم، ثم ساروا إلى سجلماسة باستدعاء علمائها, وفي ربيع الثاني من سنة 48 أمر عبد الله بن ياسين الأمير أبا بكر بغزو السوس الأقصى، فانتدب إليه في جيش عظيم وكان على مقدمته يوسف بن تاشفين، فغزا جزولة من قبائلهم وفتح ماسة, وفي سنة تسعة وأربعين فتح تارودانت وسائر معاقل السوس الأقصى ومحا أثر الروافض هناك ثم توجه لمصامدة الجبل بدرن فأطاعته، ثم مصامدة السهل ففتح مدينة شيشاوة بالسيف, ووفدت عليه رجراجة وحاحة فبايعوه, ثم ارتحل إلى مدينة أغمات ففتحها ثم تادلا كذلك, وفي سنة خمسين وأربعمائة توجه لقتال برغواطة وأميرهم يومئذ أبو حفص عبد الله البرغواطي , فكانت بين الفريقين حروب شديدة باشر الحرب فيها الزعيم الفقيه عبد الله بن ياسين, وأبلى فيها البلاء الحسن وجرح بجروح خطيرة، ولما أثقلته الجراحات حمل لمعسكره وبه رمق، فجمع أشياخ المرابطين وأوصاهم بجمع الكلمة, وعدم التحاسد والتباغض, وتوفي عشية يوم الأحد الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، ودفن بكريفلة ببلاد زعير الآن، قرب رباط الفتح، وعليه مسجد هناك رحمه الله , وكان عبد الله بن ياسين شديد الورع في المطعم والمشرب, فكان طول إقامته في لمتونة لا يأكل شيئا من لحومهم وألبانهم لكون أوانيهم غير طيبة لجهلهم وكان يعيش من لحوم الصيد, وكان صائما منذ دخل بلادهم , ومن حسن سياسته أنه نصر فيهم السنة والشرائع الحقة في مدة يسيرة وكان من فاتته الصلاة في الجماعة يضربه عشرين سوطا, ومن فاتته ركعة يضربه خمسة أسواط, وكان ذا فطنة وذكاء، فقد ذكر العلامة أبو علي الحسن بن عبد الله في كتاب آثار الأول في كتاب الدول أن عبد الله بن ياسين كان يوما جالسا في خيمته مع خواصه فرأى حجاما يدور حول خيمته ويعرض صنعته فأمر بإدخاله وسأله موضعه –وكان غريبا– فلم يزل يستنطقه حتى أمر بإخراج محاجمه ومشارطه وأمر بأن يشرط بها، فأمسك وحجم فورم موضع الحجامة, وكانت المشارط مسمومة فتعجب من حضر من فطنته وسئل عن ذلك فقال : الريبة ظاهرة وذلك أنه غريب ويوم صائف وآخر النهار، وهو يلح ويدور حولنا واستدعاه غيرنا فلم يلتفت إليه، فعلمت أن القصد لنا بغدر فكان دسيسة من عند علي بن يوسف

وهو نائبه على البلاد وخليفته بها ه,. ولما فرغ الأمير أبو بكر من دفن عبد الله بن ياسين كان أول ما فعله أن عبأ جيوشه وقصد قتال برغواطة، فكان النصر حليفه ومروا أمامه لا يلوون على شيء، فاتبعهم وأثخن فيهم قتلا وسبيا حتى استأصل شأفتهم وتفرقوا في الصحاري والبلدان, ومحا من الأرض ديانتهم الخسيسة, وانقرض أمرهم, وكان الأمير الذي انقرضت عليه دولتهم هو أبو حفص عبد الله, وأسلموا إسلاما جديدا, ورجعت هذه البلاد لحوزة الإسلام, واتسعت العمارة بأسفي وممن استوطنه إذ ذاك بيت الشيخ أبي محمد صالح الماجري دفين أسفي الآن رضي الله عنه وعن سلفه. ثم إن الأمير أبا بكر فتح بلاد فازاز ومكناسة, ولواتة ورجع إلى أغمات، فبلغه تفاقم الأمر بالصحراء، فاستخلف يوسف بن تاشفين على المغرب ودخل الصحراء في ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين فأصلح شأنها وفتح من بلاد السودان مسيرة ثلاثة أشهر, ورجع إلى المغرب، فوجد يوسف بن تاشفين فتح المغرب ومهد أرجاءه, وعمل شارة الملك فتنازل له عن مملكة المغرب، ولاطفه الأمير يوسف بن تاشفين بالهدايا والأموال والطرف التي لا توجد بالصحراء، فرجع إلى الصحراء وتوفي في شهر شعبان سنة ثمانين وأربعمائة شهيدا في بعض حروب السودان رحمه الله.

دولة الأمير يوسف بن تاشفين اللمتوني

مولده: بالصحراء سنة أربعمائة , صفته أسمر اللون نقيه, معتدل القامة نحيف، خفيف العارضين, رقيق الصوت, أكحل العينين, أقنى الأنف, له وفرة تبلغ شحمة أذنه . أقرن جعد الشعر , كان رحمه الله بطلا شجاعا حازما مهابا ضابطا لملكه حافظا لبلاده وثغوره , مؤيدا منصورا, لم تهزم له راية قط, كان يركب في أزيد من ستين ألف فارس , وكان متقشفا, لباسه الصوف, وأكله الشعير ولحوم الإبل وألبانها، مقتصرا على ذلك إلى أن توفي على ما منحه الله من المملكة الواسعة، فكانت مملكته مسيرة خمسة أشهر للجاد الراكب وذلك من اخر الأندلس إلى بلاد أركون[1] مما يلي الإفرنج إلى آخر بلاد الصحراء مما يلي السودان, وخطب له على أزيد من ألفي منبر, ولم يوجد في بلاده رسم مكسر ولا معونة ولا خراج إلا ما أمر الله به, وكان محبا للفقهاء صادرا عن أمرهم، رادا إليهم الأمور, وبلغ الفقهاء في أيامه وأيام ولده مبلغا عظيما , قال الشيخ محيي الدين المراكشي في المعجب[2]: انقطع إليه من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم

[1]- أركون من ممالك الافرنج المعروفة في الأندلس.
[2] - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 254 .

واجتمع له ولولده من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من العصور ولم يكن يقرب منه ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك. فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب, وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها, وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله, وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يكن أحد من مشاهير ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء »، وجاز إلى الأندلس أربع مرات, وكانت له المواقف المشهورة، والوقائع المعدودة في نصرة الإسلام وإعزازه, واستنزل ملوك الطوائف بالأندلس لما ظهر له تخاذلهم وتواكلهم فاستفتى الفقهاء في أمرهم فصارت إليه فتاوى أهل المشرق مثل الغزالي والطرطوشي كما في ابن خلدون[1]. وقال غيره : أفتاه بذلك علماء اشبيلية وقضاتها وأن ملوك الطوائف لا تحل إمارتهم لتخاذلهم وأنهم إن تركوا يخاف عليهم من توليج البلاد لأعدائهم, بذلك استنزلهم واستولى على الأندلس وأحيا بها رسم الدين وسلك سبيل الهداة المهتدين، وفي دولته ظهر الأدارسة, وأمنوا على أنفسهم بعد اختفائهم منذ دولة ابن أبي العافية , وكانت زوجته زينب بنت اسحاق الهواري, رجل من التجار هي المدبرة أمر ملكه, كان تزوجها ابن عمه أبو بكر, ولما هم بالرجوع إلى الصحراء طلقها وعهد إليها بأن تتزوج ابن عمه يوسف, إذا خرجت من العدة , فتزوجها وكانت المدبرة لأمره, والفاتحة بسياستها أكثر بلاد المغرب , وكانت حازمة لبيبة , ذات رأي وعقل وجزالة ومعرفة بإدارة الأمور حتى كان يقال لها الساحرة, مشهورة بالجمال والرياسة والأدب والسياسة, توفيت سنة 464 ه رحمها الله.

وفاته : (أي يوسف بن تاشفين) يوم الاثنين لثلاث خلون من المحرم سنة 500 ه بمراكش، وقبره الآن قرب جامع الكتبيين, في بيت مهمل , لا سقف له, رحمه الله ورفع درجته, وقد خلف عدة أولاد, منهم الخليفة بعده أمير المؤمنين علي, والأمير تميم , كان خليفته على مراكش وأغمات, وبلاد المصامدة, وتامسنا , وولاه أخوه على إمارة الأندلس وتوفي سنة 520 ه , وتميمة الأديبة الشاعرة, كانت كاملة الحسن, راجحة العقل مشهورة بالأدب والكرم , رآها يوما كاتب لها فبهت, وكانت قد أمرت بمحاسبته وبرزت لذلك, فلما نظرت إليه عرفت ما دهاه, وفطنت لما عراه، فأومأت إليه وأنشدته :

---

[1] - عبد الرحمان بن خلدون/ تاريخ ابن خلدون، المجلد السادس القسم 384/11.

هي الشمس مسكنها في السَّماء فعزِّ الفؤادَ عزاًء جميـــــلا
فلن تستطيع إليها الصـــــعودا ولــن تستطيــع إليك النزولا[1]

ذكر هذه القصة ابن الأبار في تكملة الصلة[2].

دولة الأمير علي بن يوسف اللمتوني رحمه الله

مولده سنة سبع وسبعين وأربعمائة , **صفته** : أبيض اللون مشربا بحمرة , تام القد, أسيل, أفلج أقنى , خفيف العارضين , أكحل العينين, سبط الشعر, بويع بعد موت والده بمراكش غرة محرم سنة 500 ه , وملك جميع بلاد القبلة من سجلماسة إلى جبال الذهب من بلاد السودان . وملك بلاد الأندلس شرقا وغربا وملك الجزائر الشرقية وميورقة وبياسة وخطب له علي ألفي منبر وثلاثمائة منبر , وملك من البلاد ما لم يملكه والده , قال في الحلل : وهو أول من استعمل الروم وأركبهم وقد مهم على جباية المغارم ه . والذي في القرطاس[3] أن أول من استعملهم بالمغرب أبو العلاء إدريس المدعو المامون الموحدي كما سيأتي, وكان إذا ولى أحدا من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمرا ولا يبث حكما في صغير الأمور وكبيرها إلا بمحضر أربعة من الفقهاء، فبلغ العلماء في أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس, واجتمع له ولوالده من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من العصور, و للأمير علي ألف الفتح بن خاقان قلائد العقيان, وقد ذكره في خطبته, وكان جوازه إلى الأندلس في خلافته أربع مرات للغزو وتفقد الأحوال، وكان ضابطا للثغور مضطلعا بالأمور, لكن في آخر أيامه تنسك وصام النهار وقام الليل وعكف على العبادة, فاختلت الأحوال واستبد كثير من المرابطين عليه في البلدان, وقنع بما يجلب إليه من الخراج باسم الإمارة فاضطربت الأمور, وظهر المنكر, وهو متغافل, فلذلك وجد السبيل للكلام فيه المهدي بن تومرت كما سيأتي.

وفاته : توفي رحمه الله سنة 537 ه .

---

[1] ـالبيتان للعباس بن الاحنف. ديوانه ص 221، تحقيق عاتكة الخزرجي ط. مصورة بالأوفست. مط فضالة المحمدية المغرب 1977

[2] ـ ابن الأبار ، تكملة الصلة لم يرد اسم تميمة ضمن الأسماء التي وردت في الجزء الأول ،وبالضبط في الصفحات الخاصة بحرف التاء.

[3] ـ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 324 .

دولة أبي المعز تاشفين بن علي بن يوسف

بويع بعهد من أبيه سنة 37 في معظم فتنة الموحدين ولم تنتصر له راية معهم مع كونه كان منصور الراية- بالاندلس- وفاته: توفي لسبع وعشرين من رمضان سنة 539هـ بوهران خرج ليلا ليضرب في جيش عبد المومن بن علي فكانت الهزيمة عليه ففر وسقط في البحر رحمه الله. ثم بويع الأمير ابراهيم بن يوسف بمراكش وخلع لعجزه وبويع ابن علي وعليه كان انقراض دولتهم وكان استئصالهم في آخر شوال سنة إحدى وأربعين وخمسمئة رحمهم الله.

الدولة الموحدية وأوليتها

مؤسس هذه الدولة هو محمد بن تومرت الهرغي المصمودي, وزعم غير واحد من المؤرخين أن نسبه في آل البيت من أولاد أخي المولى إدريس الأكبر وهو السيد سليمان بن عبدالكامل, نزلوا سوس الأقصى صدر الإسلام, مولده : يوم عاشوراء عام 435 ه وقيل غير ذلك في ميلاده فنشأ محبا للعلم طالبا له , ورحل للمشرق ودخل الأندلس فأخذ بقرطبة عن ابن حمدون , وبالمهدية عن المازري, وبالأسكندرية عن الطرطوشي، ودخل بغداد, ولقي فحول النظار كأبي حامد الغزالي والهراسي وغيرهم فاستفاد منهم علما واسعا من الحديث وأصول الفقه والدين والجدل وأخذ عن، الأشعرية واستحسن طريقتهم في تأويل المتشابه والدفاع عن العقائد بالحجج العقلية ورجع إلى المغرب بحرا متبحرا من العلم، آخذا نفسه بنشر العلم أينما حل وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, وجرت عليه بسبب ذلك محن كان يحتملها فشاع خبره وفشا في الناس ذكره فدخل مراكش واجتمع بالأمير علي بن يوسف فوعظه وأغلظ له في القول ناعيا عليه ظهور المنكر في بلده فجمع عليه العلماء فناظروه وكانوا خلوا من طريقة الأشعرية ولا علم لهم بالجدل، فظهر عليهم وغلبهم فأنذروا به السلطان وأمروه بسجنه تخوفا من سوء عاقبة أمره, فلم يساعدهم ورعا منه، فخرج من مراكش خائفا يترقب فبعث السلطان الطلب في أثره فنزل على قومه من هرغة فتعصبوا عليه، فمكث عندهم فعلم الناس الدين والتوحيد باللسان البربري وألف لهم المرشدة، فاجتمع عليه الناس وتسمى بالمهدي، وكان قبله يدعى بالامام، فبايعوه يوم الجمعة 14رمضان عام 515 ه بايعه العشرة من أصحابه ثم المصامدة على قتال المجسمين بزعمه، ثم انتقل بعد ثلاث سنين إلى تينمل . وكانت بينه وبين المرابطين حروب عظيمة أظهر خلالها من السياسة والدهاء عجبا, فجهز الجيوش لحصار مراكش حتى عدمت الأقوات وكثرت الأموات، وهزم المرابطين نحو أربعين هزيمة في حين أن الموحدين لم

ـيزموا إلا مرة واحدة , ولم يزل يوالي تجهيز الجيوش على المرابطين إلى ـ توفي سنة أربع وعشرين وخمسمائة , وعهد بالأمر لعبد المومن بن علي كما ذكره ابن خلدون في الجزء السادس،[1] صحيفة 229.

دولة السلطان عبد المومن بن علي الكومي

كانت بيعته بتينمل سنة 524 ه . كان قد طلب العلم بتلمسان فأخذ عن مشيختها مثل ابن صاحب الصلاة , وعبد السلام البرنوسي وغيرهما، وكان فقيها متفننا شيخ عصره في الفقه والكلام والحديث والأصول والفلك , ولما لقي **المهدي** اختص به وعكف على الأخذ عنه في ظعنه وإقامته وآثره المهدي بمزيد الخصوصية والقرب , ولما استوثق له الأمر كان أول ما فتح وهران، ثم تلمسان ثم فاس, وفي سنة 40 دخلت دكالة وأسفي وما والاها في طاعة عبد المومن ثم مراكش , وكان فتحها في 18 شوال سنة 541 فاستباحوها وبيع عيالها بيع العبيد, وكان سفاكا للدماء ذا حزم وتيقظ، لم تهزم له راية , ولما مهد المغرب رتب الخطباء بالمساجد من الذين يحفظون اللسان البربري يخطبونَ به , وعزل أصحاب اللسان العربي في جميع البلاد، فكان لا يخطب ولا يؤم إلا من يحفظ التوحيد بلسان البربر

ثورة الماسي المدعو الهادي

اسمه محمد بن هود كما في القرطاس[2] والعبر[3] , وقال السدي : اسمه عمر من أهل سلا، حضر مع عبد المومن فتح مراكش وبايعه ثم ظهر برباط ماسة فاجتمع عليه الغوغاء وانقادت إليه سائر القبائل من المصامدة وغيرهم كجزولة وحاحة ورجراجة ودكالة وبني ورياكل وتامسنا وهوارة وهسكورة وسجلماسة ودرعة حتى لم يبق تحت طاعة عبد الومن إلا مراكش، فجهز إليه عبد المومن جيشا فهزمه، ثم آخر فانهزم الثائر وجيوشه فأدرك وقتل , وذلك في ذي الحجة سنة 541 ه كما في العبر[4] , والذي في القرطاس أن ظهوره سنة 542 ه وهزيمته في ذي الحجة من السنة (نفسها) المذكورة .

---

[1] - ابن خلدون، كتاب العبر :229/6.

[2] - ابن لأبي زرع، روض القرطاس، ص 244 – 245 يقول ابن أبي زرع (دخلت سنة أثنتي وأربعين وخمسمائة، فيها خرج على أمير المومنين الماسي وأسمه محمد بن هود بن عبد الله).

[3] - عبد الرحمان بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المجلد السابع، القسم الأول، 168/13.

4- نفس المصدر.

خروج يحيى بن أبي بكر الصحراوي بدكالة وتامسنا

كان يحيى واليا على فاس منذ منازلة عبد المومن لها , ثم لحق بطنجة وأجاز البحر إلى الأندلس عند ابن غانية بقرطبة وصار في جملة المرابطين من لمثونة, ثم إن أهل سبتة لما نكثوا طاعة الموحدين أجاز القاضي عياض إلى ابن غانية , وطلبه واليا على سبتة, فأرسله معه , وقام بأمرها ووصل يده بالقبائل التي خرجت عن طاعة الموحدين كاهل تامسنا ودكالة على حين هزيمتهم لعبد المومن لما غزاهم عقب خروجهم مع الماسي، فكتب برغواطة ودكالة للصحراوي صاحب سبتة لما سمعوا بخروج عبد المومن إليهم يستنصرون به، فجاء إلى برغواطة فأكرموه وقاموا وقعدوا في طاعته، ثم خرج إلى دكالة فاجتمعوا عليه وأمروه عليهم ودخل في طاعته رجراجة وحاحة فلما سمع بذلك عبد المومن خرج إليهم فهزموه ثم كانت له الكرة عليهم فاستأصلهم ودوخ بلادهم حتى انقادوا للطاعة وهرب الصحراوي ثم طلب الأمان فأمنه , وكان خروجه إليهم كما في العبر سنة 542ه ومكث في غزوته تلك ستة أشهر، وقال القاضي أبو عبد الله محمد بن عياض[1] : إن خروجه لدكالة كان في آخر جمادى الأولى سنة 544 ه ويؤيد الأول ما في الحلل الموشية[2] أنه في أثناء ثورة الماسي قاتل عبد المومن قبيلة دكالة فانحازوا إلى الساحل في نحو عشرين ألف فارس ومائتي ألف راجل , وسار إليهم عبد المومن في أمم لا تحصى من الخيل والرجل والرماة, وكان أهل دكالة لا رامي عندهم، فانحل نطاقهم وفل جمعهم وخرجوا عن وعيهم[-] الذي كانوا فيه فألجأهم السيف إلى البحر، فقتل أكثرهم في الماء وأخذت إبلهم وغنمهم وأموالهم وسبي أولادهم وانتهى البيع فيهم إلى بيع المرأة بدرهم والغلام بنصف درهم ه، وذكر أبو بكر البيدق[3] أنه أرسل جريدة مع عبد الله بن فاطمة اللمتوني لتامسنا فقتل منهم في تيط ستمائة وجريدة مع إسحاق بن عمر الهنتاتي إلى دكالة فقتل منهم ستمائة وكان شفيقا عليهم ه . قلت كانت دكالة لها صيت ومنعة وتعاص على الأمراء بعصبيتها وكثرتها حتى أخضعها

---

[1] - أبو عبد الله محمد بن عياض (القاضي) من علماء المغرب البارزين توفي بمراكش سنة 544 هـ له مجموعة من المؤلفات، منها الشفاء، وترتيب المدارك والالماع وغيرها، أنظر حوله، التعريف بالقاضي عياض لولده أبي عبد الله محمد، منشورات وزارة الاوقاف والشوون الإسلامية ط 2 (1982) أزهار الرياض في أخبار عياض للمقرى، وغيرهما.

[2] - مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، ص 147 .

[-] - عن وعيهم، الأصل : عن وعد الموضع.

[3] - أبو بكر البيدق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية الدولة الموحدية، ص 69 .

عبد المومن وحفدته وفرقوها في المغرب، وقد كان لبعض حفدته معها مواقف كانت له الكرة عليهم أيضا, فقد ذكر مؤلف المنهاج الواضح[1] أنه لمامات الشيخ الفاضل أبو محمد عبد الصمد الدكالي ببلد دمشق صاحب زاوية الكلاسة خرج الشيخ محمد صالح على أصحابه فقال لهم اليوم مات عبد الصمد بدمشق وارتفعت حمايته عن دكالة , قالوا : فما بلغ الظهر من ذلك اليوم حتى وقع النهب في دكالة وشنت الغارة عليهم حتى سبيت أموالهم , وجاء خبر موت عبد الصمد فكان في ذلك اليوم الذي عينه الشيخ ه .

فتح افريقية الشمالية

في سنة 554 ه كتب أمراء أفريقية لعبد المومن, وأوفدوا عليه وفدا يستجدونه لما نزل النصارى بالمهدية، فخرج في جيشه فكانوا يمرون بالطريق الضيقة بين المزارع فلا يؤذونها بشي, ويصلون الخمس بتكبيرة واحدة خلف إمام واحد ففتح القيروان وتونس وصفاقص وسوسة, ونزل على المهدية ثاني عشر رجب من السنة المذكورة , وشدد الحصار عليها برا وبحرا , ليلا ونهارا, ولم يرفع عنها الحصار إلى أن فتحها في المحرم سنة 555 ه ودخل في طاعته جميع ثوار افريقية , وأحضر أمراء عرب افريقية وأحلفهم في مصحف عثمان على السمع والطاعة والسير معه إلى الأندلس لقتال العدو, فلما سار عبد المومن بلغه في أثناء الطريق نكثهم فرجع إليهم وأوقع بهم ونقل منهم إلى المغرب الأقصى ألفا من كل قبيلة بعيالا تهم وأبنائهم , وهم عرب جشم , وفي سنة 550 ه أمر برد الناس إلى الكتاب والسنة وأن تكون الأحكام تستنبط منها . وأمر بإحراق كتب الفروع وإصلاح المساجد وبنائها في جميع أيالته ,

وفاته : توفي ليله الجمعة الثامن من جمادى الأخيرة سنة 558 ه برباط الفتح , وحمل إلى تينمل فدفن بجانب المهدي رحمهما الله تعالى عن ثلاث أ و أربع وستين سنة , وكانت مدة ملكه ثلاثا وثلاثين سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوما .

دولة ولده أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن رحمه الله

صفته : كان أبيض، مشربا بحمرة، حسن القد، أشعر اللحية، أفلج، أقنى، أيمن، أعسر، يعمل بكلتا يديه.

حاله : كان من أحفظ الناس لأيام العرب في الجاهلية والإسلام فقيها حافظا مائلا إلى علم الحكمة أكثر من ميله إلى بقية العلوم، وكانت له دار كتب جمع

[1] - ابن إبراهيم الماجري، المنهاج الواضح، تحقيق عبد السلام السعيدي، ص316.

فيها كثيرا من المؤلفات، عاقلا صالحا، ورعا، متوقفا في الدماء حليما، سياسيا، مصيب الرأي , لم يكن في أيامه مكر ولا جور، تمهدت في دولته البلاد وأمنت الطرقات وضبطت الثغور وصلح أمر الناس لحسن سيرته , ومباشرة أمور مملكته بنفسه حتى كان لا يغيب عنه شيء. وفي المعجب للمراكشي أنه كان شيخا استغنى الناس في أيامه وكثرت في أيديهم الأموال مع إيثار شديد للعلم وتعطش إليه مفرط, صح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين, الشك مني أما البخاري أو مسلم , وأغلب ظني أنه البخاري بعد أن تعلم القرآن مع ذكر جميل من الفقه ومشاركة في الأدب واتساع في حفظ اللغة وتبحر في علم النحو، ثم طمحت نفسه إلى تعلم الفلسفة , فجمع كثيرا من أجزائها , وبدأ بعلم الطب وأمر بجمع كتبها فاجتمع له قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي , ولم يزل بجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب, ويبحث عن العلماء , وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب ه. وكانت له بالأندلس المقامات المحمودة والمواقف المشهورة في حرب الأسبان وغيرهم. بويع بعد وفاة أبيه غدوة يوم الأربعاء حادي عشر جمادى الأخيرة سنة 558 ه وقيل غير ذلك، وتوفي يوم السبت الثاني عشر من ربيع الأخير سنة 580 ه ودفن بتينمل بسبب سهم أصابه وهو محاصر شنترين[1] إحدى مدن البرتغال تدعى بسنتارم من غرب الأندلس, وكانت دولته اثنين وعشرين سنة وله عدة آثار جليلة بالأندلس والمغرب منها جامع اشبيلية وغيره. وهو الذي أمر بقراءة حزب القرآن صباحا وعشيا في جميع المغرب واتصل العمل بذلك إلى الآن. وكان له من الأولاد : الخليفة من بعده يعقوب المنصور وكانت له بنت اسمها زينب، عالمة أديبة صاحبة الرأي فاضلة، أخذت عن عبد الله بن إبراهيم علم الكلام وغير ذلك, تزوجها ابن عمها أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المومن , ذكرها ابن الأبار في التكملة[2] .

دولة أبي يوسف يعقوب المنصور يوسف الموحدي

صفته : كان آدم اللون، معتدل القد، أسود الشعر، له وفرة تتعقد على جبينه.

حاله : كان إماما عالما نظارا يجيد حفظ القرآن ومتون الأحاديث ويتكلم في الفقه كلاما بليغا , وكان فقهاء الوقت يرجعون إليه في الفتاوى، وله فتاوى مجموعة حسبما أداه اجتهاده. أمر برفض كتب الفروع والرأي وربما سجن من

1- مدينة برتغالية، وهي المدينة التي ينسب إليها ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة.

2- بحثنا عن هذه الشخصية في جل الاجزاء المطبوعة المتوفرة، من كتاب التكملة لكننا لم نعثر على الإسم المقصود (زينب).

اشتغل بها, وأمر بإحراقها وبالفعل أحرقت المدونة وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد ومختصره والتهذيب والواضحة, وغير ذلك, في جميع إيالته. وكان الفقهاء لا يفتون إلا من الكتاب والسنة ولا يقلدون أحدا من الأئمة, وتكون أحكامهم بما يؤدى إليه اجتهادهم واستنباطهم من الكتاب والحديث والإجماع والقياس. وأمر جماعة من المحدثين فجمعوا له مصنفا سماه الترغيب في أبواب الصلاة وما يتعلق بها، جمعوه من المصنفات العشرة: الصحيحين والترمذي والموطأ وسنن أبي داوود والنسائي والبزار ومسند ابن أبي شيبة وسنن الدار قطني والبيهقي، فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه الخاصة والعامة، وكان يجعل الجعل السني لمن يحفظه. ونال عنده أهل الحديث من العز والرفعة ما لم ينالوا في أيام أبيه.

مجالس المناظرة في أيامهم (الموحدين) وإلقائهم المسائل

قال صاحب المعجب[1] : جرت عادتهم باستجلاب العلماء إلى حضرتهم من أهل كل فن, وخاصة أهل علم النظر, وسموهم طلب الحضر , ولا بد في كل مجلس عام أو خاص , ويجلس الخليفة مثلهم[2] , فأول ما يفتتح به الخليفة مجلسه مسألة من العلم يلقيها بنفسه أو بإذنه[3], وكان عبد المومن ويوسف ويعقوب يلقون المسائل بأنفسهم هـ، ويوالي الغزو والجهاد, وكان أخذ نفسه بأحوال الصدر الأول من أمراء المسلمين, يخطب بنفسه ويصلي بالناس الصلوات الخمس , ويقتصد في مأكله وملبسه, وكان أكثر لباسه الصوف ويجلس في الأماكن التي يصل إليها الضعفاء والنساء وذوو الحقوق, قال : ومن جميل غرر مناقبه, وكريم آثاره أنه كان له ابن أخت لم يكن بمراكش أحسن صورة منه, ابن ثماني عشرة سنة واتفق أن قدم إلى مراكش رجل من التجار مع امرأته وكانت من أحسن النساء صورة فرآها ابن أخت يعقوب المنصور فأعجبته، فبعث إليها من أتا بها وجعلها في داره , فتقدم زوجها ليعقوب المنصور, وقال : يا أمير المؤمنين أنا رجل غريب وقد غصبني ابن أختك زوجتي وأخذها مني، فلما سمع كلامه لم يملك نفسه حتى قام مسرعا وقال للرجل اتبعني وأتى دار ابن أخته فقال له لم أخذت زوجة هذا الرجل، فأنكر ذلك فقال الرجل : يا أمير المؤمنين : لي كليبة قد ربتها المرأة فإن رأيت أن تحضر لي كل امرأة في هذه الدار وأحضر هذه الكليبة فإنها تعرفها من

---

[1] - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 484.

[2] - في الاصل يجلسه الخليفة منهم.

[3] - في الأصل أو تلقى بإذنه.

بين ألف امرأة فأمر السلطان بجمع من في الدار من النساء، وقد أخرجن المرأة بينهم وغيرن زيها وألبسن لها من الحلي والحلل ما غير صفتها، ثم أمر السلطان بإطلاق الكليبة، فدخلت الدار وصارت تخلف النساء واحدة واحدة إلى موضع المرأة فبصبصت ووقفت عندها، فلما رأى السلطان ذلك نادى بالمرأة فأتته فاختبر أمرها فوجدها زوجة الرجل فدفعها إليه بما عليها من الحلي والحلل, ثم قال لابن أخته: ما حملك على اغتصاب هذه المرأة الغريبة من هذا الرجل الغريب وقد قدم علينا من بلاد بعيدة، وقد أغناك الله عنها بما عندك من الجواري المستحسنات، ثم أمر غلمانه بقتله، فخرجت أم الولد بادية تبكي بين يدي السلطان وتقول له : يا أخي لا تفجعني في ولدى فما لي غيره, فقال لها : والله لا تركت حق الله فيه فإنه محارب، فقتل الولد بين يديه وأمه تنظر إليه , يعني والله أعلم بعد اعترافه بذلك رحمهما الله تعالى ه. وقد كان شجاعا مقداما اجتاز مرارا إلى الأندلس , وكانت له اليد البيضاء في حرب الإسبان من جملتها وقعة الأرك سنة 591 ه مع الفونس، أسر فيها من الأسبان24 ألف فارس، ثم كان من كريم شيمه أن امتن عليهم من غير شي حسبما خولته الشريعة الإسلامية ذلك . ولحسن سيرته وإقامته الحدود تمهدت البلاد وأمنت السبل حتى كانت الظعينة تخرج من بلاد نول إلى برقة فلا يسألها أحد, وأخذ بثأر والده من البرتغال فهجم عليهم وأخذ مدينة سنترين استنارم , وفي سنة 582 ه خرج إلى أفريقية، فمهد أرجاءها , ونقل العرب الذين كانوا بها من جشم وهلال ورباح فأسكنهم بسائط المغرب ليكسر بذلك شوكتهم بقربهم من الحضرة, ومنهم قبائل عبدة ودكالة والشياظمة وغيرهم من سكان البسيط مما بين مراكش والبحر المحيط وسيأتي بسط ذلك .

آثاره : منها قصبة مراكش ومسجدها ومنار جامع الكتبيين ورباط الفتح وجامع حسان ومناره وسور أسفي حسبما يظهر ولقد بنى المساجد والمدارس في جميع إيالته، والقناطر والجباب للماء في الصحاري، واتخذ عليها المنازل والمنارات للمسافرين من سوس الأقصى إلى سويقة بني عضكوط, وبنى المارستانات للمرضى والمجانين وأجرى الإنفاق عليهم وعلى الجذمى والعمي في جميع عمله وابتنى للفقراء والجرحى في الحرب تكايا ورتب لهم ما يخصهم , وأغدق النعم على الفقراء والقضاة ليتفرغوا لفصل الخصوم وخدمة الشريعة ولو لم يكن له إلا مارستان مراكش لكفاه فخرا وفضلا وشفوفا على الأمم الراقية , قال صاحب المعجب[1] : ما أظن أن في الدنيا مثله وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد وأمر البنائيين بإتقانه على أحسن

---

[1] - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 411 .

الوجوه .فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة بما زاد على الاقتراح، وأمر أن يغرس فيه مع ذلك جميع الأشجار المشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياها كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك في وسطه، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره مما يزيد على الوصف وأجرى له ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة , خارجا عما جلب إليه من الأدوية وأقام فيه الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء , فإذا نقه المريض , فإن كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل بنفسه, وإن كان غنيا دفع إليه ماله وتركته , ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء بل كل من مرض من مراكش من غريب وغيره حمل إليه إلى أن يستريح أو يموت، وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله ويعود المرضى, ويسأل أهل بيت بعد أهل بيت, يقول ,: كيف حالكم ؟ وكيف القومة عليكم، إلى غير ذلك من السؤال، ثم يخرج، ولم يزل مستمرا على ذلك إلى أن مات رحمه الله . وهذا وحقك الفخر العظيم الذي يحق على بني الإنسان التنافس فيه , اللهم ارحمه وارفع درجته, وأكرم منزلته بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين, وكان بعد سنة 583 ه أظهر التقشف والزهد والخشونة في الملبس والمأكل وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيت, وقامت لهم سوق, وكان يستدعي الصالحين ويكتب إليهم يسألهم الدعاء ويصل من يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة , قاله في المعجب.

وفاته : توفي بعد العشاء الأخيرة من ليلة الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة 595 ه بمراكش, وحمل إلى تينمل، وقيل دفن بمحله من مراكش عن أربعين سنة , وكانت دولته أربع عشرة سنة وأحد عشر شهرا وأربعة أيام. قال ابن صعد في النجم الثاقب: وما زعمه أبو عبد الله ابن بطوطة والقاضي أبو العباس ابن خلكان وغيرهما من أن هذا الملك ترهب وانخلع من الملك, ولبس المرقعة وقصد بلاد المشرق زاهدا متبتلا وأنه توفي هناك فلا تلفت إليه ولا تعرج عليه ه. وممن انتقده العلامة المقري في نفح الطيب[1], وقال : هذه مقالة عامية لا يثبتها علماء المغرب, ونقل عن الشريف الغرناطي أنها لا أصل لها, وذكر صاحب النفح عن تاج الدين ابن حمدية السرخسي أحد الوافدين على المنصور أنه حضر وفاة المنصور بالمغرب وهذه حجة قوية في

---

[1] ـ أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الرابع / 382، تحقيق إحسان عباس.

نفي انخلاعه عن الملك وسياحته, نعم انخراطه في سلك الصالحين المتبتلين وشغفه بهم وتزييه بزيهم في شؤونه لا يبعد خروجه عن الملك وتبتله, لما تقتضيه طبيعة التشبه بالمحبوب والاقتداء به كما لا يبعد إظهار جنازة باسمه وإشاعة موته عند القائمين بالأمر من مملكته لسياسة يقتضيها الحال, إما ليتم الأمر لولده من بعده كل التمام, وإن كان أخذ له البيعة في حياته فإنها جددت له بعد وفاته وبذلك ثبت استقلاله التام وأما لأمر آخر يعلمه الله.

دولة الناصر بن يعقوب المنصور

صفته: أبيض تام القد, مليح العينين, أدعج, وافر اللحية نحيل الجسم .

حاله: كان غليظ الحجاب, لا تكاد تصل إليه الأمور إلا بعد جهد, مستبدا في أموره وتدبير مملكته بنفسه, وكان معتنيا بالأعمال البحرية, ولذلك نقض جامع حسان وصنع منه محكمات الأجفان والسفائن ثم عدا عليها أهل أزمور وأحرقوها وذلك(والله أعلم) غيظا على نقض المسجد, فحلف ليدخلن أزمور بالسيف, وكأنه ندم على ذلك فأفتى علماء مراكش في يمينه فأفتوه بأن يدخل من باب ويخرج من باب بالسلام , وقد خرج إلى فاس فأصلح شؤونها, وبنى قصبتها وأسوارها , وبلغ إلى أفريقية فقمع ثوارها ومهد أرجاءها , وفي سنة 609 ه جاز إلى الأندلس في جيوش لا تحصى, فخافه أمراء الإفرنج, وتحالفوا عليه بتحريض البابا، فكان من لقيه فيها ملك أرغن وملك قشتالة ونافار, فكانت وقعة العقاب المشهورة, كانت الكائنة على المسلمين , وأورثتهم الفشل ولم تقم لهم راية إلى دولة بني مرين, ولهذه الهزيمة أسباب ذات أهمية , منها استبداد الناصر برأيه إلا عن وزيره ابن الجامع, ومنها أن الوزير المذكور لم يكن شريف النسب في الموحدين فأخذ يبعد أعيان الموحدين ويقهرهم, وانفرد هو بالخدمة ورجل آخر معه, ولم يكن مع ذلك ذا سياسة ولا دهاء, وأبعد أهل الأندلس وأمراءهم, وهددهم, وقتل بعض أمرائهم, ولم يكن يطلعه على الأمور على حقيقتها, فأوغر صدور الموحدين وأهل الأندلس، فلذلك لما اشتبكت الحرب فر أهل الأندلس ثم الموحدون, وإنما كان الحرب في ذلك اليوم للمتطوعين والعبيد, ومنها كثرة الجيوش من غير نظام مع تفاقم القلوب ووغر الصدور , ومنها أن ابن ارفوش كان ناظر ابن عمه الهيوج صاحب لون في إن يوالي المسلمين ويظهر لهم الإسلام حتى يجر عليهم الهزيمة وكذلك كان , فإنهم جروا الهزيمة على المسلمين ورجعوا بعد الهزيمة في أكناف المسلمين يقتلون وينهبون حتى تمت الهزيمة، لكن خفف وطأة الهزيمة السيد أبو حفص ابن أبي حفص بن عبد المومن قريبا من اشبيلية فهزمهم وردهم على أعقابهم وانتعش أمر المسلمين بها، ثم إن الناصر بعد الوقعة المشؤومة صرف همته

إلى الأخذ بالثأر في عزم لم يبلغ إليه ملك قبله, لكن عاجلته الموت, توفي غما بسبب الكائنة يوم الأربعاء حادي عشر شعبان سنة 610، وكانت مدة حكمه خمسة عشر سنة وأربعة أشهر وثمانية عشر يوما بعد أن أخذ البيعة لولده صاحب الأمر من بعده.

دولة أبي يعقوب يوسف بن محمد الناصر

بويع في العشرة الأخيرة من سنة 609 بأمر من والده، وقد راهق الحلم فقام أشياخ الموحدين بتدبير الأمر , وانفرد كل واحد بإقليم أو بلد, وعكف هو على شهواته ومستلذاته, فضعفت الدولة , وولت الأدبار وفي أيامه خرج بنو مرين سنة 613 ه بجهات فاس كما سيأتي, توفي عشية يوم السبت ثاني عشر حجة سنة 620 وكانت دولته عشر سنين وأربعة أشهر ويومين .

دولة أبي محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المومن

بويع على كره بمراكش يوم الأحد 13 حجة عام 620 ه وهو في سن الشيخوخة، وكان عاجزا عن القيام بأعباء المملكة, رجلا صالحا فاضلا عارفا، فاستقام له الأمر شهرين فقط، ثم خلع بعد التهديد بالقتل, وبويع عبد الله العادل، ثم دخلوا عليه بعد ثلاثة عشر يوما فخلعوه, وعاثوا في الدار والحريم, وفتحوا باب الخراب والذلة والانحطاط, وكانت وفاته ليلة الأربعاء خامس رمضان عام621ه.

دولة أبي محمد عبد الله العادل بن يعقوب المنصور

بويع بمرسية منتصف صفر سنة 21, ومات مخنوقا يوم الثلاثاء 21 من شوال سنة 624.

دولة أبي زكرياء يحيى بن الناصر

بويع وهو ابن ست عشرة سنة يوم الأربعاء 28 من شوال سنة 624 فاضطربت عليه الأحوال بمزاحمة المامون له. توفي بأحواز تازة قتيلا يوم الاثنين 28 من شهر رمضان سنة 633 ه وكانت دولته تسع سنين وتسعة أيام كلها فتن مع المامون.

دولة أبي العلاء إدريس المامون بن يعقوب المنصور

بويع باشبيلية يوم الخميس ثاني شوال سنة 624، واجتمع على بيعته أهل الأندلس وسبتة وطنجة، واستنصر على يحيى بجيش(كستيلة) على أن يعطيه عشرة حصون من بلاده , وأن يبني للجيش كنيسة بمراكش , فأجابه المامون لذلك وبنى لهم كنيسة بمراكش بالموضع المعروف بالسجينة, وطمع هذا الجند بحراسة بعض الثغور البحرية مثل طنجة وسبتة وسلا، فكتب البابا ينوشيسيوس الرابع سنة 1346م إليه يطلبه في تسليم بعض الثغور البحرية للجند الافرنجي، فلم يجبه لذلك، وجاء مطران مراكش إلى روما سنة 1350 م وجدد السعي في ذلك , فكتب البابا إلى السلطان المرتضى يلح عليه في ذلك , وإلا فهو يمنع الجند المذكور من خدمته، فلم يعبأ بذلك ورفض طلبه, وكان المطران المذكور يقيم أولا بفاس، ثم تحول إلى مراكش سنة 1223 م وبقي هنالك كرسي للمطران إلى القرن السادس عشر للميلاد. قيل : إن أول من استخدم الجند الإفرنجي بالمغرب المامون, والصواب أن أول من استخدمهم هو السلطان أبو الحسن على بن يوسف اللمتوني, ففي الحلل الموشية[1] أنه أول من استخدم الروم بالمغرب وأركبهم وقدمهم على جباية المغارم ه , وقد غير المامون شعائر الموحدين التي سنها لهم المهدي وهو أول من صرح بلعنه وأسقط اسمه من السكة والخطبة , ويقول لا مهدي إلا عيسى , وجرد السيف في أشياخ الموحدين الذين كانوا بايعوه ثم أعادوا البيعة لأبي زكريا، فقتل منهم بفتوى قاضيه أربعة آلاف وستمائة، كما في القرطاس[2], وفي الحلل الموشية[3] أربعة عشر ألفا, وكانت أيامه كلها فتنة مع يحيى وغيره , توفي يوم السبت منسلخ حجة سنة 629، فكانت دولته خمسة أعوام وثلاثة أشهر ويوما واحدا . وكان فقيها حافظا للحديث، ضابطا للرواية، عارفا بالقراءات واللغة العربية وأيام الناس، ولم يزل في أيامه يقرأ الموطأ والبخاري وأبي داوود, شهما بطلا مقداما على العظائم، سفاكا للدماء، لا يتوقف عنها طرفة عين, قال في القرطاس : لولا أن الحال في دولته تغيرت والفتن قد اشتعلت لكان موافقا لوالده المنصور في الحال، متابعا له في جميع الأعمال والأحوال ه . وكان والده لا يقول بأمر المهدي ونواميسه وإنما كان ظاهريا يداري الموحدين باتباع ما رسمه المهدي رحمهم الله تعالى.

---

[1] - المراكشي، الحلل الموشية، ص 164

[2] - ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 331 .

[3] - المراكشي، الحلل الموشية، ص 165 .

دولة أبي مالك عبد الواحد الرشيد بن إدريس

بويع له يوم الأحد ثاني عشر وفاة والده غرة المحرم سنة 630 ه وسنه أربع عشر سنة , وتوفي غريقا في صهريج يوم الخميس تاسع جمادى الأخيرة سنة640 ه وكانت دولته عشر سنين وخمسة أشهر وتسعة أيام كلها في اضطراب وانقلاب.

دولة أبي الحسن السعيد علي بن إدريس

بويع يوم وفاة أخيه الرشيد يوم الجمعة عاشر جمادى الأخيرة سنه 640 وتوفي يوم الثلاثاء منسلخ صفر سنة 646 وكانت دولته خمسة أعوام وثمانية أشهر وواحد وعشرين يوما, وكان بطلا شجاعا ذا إقدام، فاق به من تقدم من آبائه غير أنه وجد الأمور قد اختلت ودولة بني مرين قد ظهرت.

دولة أبي حفص عمر المرتضى بن إسحاق بن يوسف بن عبد المومن

بويع يوم ثاني عشر ربيع الأول سنة 646 ه واستقام له الأمر بمراكش وأحوازها من سلا إلى سوس الأقصى , كان له حظ من العلم والأدب وبراعة الخط والشعر، يدعي الزهد والتصوف والورع, وتسمى بثالث العمرين، مولعا بالسماع ليلا ونهارا , وكانت أيامه أيام دعة ورخاء مفرط لم ير الناس مثلها, وفاته : دخل عليه أبو دبوس يوم السبت الثاني والعشرين من محرم عام 665 فخرج فارا بنفسه، فقتل يوم الثاني والعشرين من صفر الموالي له قال في الجمان[1] : بغربي دكالة. كانت دولته ثمانية عشر سنة وعشرة أشهر واثنين وعشرين يوما.

دولة إدريس الملقب بأبي دبوس

بويع بمراكش يوم الأحد الثالث والعشرين من المحرم 665 فرفع المكوس وبذل العطاء, وكان بطلا شجاعا مقداما على الأمور، داهية، لكنه وجد الأمور قد اختلت لغاية لا يرجى معها التئام , وسيل بني مرين قد غمَر وطمر، فكانت بينه وبين يعقوب بن عبد الحق وقعة فاصلة بدكالة يوم الجمعة منسلخ ذي الحجة سنة 667 انتهت بالهزيمة عليه, فتحصن بإحدى مدنها كما في الجمان ,

---

[1] - الشاطبي، الجمان.جاءت هذه المعلومات كذلك عند ابن خلدون، المجلد السابع/القسم الأول، ص 369

وقال في سلسلة الذهب: المنقول أنها مدينة الغربية، فقتل في اليوم المذكور وقطع رأسه وطيف به في فاس وعليه انقرضت دولة الموحدين، والبقاء لله . وكونه قتل وقطع رأسه هو ما اقتصر عليه غير واحد من المؤرخين المغاربة, كصاحب القرطاس[1] , وابن خلدون[2] وغيرهما، ورأيت في مسالك الأمصار لابن فضل الله العمري لما ذكر منابع النيل وأنه ينصبب من عشرة أنهار من جبل الغمر، كل خمسة أنهار من شعبة، قد تتشعب العشر إلى بحيرتين، ثم يجتمع ذلك في بحيرة واحدة متشعبة، ثم قال : حدثني أقضى القضاة شرف الدين أبو الروح عيسى الزواوي أن الأمير أبا دبوس أبا العلاء آخر سلاطين بر العدوة من بني عبد المومن ملوك الموحدين حدثه أنه وصل إلى هذه البحيرة في أيام هربه من بني عبد الحق ملوك بني مرين القائمين الآن ه . وعليه فلا يبعد أن يكون قتل بعض من اشتبه به أو فعل ذلك قصدا للتقرب من يعقوب ابن عبد الحق، والحال أنه فر بنفسه والله أعلم , وقد كانت مدة دولتهم مائة سنة واثنتين وخمسين سنة , وكانت من أعظم الدول وأقواها وأضخمها , وقد نالت الشهرة العظيمة في الأعمال البحرية والبرية, ونالت من السلطة والنفوذ ما لم تنله دولة المرابطين قبلها، فلقد كانت مملكتها واسعة الأطراف، حصينة الأكناف، أحيت مراسيم الدين، ودبت عن حوزة المسلمين، وجدد ملوكها رونق الأندلس، وأعادوا إليها بهجتها التي كانت لها زمن الأمويين، وخصوصا عبد المومن ويوسف ويعقوب , حاموا عن العلوم والصنائع، وعملوا بالشريعة الإسلامية , وأسسوا المدارس للبنين , وأغدقوا العطاء على العلماء وأهل كل فن , وقام بهم سوق العلم والتنافس فيها, ومنها علوم الاجتهاد من الكتاب والسنة والأصول والقياس وعلوم الفلسفة والطب وغير ذلك من العلوم والمعارف، ولم يكونوا مقلدين لأهل الظاهر، وإنما رماهم بذلك المقلدون في زمانهم ومن بعدهم، لان المهدي إمامهم لم يكن له إلمام بعلم الظاهر وأصوله وكذلك من كان مشايعا لهم من أهل العلم، لم يكونوا ملمين بأهل الظاهر، بل كانت أحكامهم على حسب ما يؤدي إليه اجتهادهم من الكتاب والسنة والقياس حسبما أفصح بذلك ابن خلكان , ولا ينسى المنصف أن دعوى الظاهرية اتخذها المقلدة آلة يرمون بها كل من رام الأخذ بالكتاب والسنة, ويشوهون بها سمعة كل عالم جليل, ومن طالع تراجم أهل العلم يعلم ذلك يقينا, والله أعلم .

---

[1] - أبن ابي زرع، روض القرطاس، ص 343 .

[2] - عبد الرحمان بن خلدون، كتاب العبر ، المجلد السابع،القسم الأول،369/13-370-371.

الدولة المرينية

نسبها : هي فخد من زناتة من صميم البربر على ما هو الصحيح , ورفع بعضهم نسبهم إلى علي بن أبي طالب كما في روضة النسرين[1]، لكنه لم يُعَرِّجْ أحد عليه لضعفه, كانت مواطنهم ببلاد القبلة ما بين زاب أفريقية وسجلماسة، وكانت طائفة منهم يدخلون المغرب منتجعين وطالبين للميرة , فلما رأوا ضعف الموحدين بكائنة العقاب , وقصورهم عن تمهيد أطراف البلاد، وانشغال آخر ملوكهم باللهو والمستلذات استولوا على أطرافها، ولم يزالوا يأخذونها شيئا فشيئا حتى استولوا عليها .

دولة يعقوب بن عبد الحق المريني القائم بأمر الله

بويع له في التاسع والعشرين من رجب سنة 657 ه .

حاله : كان حسن الوجه والصورة, حليما متواضعا جوادا مظفرا منصور الراية، ميمون النقيبة، شجاعا فارسا حازما، لم تهزم له راية قط , لم يقصد عدوا ولا جيشا إلا هزمه، ولا بلدا إلا فتحها, صواما قواما, يقوم ثلث الليل الآخر حتى إذا صلى الصبح وقرأ الحزب يقرأ كتاب السيرة وفتوح الشام وغيرها، دائم الذكر كثير البر، مكرما للصالحين، معظما للعلماء، صادرا عن رأيهم، ولما تولى طالبوه بالرجوع إلى مذهب مالك ففعل , فتح البلاد من سوس الأقصى إلى وجدة وسجلماسة ودرعة وطنجة وغيرها, وملك بلاد الأندلس ما يزيد على خمسين حصنا, وقد جاز إليها مرارا , وغزا ملوكها، وكانت له معهم مواقف مشهورة ووقائع معدودة، كان النصر حليفه فيها . وأعز الله بها الإسلام ورفع مناره, تمهد له المغرب الأقصى منذ سنة 667 لما انتصر على أبي دبوس ببلد دكالة ثم دخل مراكش وبويع البيعة التامة, وفي سنة 672 فتح سجلماسة, بعد أن حاصرها بآلة البارود والنفط . ومكث في حصارها سنة كاملة. وفي صفر سنة 674 جاز إلى الأندلس جوازه الأول، فكانت بينه وبين الفونس وقعة فاصلة هزم فيها الفونس وقتل رئيس حروبه، ثم

---

[1] ـاسماعيل بن الاحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين،ص8.

كانت له معهم معارك عديدة كان النصر حليفه فيها , وانتعش أهل الأندلس من المسلمين أي انتعاش وظهرت أبهة الإسلام ورجع إليه عزه ورونقه, ومما يوجب الالتفات أن سانجة بن هراندة تقرب إليه بما كان عنده من كتب المسلمين وأوفد إليه منها ثلاثة عشر حملا من كتب التفسير والحديث والأصول واللغة وغيرها، فأودع ذلك خزانة القرويين بفاس.

آثاره : منها بناء المارستانات للمرضى والمجانين وأمر الأطباء بتفقد أحوالهم غدوة وعشية وأجرى عليهم الأنفاق من بيت المال، وأجرى النفقة على الجذمى والعميان والفقراء مالا معلوما يأخذونه في كل شهر من جزية اليهود, وارتاد لهم أماكن خصوصية بهم , وبنى المدارس لطلبة العلم والقرآن, وأجرى عليهم المرتبات, وأوفق على ذلك الأوقاف الكثيرة، وأغرق النعم على الفقهاء والعلماء, وأسنى لهم الجوائز , ورد الأحكام إلى القضاة, ورتب لهم الرواتب المالية ليتفرغوا لفصل الخصوم وبنى المدينة البيضاء (فاس الجديد) ومسجدها , وغير ذلك من البناءات والقناطر بالمغرب والأندلس .

وفاته : توفي آخر سنة 684 بقصره في الجزيرة الخضراء ودفن بجامع قصره، ثم نقل إلى بر العدوة بشالة وفي عمره خمس وسبعون سنة , وكانت دولته تسعا وعشرين سنة وستة أشهر وعشرين يوما.

دولة الناصر يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني

بويع بعهد من والده في غرة صفر سنة 685.

حاله : كان مهيبا لا يكاد يبدأه أحد بالكلام، مستبدا برأيه عن وزرائه، قاهرا في سلطانه، غليظ الحجاب، لا يكاد يوصل إليه, ذا أناة وحزم، إذا صال أفنى، وإذا أعطى أغنى, مشفقا على الضعفاء والمساكين، متفقدا للرعية, لما ثبت قدمه في الملك فرق الأموال وأجزل الصلات وسرح السجناء ورفع عن الناس الأخذ بزكاة الفطر ووكلها إلى أماناتهم، وكف أيدي الظلمة والعمال الغاشمة, وأزال المكوس والوظائف عن دور الرعية وأصلح السابلة, وهو أول من هذب ملك بني مرين وألبسه رونق الحضارة والتمدن وعزة السلطان, ملك المغربين الأوسط والأقصى وهاداه ملوك أفريقية ومصر, وتنازل عن الثغور الأندلسية التي كانت في ملك أبيه لابن الأحمر في الوفاق والوئام وجمع كلمة الإسلام فرارا من النزاع والخلاف. وجاز إلى الأندلس غازيا ورجع مظفرا منصورا, وكانت جيوشه بها غزوات ووقائع كان النصر فيها حليفهم, وفي سن 693 أمر بتعديل الصيعان وجمعها على مقدار مد النبي صلى الله عليه وسلم وذلك على يد الفقيه أبي فارس عبد العزيز الملزوزي المكناسي.

آثاره : منها المدينة المنصورة بإزاء تلمسان ومسجدها العظيم وحماماتها وفنادقها ومستشفياتها وغير ذلك, (إلا أنه عدا عليها بنو عبد الواحد) فهدموها، وبناء وجدة وقبة مكناسة ورباعها وغير ذلك .
وفاته : توفي بها بطعنة في بطنه من بعض خصيانه ضحى يوم الأربعاء سابع قعدة سنة 706 فحمل إلى شالة ودفن بها , وكانت دولته إحدى وعشرين سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما.

دولة أبي ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف

بويع بالمدينة المنصورة بعد وفاة جده في ذي القعدة سنة 706.
صفته : دموي اللون تعلوه صفرة, معتدل القامة, أقنى, ضامر الخدين, خفيف العارضين, في رأسه طول.
حاله: كان فارسا شجاعا مقداما غير هياب.
وفاته : توفي بطنجة مسموما عام 708 وعمره 24 سنة وكانت دولته سنة واحدة وثلاثة أشهر.

دولة أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن يوسف

صفته : كان أسود اللون, معتدل القامة , أعين, أدعج, مستدير الوجه, مليح الفم حسن الوجه.
بيعته : بويع بعد أخيه سنة 708.
سيرته : لما ثبت قدمه في الملك أوسع للناس في العطاء, وأجزل الصلة للخاصة والعامة, حالة الرعية في دولته: قال ابن خلدون[1]: كانت أيامه خير أيام, هدنة وسكونا وترفا لأهل الدولة, وتغالى الناس في أثمان العقار، فبلغت قيمتها فوق المعتاد حتى لقد بيع كثير من الدور بألف دينار من الذهب العين، وتنافس الناس في البناء فعالو الصروح واتخذوا القصور المشيدة بالصخر والرخام, وزخرفوها بالزليج, واستبحر العمران، وظهرت الزينة والترف, والسلطان وادع في داره، متكىء على أريكته ه.
وفاته : توفي مسموما متم جمادى الأخيرة سنة 710 عن عشرين سنة في عمره, وكانت دولته سنتين وأربعة أشهروثلاثة وعشرين يوما.

[1] - عبد الرحمان بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المجلد السابع ، القسم الأول 210/13.

دولة أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق

مولده : سنة 674 , صفته: قصير القامة, قائم الأنف بعينيه احورار, بعيد ما بين المنكبين, معتدل اللحية أسودها, حسن الوجه، لطيف الشمائل , حسن الشارة، مائلا للدعة.
بيعته: بويع بعد وفاة ابن أخيه في السنة المذكورة.
سيرته: لما تولى واستوثق له الأمر أجرى الأعطيات وأسنى الجوائز والصلات, وتفقد الدواوين ورفع الظلامات والمغارم والمكوس, وسرح السجون، وكان المثل المضروب في الكرم الفائق.
وفاته : توفي بعلة ليلة الجمعة الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة 731. وكانت دولته 21 سنة وأربعة أشهر وخمسة وعشرين يوما. وعمره: 58 عاما.
آثاره : منها مدرسة العطارين بفاس بإزاء جامع القرويين ومدرسة فاس الجديد وغير ذلك.

دولة أبي الحسن علي بن أبي عثمان سعيد بن يعقوب المريني

مولده : في سنة (كذا) 797 هـ.[1]
بيعته : بويع بعد وفاة والده بعهد منه إليه بذلك
صفته: كان طويل القامة، عظيم الكفل، عبل الصدغين، معتدل اللحية، حسن الوجه.
حاله : كان عفيفا، مائلا إلى التقوى والتدين، لم يشرب الخمر قط لا في صغره ولا في كبره، محبا لأهل العلم والصلاح، عادلا في رعيته، ضخم المملكة, امتد ملكه على ملك من قبله , واجتمع له من الجيوش ما لم يجتمع لغيره, وامتد ملكه من آخر المعمور بالمغرب إلى حدود برقة, وكثرت في دولته العمارات, وكثرت الأموال, وكان لجيوشه بالأندلس أعظم غناء, استخلص من العدو جبل الفتح وحصنه أحسن تحصين وبنى أبراجه وجامعه ومحارسه, وأسكنه من العساكر ما يقوم بحفظه, ولم يكن يستخدم أحدا من أهل الذمة في جباية مال ولا غيره, ولا يتخذ منهم أطباء, وفي آخر سنة 740 ه جاز إلى عدوة الأندلس، فكانت عليه الكائنة العظمى في ضحوة يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة سنة 741، فلما التحمت الحرب خرج كمين كان أعده العدو ليلا على معسكر السلطان ودخلوا الفسطاط, وقتلوا النساء, فلم يشعر السلطان إلا بعد نفوذ الغدر, وكانت فجعة عظمى ورزية كبرى على المسلمين, وذكر السلطان

---

[1] - خطا في سنة ولادته.

أبو حمو[1] العبر الوادي في واسطة السلوك في سياسة الملوك في سبب وقعة طريف هذه أنه لما التحم القتال وتوالى الطعن والضرب نظر أبو الحسن إلى الطاغية ألفنس منكبا على جهته يطلب جانبا من جوانبه ليجد فرصة في مناكبه، فانتقل أبو الحسن إليه فرآه المقاتلون قد انتقل بعلاماته وساقته يريد ألفنس وملاقاته، فظنوا أنه انهزم وأن قلب عسكره قد انخرم، فانكسرت الميمنة والميسرة وكانت عليه الهزيمة المنكرة التي انكسر لها الإسلام, وذلك بسبب انفتاله وقلة ثباته في قلبه وأبطاله .ه . وفي سنة 748 ه فتح أفريقية بعد قتله أميرها عمر انتقاما منه لقتله أخاه الأمير أحمد الذي كان ولي العهد من والده، وعهد بتوليته لأبي الحسن المذكور، فانتظمت له مملكة المغرب أجمع، لكنها لم تلبث أن انتقضت عليه أعرابها فخرج إليهم في جيشه فهزموه هزيمة منكرة فلت من غربه لأنه لم يجاريهم على عوائدهم مع ملوك أفريقية من المصانعة والمداهنة، وقال أبو حمو في واسطة السلوك في سياسة الملوك[2]، إنه طلب منهم المراهين واستحقرهم، فخرج إليهم فدخلوا الصحراء وهو في طلبهم حتى كل الجيش وضعف، وهم يوهمونه أنهم لا يقدرون على لقائه, ولما أيقنوا بضعف الجيش, كروا عليه فانهزمت جيوشه في ساعة ودخل القيروان منفردا في أفلال من جيشه، واستولى العرب على أمواله وأثاثه، وذلك من سوء التدبير واحتقار العدو الحقير , فكانت هزيمته يضرب بها الأمثال وبها آل ملكه إلى الزوال ه. وفي فاتح شوال سنة 750 ه ركب البحر من تونس راجعا إلى المغرب فانكسرت السفن, وغرق من فيها, وكان معه فيها من أعلام علماء المغرب الأقصى الذين كانوا صحبة ركابه نحو أربعمائة عالم. ونجا السلطان على ألواح عود حتى ركب جفنا ونزل بالجزائر، فأصلح من شأنه وقصد المغرب فوجد ولده أبا عنان قد انتزى على الملك بدعوى أنه ثبت عنده أن والده قد مات، فحاربه إلى أن كبا فرس أبي الحسن فتوفي من سقطته.

وكان أبو الحسن قد جال في المغرب ومهد أرجاءه , فدخل أغمات ومراكش وأسفي وأزمور ·وتيط وتفقد أحوالها وأصلح شأنها، وزار أسفي الشيخ أبا محمد صالح ولقي به من الأولياء العارفين أبا عبد الله سيدي محمد بن عبد الكريم الهزميري. قال أبو عبد الله محمد بن مرزوق في كتاب المسند الصحيح[3] الحسن: ودخلت معه على سيدي أبي عبد الله الهزميري بمدينة أسفي ويعرف بابزمير، نفع الله به وكان من أولياء الله "الصالحين" الصادقين،

---

[1] - موسى أبو حمو، واسطة السلوك في سياسة الملوك، ص133 ، مطبعة الدولة التونسية 1279ه.

[2] - أبوحمو موسى بن زيات،واسطة السلوك ص133-134

[3] - أبو عبد الله محمد بن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، في مآثر مولانا الحسن،ص158.

علما وقياما، وكان مستقرا بمسجد أسفي. فلما وصل بموكبه إلى المسجد تقدمت بين يديه فيمن تقدم , نزل بمقربة من المسجد، ثم لما دخل الصحن والشيخ على حاله مستندا إلى القبلة، وكان آية وصاحب كرامات ظاهرة وأحوال عجيبة، أردت أن أشير على الشيخ بلقائه أنا و أبو الفضل بن أبي مرين، فنهانا عن ذلك وقصده فقبل يديه وجلس بين يديه, وقبل الشيخ كذلك يده نفعه الله، وقال له يا سيدي أوصني، أفدني، ادع لي، فأوصاه وأفاده ودعا له، فقال له يا سيدي لعلك تقبل منا ما تلبسه بحسب البركة تتخيره، فقال له يا أمير المؤمنين، هذه الجبة لها علي نحوا من عشرين عاما، وكأنها لم يتنصف منها اللباس, ومن البعيد أن يبقى من العمر قدر ما مر بها، وأنا اليوم أناهز الثمانين, فقال له يا سيدي تعرفت أن لبني أخيك بوادي نفيس أملاكا، ولك معهم نكتب لهم برفع ما عليها من المطالب وينظر لك من خالص الأملاك الحلال ما تنتفع به فقال له أنت فيما زعمت أردت أن ترانا لتنتفع بنا وما جزاؤنا عندك أن تضرنا هذا باب سددناه, وليس لنا بمخلوق ولا لتأييد مخلوق حاجة، وكان له في زاوية المسجد غرارتان وقدران في الغرارة بقية تميرات, وفي القدرين رمان فأشهد، لقد رأيت أصحابنا، بل وأكثر أهل المحلة يحملون التمر والرمان فما نقصها والخير باق من غير شك ولا ريبة هـ . من خط صاحبنا أبي عبد الله بن علي السلوي الدكالي.

آثاره : منها رفع منار العلم وإغداق النعم والمرتبات السنية على أهله، وتشييد المدارس في جميع مملكته, ولقد ذكر اليوسي[1] في بعض رسائله أنه كان لا يعطي البيت إلا لمن يحفظ المختصر الحاجبي، فإذا كان هذا في مدرسة واحدة فكيف بغيرها من المدارس الكثيرة في جميع إيالته، ولقد ذكر ابن مرزوق أنه أنشأ مدرسة عدوة الأندلس بفاس, والمدرسة الكبرى مدرسة الوادي, وهي التي يشق وسطها الوادي الأعظم بالعدوة القروية ثم المدرسة الكائنة جوفي جامع القرويين، وتعرف بمدرسة مصباح، ثم أنشأ في كل بلد من بلاد المغرب الأقصى وبلاد الأوسط مدرسة, فأنشأ بمدينة تازة القديمة مدرستها الحسنة. وببلد مكناسة وسلا وطنجة وسبتة وأنفا وأزمور وأسفي وأغمات ومراكش والقصر الكبير وبالعباس بظاهر تلمسان وبالجزائر مدارس مختلفة الأوضاع بحسب اختلاف البلدان، وكلها قد اشتمل على المباني العجيبة , والصنائع الغريبة والمصانع العديدة والاحتفال في البناء والنقش في الجص والفرش على اختلاف أنواعه من الزليج البديع والرخام المجزع والخشب المحكم والنقش والمياه النميرة مع ما ينضم لذلك من الأحباس التي تقام بها، ويجري من

---

[1] ـ ابو الحسن بن مسعود اليوسي رسائل اليوسي تحقيق فاطمة خليل القبلي، ج144/1

ريعها المرتب على الطلبة والعونة والقيم والبواب والمؤذن والإمام والناظر والشهود والخدام، هذا على ما حبس في جلها من أعلاق الكتب النفيسة والمصنفات المفيدة. فلا جرم أن يكثر بذلك طلب العلم وعدد أهله, وثواب العلم والتعلم في ميزان حسناته ه. ومنها ما أنشأه من المساجد الكثيرة والزوايا والرباطات والقناطر و السقايات والمصانع مما يضيق عنه المقام. ومنها ما أنشأ من المحارس البحرية. قال ابن مرزوق[1] : لقد أنشأ من المحارس والمناظر ما لم يعهد مثله في عصر من العصور, وحسبك أن مدينة أسفي وهي آخر المعمور إلى بلاد الجزائر، وهي جزائر بني مرغنان آخر وسطى المغرب وأول بلاد أفريقية محارس ومناظر، إذا أوقدت النيران في أعلاها تتصل في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة وذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحوا من شهرين, وفي كل محرس منها رجال مرتبون نظار وطلاع يكشفون البحر فلا تظهر فيه قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين إلا والتنيير يبدأ في المحارس , وينحدر أهل كل ساحل من السواحل إلى ساحلهم, فأمنت السواحل في أيامه السعيدة مما كان يستمر فيها من أسر أهل البوادي وتصفيحهم, والاستيلاء على كثير من أهل الصمود الذين يأوون إلى البلاد الشطية والسواحل. ه. وبالجملة فآثاره كثيرة , وفضائله غزيرة رحمه الله.

وفاته : توفي رحمه الله لثلاث وعشرين من ربيع الثاني سنة 752 ه كما لابن خلدون والزركشي, والذي في روضة النسرين[2] والحلل الموشية[3] ووجد صاحب الاستقصاء على رخامة قبره أنه توفي ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من ربيع الأول من السنة المذكورة بجبل هنتاتة، ودفن بمراكش، ثم نقل إلى شالة فدفن بها رحمه الله وعمره ستون سنة ودولته عشرون سنة وأربعة أشهر.

أبو عنان فارس بن أبي الحسن المريني

مولده : بالمدينة البيضاء في الثاني عشر من ربيع الأول سنة تسع وعشرين وسبعمائة.

صفته : أبيض اللون تعلوه صفرة قوية طويل القامة يشرف الناس بطوله، نحيف البدن، عالي الأنف حسنه، أرنب، أعين، أدعج، جهير الصوت، في كلامه عجلة وتوقف، لا تكاد تفهم ما يقول، أهدب الأشفار، جميل الوجه، بارع

---

[1] - ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن،ص398

[2] - روضة النسرين، ص 25

[3] - مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 179 .

الحسن، عظيم اللحية تملأ صدره، أسودها، وإذا تمر به الرياح تتفرق على نصفين حتى يستبين لحم موضع السبلة، ولم ترعيني في جيشه أعظم لحية منه ولا أحسن منها ولا أجمل منه وجها، قاله صاحب روضة النسرين[1] .
حاله : كان فارسا شهما شجاعا بطلا يقوم في الحرب مقام جنوده، عارفا بركض الخيل، حسن الثقافة وكان فقيها، يناظر العلماء الأجلة فيصيب ويخطئهم. ومعرفته بالفقه تامة, وكان عارفا بالمنطق, وأصول الدين, وله حظ صالح من العربية والحساب, وكان حافظا للقرآن، عارفا بناسخه ومنسوخه, كثير التمثيل بآياته، عارفا بالحديث ورجاله، فصيح القلم، كاتبا مرسلا بليغا، بارع الخط، حسن التوقيع ضخم الملك. انتظمت له مملكة المغرب الأقصى والأوسط وتونس وطرابلس، ومن تصانيفه كتاب : الدرة السنية والوسيلة المحمدية, رسالة له. شيوخه : عارض بقراءة السبع على إمامها أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الصفار المراكشي، استدعاه لفاس، فكان يعارضه القراءات إلى أن توفي أبو عنان، وكان هو الذي تولى غسله ودفنه, وأخذ عن الإمام أبي اسحاق إبراهيم بن محمد الأبلي وغيره ما من أئمة عصره , وكان له شغف بالعلم ونشره , فكان يعقد مجلسا بقصره, يحضره جهابذة العلم كل صباح، يقرأ فيه التفسير والحديث والفقه والتصوف ويلقى في كل ذلك أبحاثا رائقة ونكتا فائقة , وجلب العلماء من الآفاق وشيد لهم مدرسته بطالعة فاس، وجعل على دور العلماء امرأة تتعرف ما يخص دور العلماء، فيقضي لهم ليتفرغوا للتدريس ونشر العلم , وأخذ عنه العلماء منهم أبو عثمان سعيد العقباني أخذ عنه البخاري والمدونة، عن ابن جماعة وغيره, وكانت له عناية كبيرة بالصلاة فكان يوقع الصلوات الخمس بالمسجد وقيام رمضان أيضا كسيرة الخلفاء الراشدين, ووكل من يقرع أبواب الدور ليلا ليستيقظ الناس للصلاة، وجعل العلم بالمنائر إعلاما بدخول الوقت لمن لم يسمع الأذان, وجعل للضعفاء من النساء والرجال يوم الجمعة يبرز لهم فيه ليزيل شكواهم ويفصل دعاويهم ويسعف فقيرهم، ويحضر الفقهاء فيسند إليهم الأحكام الشرعية , وكان كثير الصدقة متفقدا للأيتام والأرامل والضعفاء , محبا لآل البيت متشيعا في محبتهم, موسعا عليهم في الجرايات والإنفاق، غزير المكرمات، مقصودا في الأزمات، وقد كانت دواة كتب عليها : أنا دواة أبي فارس / أبي عنان المعتمد

حلفتُ بمن يكتب به   بالواحد الفرد الصمدْ
أن لا يمد مــده   في قطع رزق لأحدْ

---

[1] - اسماعيل به الأحمر، روضة النسرين،ص27

ـه في الجود اليد البيضاء , والآثار الغريبة.
آثاره : له من الآثار بالمغرب وأمصاره ما لم يعهد , منها: المارستانات في كل بلد من بلدانه, أوقف عليها الأوقاف لمؤونة المرضى , وعين لهم الأطباء :عداواتهم وما يخصهم من الأدوية والعقاقير, ولعل المارستان الذي ذكره ابن :لخطيب بأسفي من آثاره رحمه الله أو من آثار والده رحمهما الله تعالى، ومنها :ار الأضياف وفيها يقول ابن جزي :

هذا محل الفضل والإيـــثار	والرفق بالسكان والــــزوار
دار على الإحسان شـــيدت	والتقـى فجزاؤها عقبى الدار
هي ملجأ للوارديــــن ومورد	لابن السبيل وكل ركب سار

كان ينتابها الوارد والغرباء على اختلاف طبقاتهم فيجدون بها البغية, ومن آثاره مدينة الغربية بوسط صقع دكالة, ولو لم يكن له إلا المدرسة العنانية بطالعة فاس لكان ذلك آية في الإبداع وحب الخير, فكيف وله غيرها مما شيد من مدارس العلم والقرآن في جميع بلاده, وكان شيد على بابها ساعة من اختراع الفقيه المهندس الحكيم أبي الحسن علي بن أحمد المعروف بابن الفحام, وكان من أعرف أهل زمانه بفنون التعاليم الفلكية, وذلك سنة 758 ه , وأثابه أبو عنان عليها بألف دينار دفعها مقسطة على عمال بلادهم في كل سنة , وذكر بعضهم أنها كانت تخدم بالماء, وكان لها اثنتا عشرة صحفة, في كل ساعة يخرج قضيب يضرب على إحدى الصحاف إعلاما بالساعة, وأما التي كانت بمنارة القرويين فمن صنع الفقيه أبي عبد الله محمد بن يحيى العزفي المتوفي سنة 768 ه وكان من أهل المعرفة بالطب والحكمة, وهي التي أنعم على الناظر فيها أبو عنان بمرتب وسع عليه به لما صعد المنار سنة 749 ه وبالجملة فهذا السلطان من أعظم ملوك الإسلام وأجمعهم لخصال الخير وأحسنهم سيرة وأطيبهم سريرة رحمه الله. توفي مخنوقا يوم السبت الثامن والعشرين من ذي الحجة متم سنة 759 ه . خنقه وزيره الحسن بن عمر الفودودي وله من العمر ثلاثون سنة رحمه الله.

أبو زيان محمد بن أبي عنان المريني

بويع يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة 759 ه في حياة والده, وقام ببيعته الحسن بن عمر الفودودي ووالده مريض على الفراش, فكان ذلك لأبي عنان جزاء وفاقا، جوزي بفعله مثل ذلك مع والده أبي الحسن وقد

صدق الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم : كما يدين الفتى يدان, ثم إن الوزير بدا له الرجوع عن بيعته فخلعه وقتله خنقا وبايع أخاه.

أبو بكر السعيد بن أبي عنان

بويع بعد خلع أخيه طفلا خماسيا في اليوم الذي بويع فيه أخوه, وأبوه مريض, وقام ببيعته الوزير الحسن الفودودي ثم حجبه وانفرد بتنفيذ الأحكام بنفسه, ولما ظهر أبو سالم ابراهيم بن أبي الحسن المريني فر الحسن إلى غمارة, وخلع السعيد يوم الأربعاء أوالثلاثاء الثاني عشر من شعبان سنة 760 ه وتوفي بعد ذلك غرقا في البحر وعمره عشر سنين وكانت دولته سبعة أشهر وعشرين يوما.

أبو سالم ابراهيم بن الحسن المريني

مولده : سنة 735ه بيعته : يوم الجمعة منتصف شعبان سنة 760 ه. صفته : كان أديم اللون, معتدل القامة, رحب الوجه, واسع الجبين, حسن الوجه معتدل اللحية أسودها, كثير الحياء, جم العطاء, سخي النفس, سليم الصدر وكان كما قال ابن الخطيب بقية البيت، وآخر القوم دماثة وحياء وبعدا عن الشرور وركونا للعافية ه. وكانت له معرفة بعلم التنجيم والفلك , اجتمع له ملك المغرب ووافته الوفود من أقطاره, ثم خرج عليه الحسن بن عمر الفودودي فظفر به , وقدر عليه أعماله الخسيسة كقتله أبي عنان وغيره فسجنه ثم قتله قعصا بالرماح، عفا الله عنا وعنه. كانت دولة أبي سالم من أجمل الدول وأحسنها, وكانت له محبة في العلم وأهله، فوسع على العلماء لبثهم العلم، وقام بسبب ذلك سوق الحديث خصوصا والعلم عموما. وكان في أيامه الرخاء المفرط المضروب به المثل في سنة 762ه تحول السلطان المذكور من داره بفاس الجديد إلى القصبة مخلفا وراءه الوزير عمر بن عبد الله الفودودي السياباني على دار الملك, إذ خلفه أمينا عليها، فاستبد بما فيها ودعا لخلع السلطان, وزاد في الطين بلة علمه بمرض أهل الحل والعقد عليه لتفويضه أمر الدولة إلى الخطيب العلامة ابن ابي مرزوق، فنقموا عليه ذلك, وعمد عمر المذكور إلى نصب تاشفين بن أبي الحسن المريني, وألبسه شارة الملك وانفض من حول أبي سالم حتى بقي وحده فتنكر وخرج فارا بنفسه, فعثر عليه وجيء به إلى فاس فذبح بالطريق. وفاته : توفي مذبوحا رحمه الله يوم الخميس الحادي والعشرين من قعدة سنة 762 ه. وله من العمر اثنان وعشرون سنة, وكانت دولته سنتين وثلاثة أشهر وأربعة أيام.

أبو عمر تاشفين بن أبي الحسن المريني

بيعته : بويع ليلة الثلاثاء تاسع عشر ذي القعدة سنة 762 ه وكان الناس مكرهين علي بيعته, وانفرد عمر بإدارة أمر الدولة ونصب تاشفين صورة يموه بها على الناس, وكان تاشفين مختل العقل، موسوسا لا يصلح للملك شرعا ولا طبعا، ولما راجع عمر بصيرته خلعه يوم الاثنين الحادي والعشرين من صفر سنة 763 ه. وأنزله بداره مع حرمه, ومات عن ستين سنة, وكانت دولته ثلاثة أشهر ويومين رحمه الله.

أبو زيان محمد بن أبي عبد الرحمان يعقوب بن أبي الحسن المريني

كانت بيعته يوم خلع عمه, وكان الوزير عمر الفودودي مستبدا عليه, حجبه حتى عن حرمه, ولما بلغه عزم السلطان المذكور على الانتقام منه دخل عليه في وسط حرمه فغطاه حتى فاضت روحه, واستدعى الخاصة وأراهم أنه سقط عن دابته وهو سكران في بئر بروض الغزلان, وذلك يوم الأحد الثاني والعشرين من ذي الحجة متم سنة 767 كما في الجذوة وروض النسرين عن ثمان وعشرين سنة وكانت دولته أربع سنين وعشرة أشهر ويوما واحدا رحمه الله.

أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني

بيعته : بويع يوم الأحد الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة 767, كان أدهم اللون شديد الأدمة , طويل القامة يشرف الناس بطوله قصير الصلب طويل الساقين نحيف الجسم، أعين، أدعج، أحتس في وجهه أثر جذري.

حاله : كان لينا، عفيفا، متمسكا بالدين، محبا للخير وأهله لم ير في فاحشة، من صلحاء الملوك، أنعش دولة بني مرين بعد تلاشيها وأعاد إليها شبابها بعد هرمها، وأزال عنها وصمة الحجر والاستبداد, وفتح أمره بالوزير الفودودي كما جرى له على سالف عادته في الاستبداد, ومنعه من التصرف في الملك ودارت بينهما أمور كان الظفر فيها لأبي فارس, ففتك بالوزير المذكور وأراح منه العباد والبلاد، وأدار أمور الدولة على ما ينبغي، وظفر بالثوار الذين بمراكش كأبي الفضل بن أبي سالم وعامر بن محمد الهنتاتي، وتمهد له المغرب، ثم التفت إلى المغرب الأوسط فمهده, فانتظمت له مملكة المغربين.

وفاته : توفي بتلمسان ليلة الخميس الثاني والعشرين من ربيع الأخير سنة 774 وحمل إلى فاس فدفن بجامع[ ][1]
وعمره أربع وعشرون سنة, ودولته ست سنين، وهو الذي ذكر ابن خلدون أوائل تاريخه ونوه فيه بقدره وألفه برسمه . رحمه الله.

أبو زيان محمد بن عبد العزيز المريني

بويع يوم وفاة والده, وكان صغير السن لم يستكمل السنتين, وفيه ألف ابن الخطيب كتابه : أعلام الأعلام بمن بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلام، فقام الوزير أبو بكر بن غازي بأمر الدولة إلى أن حاصره الأمير أبو العباس أحمد بن أبي سالم والأمير عبد الرحمان بن أبي يفلوسن وضيقا عليه, فاضطر الوزير المذكور إلى خلعه يوم الأحد سادس محرم فاتح سنة 776 وكانت دولته سنة وثمانية عشر يوما.

المستنصر بالله أبو العباس أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن المريني

صفته : كان أبيض اللون, ربعه تعلوه صفرة، أدعج أسود الشعر, أسيل، ضيق الحاجبين والبلج, جميل الوجه, مليح الصورة, ظريف المنزع, لطيف الشمائل, حسن الشكل.

بيعته : بويع بطنجة في ربيع الثاني سنة 775, وحاصر السعيد بفاس حتى أذعن له وتخلى عن الملك فبويع بفاس البيعة الثانية يوم الأحد سادس محرم فاتح 776 ه.

حاله : كان فارسا، عارفا بركض الخيل، لا تقع العين على أدرب منه على ركضها، حسن الشكل إذا ركب , كثير الحياء, رقيق القلب , مغمد السيف من سفك الدماء, كريما، كثير الحلم, شاعرا, مدركا, بديع التشبيه , استقل بإمارة فاس وما ولاها إلى أزمور ودكالة، واستقل الأمير عبد الرحمان ابن أبي يفلوسن بإمارة مراكش وما ولاها, بمعاهدة بينهما على ذلك. واستقر الأمر برهة من الزمان على ذلك حتى زحف عامل أبي العباس له على أزمور إلى صنهاجة من طرف حكومة مراكش فسرح إليه الأمير عبد الرحمان جيشا أمر عليه ابن عمه عبد الكريم فصده عن صنهاجة وغنم ورجع، ثم فسد ما بينهما فزحف الأمير عبد الرحمان على أزمور فقتل عاملها واستباحها فاتصل الخبر بأبي العباس فزحف إليه، وآخر الأمر بعد حروب تخللتها الهدنة ملك أبو

---

[1] بياض في الأصل.

العباس مراكش فاتصل الخبر بأبي العباس فزحف إليه, وآخر الامر بعد حروب تخللتها الهدنة. ملك أبي العباس مراكش, وأمده ابن الأحمر صاحب الأندلس بمدد العسكر، وقتل عبد الرحمان وولداه في ساحة الميدان وذلك في متم جمادى الثاني عام 784 لعشرين سنة من إمارة الأمير عبد الرحمان على مراكش, ورجع أبو العباس إلى فاس وقد انتظمت له مملكة المغرب الأقصى, ولم يجلس إلا أياما ريثما استراح وخرج إلى أبي حمو صاحب تلمسان, إذ كان أجلب على تازة وعاث فيها , ففر أبو حمو عن تلمسان واحتلها أبو العباس سنة 785 وهدم أسوارها وقصور الملك بها، ثم بلغ أبا العباس أن الأمير موسى بن أبي عنان خالفه إلى فاس، فرجع يجد السير، فوجده قد استولى على فاس واستقر بها قومه، ففر عنه جيشه وذهب إلى الأمير موسى, وذلك يوم الأحد الموافق 30 من ربيع [ ][1] سنة 786, فأرسل إليه السلطان موسى بالأمان وكان عهد إليه صاحب الأندلس، ووسع عليه في الجراية وأقام لديه محتاطا عليه إلى أن كان من أمر ما يذكر بعد إن شاء الله.

أبو عيسى موسى بن أبي عنان رحمه الله

كان هو أحد الأبناء المرشحين للملك، وكانوا أولا بطنجة، ثم نقلهم أبو العباس إلى الأندلس، فكانوا عند صاحب الأندلس، فكان مهما رأى مالا يوافق هواه، أرسل واحدا منهم وأمره بالعسكر، وهذا كان من أعظم ما أصيبت به الدولة المرينية في صميم الفؤاد.

بيعته : بويع السلطان موسى يوم الخميس الموافق 20 من ربيع الأول سنة 786 وكان وزيره مسعود بن ماسان مستبدا عليه.

وفاته: توفي السلطان موسى مسموما يوم الجمعة 3 رمضان عام 788 عن 31 سنة, وكانت دولته سنتين وأربعة أشهر، قاله ابن الأحمر في روضة النسرين وابن القاضي[2] في الجذوة، وقال ابن خلدون[3] إن وفاته كانت في جمادى الأخيرة من السنة المذكورة رحمه الله.

أبو زيان محمد بن أبي العباس بن أبي سالم المريني

بويع يوم الجمعة ثالث رمضان سنة 788, وعمره خمس سنين، ومكث ثلاثا وأربعين، وخلعه الوزير المذكور، وغربه إلى الأندلس مع والده.

---

[1]- بياص في الاصل.
[2] - ابن القاضي، جذوة الأقتباس، في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، القسم 1 / ص 343
[3] - عبد الرحمان بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المجلد السابع، القسم الأول 13/296-298.

أبو زيان محمد بن أبي الفضل بن أبي الحسن المريني

كان من الأبناء المرشحين، فكتب إليه الوزير مسعود بإجازته إليه لكونه ألف الحجر والاستبداد، فبعثه إليه صاحب الأندلس، فبويع بفاس يوم الجمعة 15 شوال سنة 788، وقام بأمره الوزير مسعود مستبدا عليه إلى أن حدثت منافرة بين الوزير وصاحب الأندلس، فسرح إليه أبا العباس بن أبي سالم، فدخل المغرب وحاصر فاسا فأذعن الوزير لخلع سلطانه بعد أخذه العهد على أن يقره في الوزارة، فخرج إليه وأدخله فاسا وبعث بأبي زيان إلى طنجة وقتل بها عن 38 سنة من العمر، وكانت دولته عشرة أشهر وخمسة أيام رحمه الله.

دولة أبي العباس الثانية

بويع بفاس يوم السبت 7 محرم الحرام عام 789، ولما استقر قدمه كان أول ما استفتح به عمله أن تسلط على الوزير مسعود وحاشيته، فامتحنهم حتى هلكوا تحت العذاب, وأنزل بالوزير من العذاب والانتقام ما لا يوصف، وقرر عليه عيشه في دور بني مرين النازعين إلى أبي العباس، فعاقبه في أطلالها إلى أن قتل شر قتلة , وسرح نظره إلى الثوار فأخمد شوكتهم واستولى علي تلمسان واستعمل عليها أبا تاشفين ابن أبي حمو بعد مقتل والده باستدعاء من الولد المذكور.

وفاته: توفي أبو العباس بتازة ليلة الخميس 7 محرم فاتح سنة 790، وكانت دولته الأولى عشر سنين وأحد عشر شهرا، والثانية خمس سنين وأربعة أشهر رحمه الله.

أبو فارس عبد العزيز بن أبي العباس المريني

بويع يوم السبت تاسع محرم عام وفاة والده.

حاله: كان فارسا عارفا بركض الخيل، متوقفا عن سفك الدماء، كثير الشفقة عظيم الحياء، رقيق القلب. لما ثبت قدمه في الملك أمد الغزاة بالأندلس وأعطى الأموال للأشراف, وأوعز للعلماء بث العلم ونشره ووسع عليهم في الجرايات والإنفاق, وكان يحضر بنفسه في مجلس التفسير وصحيح البخاري, وكان يقرض الشعر ويحب سماعه، انتظمت له مملكة المغرب وتلمسان.

وفاته: توفي رحمه الله يوم السبت 8 صفر 799، وكان عمره اثنين وعشرين سنة ودولته ثلاث سنين وشهرا غير يوم, والبقاء لله.

المنتصر بالله عبد الله بن أبي العباس المريني

بويع يوم وفاة أخيه.
حاله : كان محبا للعلم موسعا على العلماء , لما بويع أعطى للعلماء كما قال ابن السكاك مائة ألف دينار، وكان يحتفل بالمولد احتفالا هائلا، وينفق الأموال الطائلة، وكان مع ذلك وزراؤه مستبدين عليه في دولته.
وفاته: توفي بعد صلاة عصر يوم الثلاثاء الموفي ثلاثين من جمادى الأخيرة سنة 800, وله من العمر عشرون سنة، وكانت دولته سنة وخمسة أشهر غير ثمانية أيام رحمه الله.

أبو سعيد عثمان بن أبي العباس المريني

بويع يوم وفاة أخيه وهو ابن ست عشرة سنة, وكان مكبا على اللهو والشهوات، وقد أخذت سبتة في دولته وهو مشتغل بلهوه، فلم يرفع لذلك رأسا، جزاه الله بما يستحق, وكان الوزراء والحجاب هم الذين يتصرفون في دولته، عفا الله عنا وعنه.
وفاته : توفي سنه 823 وعمره 39 سنة وستة أشهر والبقاء لله سبحانه وتعالى.

عبد الحق بن أبي سعيد عثمان بن أبي العباس المريني

لما تولى المملكة سطا بوزرائه الوطاسيين, وكانوا مستبدين عليه، فذبحهم عن آخرهم، ولم يفلت إلا محمد الشيخ الوطاسي فإنه فر إلى أصيلا، فاستولى عليها، ولما بلغ السلطان أن الناس نقموا عليه مذبحة الوطاسيين, وأن أذنهم صاغية إلى محمد الشيخ الوطاسي صاحب أصيلا استشاط غيظا وولى على أهل فاس اليهوديين هرون وشاويل تأديبا لهم وانتقاما منهم، فأخذ اليهوديان في أهل فاس بسيرة قاسية غاية في القساوة والإرهاق ضربا ومصادرة وتحكما في الأشراف والفقهاء والأعيان فمن دونهم، فأخذ بما يجل عن الوصف، وعمد أحد اليهوديين إلى امرأة شريفة فأوجعها ضربا، فجعلت تتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم واليهودي يأمر بالإبلاغ في عقابها والتنكيل بها، فعظم ذلك على المسلمين وبلغ منهم مبلغا عظيما، فاجتمعوا لدى خطيب القرويين أبي فارس عبد العزيز الورياكلي وكان ذا صلابة في الحق فأغراهم بالفتك باليهودي وخلع طاعة عبد الحق وبيعة الشريف أبي عبد الله الحفيد، فبايعوه وتقدموا إلى حارة اليهود بفاس الجديد فقتلوهم واصطلموا نعمتهم وأبلغوا في النكاية، وكان عبد الحق خارجا عن فاس بالقبائل الهبطية إذ كان الوطاسي قد استحوذ عليها فلما بلغه الخبر كر راجعا لفاس وفي أثناء الطريق اضطرب عليه الجند

وفسدت نياتهم وتنكرت وجوههم وجعلوا يتسللون من حوله، فاستشار اليهودي الذي معه فأشار عليه بالرجوع إلى مكناس، فما أستتم كلامه حتى انتظمه رجل من بني مرين برمحه وعبد الحق ينظر إليه وقال له مازلنا في تحكم اليهود واتباع رأيهم، ثم تعاورته الرماح فخر صريعا، وأدخل عبد الحق مهانا لفاس وضربت عنقه يوم الجمعة 27 من رمضان سنة 869 وانقرضت دولة بني عبد الحق وقامت على انقاض دولتهم دوله وزرائهم الوطاسيين من بني مرين كما جرت عادة الله في أن الدولة إذا هرمت انتقلت المملكة لبعض فروعها لكنها تكون ضعيفة لأن الفرع غالبا لا يقوى قوة أصله.

أبو عبد الله محمد الشيخ بن أبي زكرياء الوطاسي

كان محمد الشيخ قد فر من عبد الحق واحتل أصيلا وقوى أمره ودعا الناس إلى بيعته، فاستولى على البلاد الهبطية وطنجة وتازة وما والى ذلك، ولما قتل عبد الحق بويع الشريف الحفيد بفاس فضايقه محمد الشيخ وحاصره مرارا حتى خرج الشريف بعائلته إلى تونس ودخل محمد الشيخ فاسا وبويع بها في رمضان سنة 876 وقيل غير ذلك في تاريخ بيعته, وكانت وفاته سنة 910 ودولته ستة وثلاثين سنة.

أبو عبد الله محمد بن محمد الشيخ الوطاسي

بويع سنة وفاة والده, وفي أيامه استفحل أمر السعديين ودخلت مراكش في طاعتهم. توفي سنة ،931 وكانت دولته أثنين وعشرين سنة رحمه الله.

أبو حسون علي بن محمد الشيخ الوطاسي

بويع بعهد من أخيه بذلك سنة، 932 ثم قبض عليه ابن أخيه أحمد بن محمد وخلعه من الولاية آخر حجة من السنة المذكورة.

أبو العباس أحمد بن محمد الشيخ الوطاسي

بويع يوم خلع عمه آخر حجة عامه, ولما استقام له الأمر صرف عزمه للسعديين، فكانت بينه وبينهم حروب, منها معركة يوم الجمعة 8 صفر سنة، 943 وكانت الهزيمة فيها على الوطاسيين ونجا أبو العباس بنفسه إلى فاس واستولى السعديون على ماله وأثاثه, ثم كانت بينهم معارك انجلت عن هزيمة الوطاسيين وهزيمة السعديين، فاستولى محمد الشيخ السعدي على فاس سنة

950 وأسر أبو العباس أحمد الوطاسي وأهله وبعث بهم إلى مراكش مصفدين , وتوفى حوالي 960 وكانت دولته 23 سنة.

دولة أبي حسون الثانية

كان أبو حسون لما أسر ابن أخيه فر إلى الجزائر واستغاث بتركها فأمدوه بجيش كثيف استولى به على فاس بعد حروب 3 صفر 961 وضرب سكته في اسم السلطان العثماني، وكان يخطب به، ثم كر عليه محمد الشيخ السعدي وحاصره بفاس، وبعد حروب استولى على فاس يوم السبت 24 شوال سنة 961 وظفر بأبي حسون فقتله وكانت دولته الثانية ثمانية أشهر ونيفا وعشرين يوما رحمه الله وعليه انقرضت دوله بني مرين من المغرب رحم الله الجميع.

نظرة عامة على الإسلام بالمغرب وما أصابه

كان الإسلام والمسلمون بالمغرب منذ أواخر القرن الثامن والتاسع قد بلغ من التضعضع والتقهقر أسوأ حالة وأسفل درجة, فسادت الفوضى وظهر الجور والفساد، وخربت البلاد، وهلكت العباد، وانتقص عمرانه بتنقص أطرافه، فكنت لا ترى إلا حكاما جائرين وولاة مستبدين ركبوا مطايا الظلم والاستبداد، فساءت الأخلاق وانسدت موارد الأرزاق، واستأسد القوي على الضعيف والمشروف على الشريف وفشا في الناس الجهل والعداوة والشحناء, وقل الحياء, وبيان أسباب ذلك أن الإسلام منذ القرن السادس الهجري آخر عزة الدولة الموحدية كان معتصما بها بحصن منيع، وكانت الدولة الموحدية تمد كامل نفوذها على المغرب بأقسامه الثلاثة وعلى الأندلس, ولما اعتراها الهرم وظهر الخلل في سياسة أمرائها المتأخرين بعكوفهم على الملاهي والمستلذات والتنازع فيما بينهم انتصب على أنقاضها أربع دول: الحفصيون بتونس, وبنو عبد الواد بتلمسان, وبنو مرين بالمغرب الأقصى وبنو الأحمر بالأندلس، فأعاد بنو مرين للمغرب عزه ورونقه والتفتوا إلى الأندلس، فأمسكوا رمقه، لكن المنازعات والحروب بين الدول كانت لا تهدأ والمشاغبات لا تنقطع، فأنهكت تلك الحروب منهم القوى وأوهنت العظم وأتت على الحرث والنسل، وخربت البلاد، وأهلكت العباد وخصوصا لما انتهت عزة الدولة المرينية بالمغرب بموت السلطان أبي عنان، فلم يبق بعده إلا سياسة الوزراء والحجاب والمستبدين، سياسة الفوضى والضغط، كل ذلك والحروب الداخلية والخارجية مستمرة, والدسائس متواصلة, وزاد في الطين بلة توالي الأوبئة والمجاعات، فوجدت في الناس مرتعا خصبا بكثرة القتلى وتعفن الهواء وخروج الناس عن

الجادة, كوباء منتصف القرن الثامن الهجري الذي غمر الأرض شرقا وغربا. فقد قال ابن خلدون[1] أتلف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء الدولة على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلها وفل من حماها وأوهن من سلطانها وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها، وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن, وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض، فبادر بالإجابة، والله وارث الأرض ومن عليها ه. وجاءت مجاعة 776 ووباء 846 ووباء سنة 928 فهلكت بسبب ذلك الرجال وانطمست كثير من المعالم، فانتشر الجهل في الناس وسادت الفوضى وركب الأمراء مطايا الاستبداد والظلم والجور، فلا ترى إلا واليا جائرا وحاكما غاشما فانتصب كل ظالم منهم على قلعة أو مدينة فاستقل بها وسار في الضعفاء سيرة غاشمة هي الغاية في القسوة وسفك الدماء ومصادرة الأموال والعكوف على استيفاء اللذات والتمتع بالشهوات، بينما الناس يعانون ضروب هذه الكوارث ويئنون من أليم هذه الحوادث، إذ انقض البرتغال على شواطئ المغرب وموانئه، فكان ما تقدم من أعظم العوامل التي سهلت له ولوج المغرب والاستيلاء على شواطئه, فرموا منه بداهية دهماء وحرب شعواء ومصيبة عظمى، ومن أعظم ما أصيب به المسلمون نكبة ضياع الأندلس سنة 894، فكانت مصيبة لا يستعاض عنها بعوض، وباستيلاء البرتغال على الشواطئ المغربية ازداد الأمر خطورة والحالة تحرجا، لولا أن الله تدارك المغرب بالملوك السعديين الناجمين من سوس الأقصى، فقاوموا البرتغاليين وجمعوا الكلمة, ثم لما جاء الله بالدولة العلوية أدامها الله استأصلت ما تبقى من جرثومة البرتغاليين بالمغرب كما سيأتي, ورجعت المياه إلى مجاريها وأحيا الله بهم الحالة الأدبية والمادية لاعلى نسبة ما كان له أول الدولة المرينية فما قبلها, والله سبحانه وتعالى الموفق والهادي إلى صراطه المستقيم.

---

[1] ـ عبد الرحمان بن خلدون، تاريخ ابن خلدون،ص 33.

لقد أودى الطاعون (749ه) بحياة والدي ابن خلدون، وبكثير من مشايخه، المجلد لسابع، ص398.

أهل مدينة أسفي والبرتغال

لما كان حال أهل المغرب كما بيناه من الضعف وتوالي النكبات والشقاق والنزاع اغتنم البرتغال الفرصة في ولوج المغرب وتملك شواطئه, ومن جملة ذلك مدينة أسفي , وكان الوطاسيون ملوك فاس والمغرب قد قصر نفوذهم عن قطر أسفي ولم يقدروا على إخضاع المستبدين به, لشغلهم بحرب البرتغال, بالبلاد الهبطية ومراسيها, ولغير ذلك من الأسباب، فاستقل برئاسة مدينة أسفي القائد حمادي بن فرحون، من عائلة وافرة ذات ثروة ونفوذ, وكان المذكور أكثرهم نفوذا وجاها, وفي عصره كان ظهور الفقيه الشيخ الشهير أبي عبد الله سيدي محمد بن سليمان الجزولي بأسفي، فظهر أمره, وشاع في الناس فضله, فرحل إليه الناس حتى اجتمع لديه ما يزيد على اثني عشر ألفا من المريدين، فتشوش من أجله عامل أسفي خوفا على رياسته، فقال له إما أن تخرج عني أو أخرج عنك، فقال له الشيخ أبو عبد الله: أنا أخرج عنك, ولكنك تخرج منها على أثري, فخرج الشيخ من أسفي، وبسبب ذلك دعا على أهل أسفي فسئل عنه, فقال أربعون عاما، فبعدها استولى البرتغال على أسفي، ثم إن هذا العامل كان له أخ يقال له عبد الرحمان بن فرحون، وكان بطلا شجاعا ذا ثروة وبسط كف، فاستولى بذلك على القلوب وعزل عمه ثم تحيل عليه فقتله غيلة وظهر أثر دعوة الشيخ أبي عبد الله ولا غرابة في ذلك ففي الصحيح للبخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً إلى اليمن كان من وصيته له أن قال له : اتق دعوة المظلوم, الحديث, فالدعوة المذكورة لا غرابة في كونها أحد الأسباب المؤدية للاختلال والاحتلال والظلم أحد أسباب خراب البلاد وهلاك العباد, وقضية الجزولي منها حسبما أسلفناه, ما حال أهل أسفي إذ ذلك كان حال أهل أسفي هو التنافس والتهالك على الرئاسة, فكانوا أحزابا متباينين وكان العامل الذي على رؤوس الجميع لا يقدر على إخضاع الأحزاب وهم يكيدونه بكل ما في وسعهم, وعلى الجملة كانت أسفي فوضى أو شبه الفوضى, كل ذلك وتجار البرتغال يترددون بكثرة وعيونهم تجوس خلال تلك الأحزاب وتبث الدعاية للبرتغال تارة بالرشوة، وتسريب الدراهم، وتارة بالكيد وإيقاع الشقاق بين الأحزاب, فعادوا إلى" ما نويل" وسهلوا عليه فتحها بإرسال جيش إليها, ولكنه كان يتربص الدوائر بالقائد لما يعلمه من شهامته وشجاعته، فتآمروا على أن يتجنوا على أهل أسفي بأنه لما مات القائد حمادي بن فرحون، نهبت سلعهم، فأمرهم منويل بموافقة بعض الأحزاب ببناء دار خارج أسفي، لحفظ سلعهم، فأنزل فيها أحد رؤسائهم يقال له داز مبوجة في لفيف يسير من الجند يترقبون الفرصة بالتداخل في تلك الأحزاب وإيقاع الشقاق, وإغراء المسلمين بالقائد عبد الرحمان الذي يعتبرونه عدوا ألذ حاجزا بينهم وبين فتح أسفي، ثم إن القائد عبد الرحمان شعر بأن رجلا من تلك الأحزاب المضادين له يقال له :

علي بن قاسم، يأتي بنتا له، وكانت جميلة يضرب بها المثل في الحسن والجمال وذلك برضى من أمها وأمة له، فغضب إذ ذاك القائد عبد الرحمان غضبا شديدا لما لحقه من العار والفضيحة، ولكنه أظهر عدم الاكتراث وأسر على قتل علي بن قاسم، فلم تأمنه امرأته لما كانت تشعر به من عدم محبته لها، فأعلمت عليا بذلك ليأخذ حذره منه، فأعلم علي صاحبا له يثق به في الشدة يقال له يحيى بن تعفوفة فاتفقا على قتل القائد عبد الرحمان، فلما كان يوم عيد أو موسم أرسل القائد عبد الرحمان لعلي يستدعيه للخروج معه وأنه له به حاجة أكيدة، ففهم علي مراده به، فاستدعى صاحبه يحيى بن تعفوفةوعشرة من أقاربه وأصحابه ووطن نفسه على أنه إما أن يقتل القائد المذكور أو يموت هو، فأخذوا سلاحهم ودخلوا عليه المسجد بعد أن دخله القائد عبد الرحمان للصلاة فيه، فلما دخلوا المسجد وجدوه يصلي في الصف الأول قريبا من الإمام، فاخترقوا الصفوف بسلاحهم فأتى علي من خلفه وطعنه بحربة سقط منها من حينه، وأتاه صاحب الآخر من الأمام, فارتاع لذلك المصلون, وفروا، وأتى صاحب القائد المذكور ليلقوا القبض على علي فتعرض لهم العشرة الآخرون وكانوا مجردين من سيوفهم فدهشوا منهم، وظنوا أن الوقعة كانت عامة داخل المسجد وخارجه، وأن البلاد كلها حرب للقائد المذكور فتقهقروا, وأعانهم على الإقدام على قتله علمهم بأن كثيرا من الناس يودون قتله للمنافسة والتحاسد على الرئاسة. ولما فرغوا من قتله ولم يعارضهم معارض من أصحابه خرجوا إلى بطحاء وسط البلد وجعلوا يلقون الخطب في الناس تبريرا لقتلهم إياه بأنه كان سيئ السيرة ظالما جائرا وقد أراحكم الله منه وأنه كان قد قتل عمه، وستكون لكم ولاية غيره سعيدة وأفضل منه إلى غير ذلك, وفي أثناء هذه الوقعة كان اثنا عشر نصرانيا من الأسبان مسجونين بسجن أسفي فوجدوا الفرصة للفرار وخرجوا من السجن وركبوا فلكا وذهبوا إلى الرئيس داز مبوجة بالبريجة "الجديدة" وأعلموه الخبر وبعد مضي يومين من قتله بلغ عليا بن قاسم أن أقارب القائد عبد الرحمان وأتباعه نذروا قتله فذهب إلى الرئيس دازمبوجة وطلب منه أن يحتل أسفي بمن معه, وذكر أن أهل البلد في غاية الفرح والسرور والاستعداد لحكومة البرتغال, وطلب منه أن يمده بما يرد به هجمات شيعة القائد عبد الرحمان، فتسنت الفرصة للرئيس دازمبوجة التي كان يرقبها, فما عليه إلا أن انتهزها، ولبى دعوة علي بن قاسم وحزبه, وفعلا دخل أسفي في اثني عشر من كبار دولته، فمكث بها ثمانية أيام عرض علي وحزبه معاهدة نيابة منه عن سلطان البرتغال منويل، واشترط عليهم أن يتخلوا له عن طرف من المدينة، مما يلي البحر ليبني فيه دار سكناه وأن يجعل فيه برجا متصلا بالسور من جهة البحر يكون ضخما متسع الجهات فقبلوا منه ذلك

ثم إنه بلغه على لسان يهودي اسمه ابراهام ، أن أهل أسفي، ائتمروا على قتله فخرج من آسفي ورجع إلى البريجة ومنها إلى البرتغال ومعه علي وثلاثة من أصحابه وتركوا يحيى بن تعفوفة رئيسا على المدينة فمثلوا بين يدي منويل سلطان البرتغال وأخبره دازمبوجة بالمعاهدة وما جرى له مع أهل أسفي وبين له ما هي عليه أسفي من الرفاهية والضخامة وحسن الموقع واتساع حركتها التجارية وحسن له جعلها قاعدة لمقاتلة القبائل المجاورة لها ثم رجعوا سنة 1507 م الموافق 912 الهجرية ووفد عليهم إثر ذلك في 50 رجلا كرسيا ميلو الذي كان حارسا للزقاق يحفظه من الملاحة العربية، فوجدوا أهل أسفي شاكين السلاح قد انضم بعضهم إلى بعض وتناسوا الأحقاد والعداوة وتبعهم على ذلك يحيى وعلي، وهم يقولون بلسان واحد لا سبيل للبرتغال علينا بأي وجه وأصروا على رد البرتغاليين بالخيبة والحرمان. فما كان من دازمبوجة وميلو إلا أن تدرعا بلسان الشقاق والنزاع بين الرئيس علي وصاحبه يحيى عملا بسياسة فرق تسد، وبذلك يسهل عليهما الاستيلاء على أسفي. فتمارض وأرسل إلى طبيب يهودي من أهل أسفي ليعالجه وأرشياه على أن يبلغ لكل من علي ويحيى كتابا بشرط ألا يطلع كل واحد منهما على كتاب الآخر فكتب ميلو كتابين أحدهما لعلي يحذره فيه من صاحبه يحيى وإغرائه وتنبيهه على أن يكون ذا بال فإنهم تآمروا بقتله، لكنه هو مستعد لنصرته والدفاع عنه بشرط موالاته وبمثله كتب ليحيى يحذره من المكايد التي يكيدها له صاحبه ويحضه على أخذ الحيطة والحذر منه خوف النيل منه وأنه مستعد لنصرته على صاحبه بشرط موالاته. فكان اليهودي إذا جاء لمداواته يدخل تحت الغطاء ليوهم الناس أنه إنما يختبر درجة الحمى التي به، فيأخذ المكاتيب سراً كي لا يشعر أحد بدسيسته، فكان كل من علي ويحيى إذا بلغه الكتاب يشكر عواطف ميلو نحوه ويعده بالإعانة له وموالاته لسلطان البرتغال ويطلب منه ألا يدع لعدوه عليه سبيلا فنتج من هذه السياسة والحرب السلمية أن صار كل من العاملين المذكورين يأخذ حذره من صاحبه ويذعن لموالاة البرتغال، واستدعيا البرتغاليين للزحف على أسفي واحتلالها فدخلوا إليها في خمسين جنديا، وكان نزولهم بدار القائد عبد الرحمان المقتول سابقا لاتساعها وحصانتها وقربها من البحر، وجلبوا إليها أنواع السلاح سرا في صفة سلع التجارة مودعة في براميل . فكان أهل أسفي يتوقعون منهم ما لا تحمد عقباه لما رأوا من تدخل البرتغاليين في سياستهم وشؤونهم، وندم علي ويحيى وصار يعضان أصابعهما على ما فعلاه، وعدا ذلك منهما طيشا وخفة، فتوقع البرتغاليون منهما المكروه وأرسلوا لسلطان البرتغال يطلبون منه المدد ويخبرون بالحال، فأمدهم بمدد معتبر، وهو أربعة سفن مملوءة بالعسكروكلف بقيادتها البحري كونزالد

امنديرفي مئتين من العسكر وكثير من المتطوعين، فنهض لأسفي فوجد البرتغاليين كانوا في غاية الضيق، إذ كان أهل أسفي قطعوا عنهم المؤونة وعزموا على الهجوم عليهم، إلا أنهم كانوا عادمي القوة, فكان البرتغاليون مهما واخذوا أحد العاملين بما جرى من قطع المؤونة يوجه التهمة لصاحبه، ولما بلغهم المدد المذكور وأرست سفنه بالبحر حصل لهم انتعاش وقوة وصاروا يتدخلون في سياسة أهل أسفي بكل جراءة وإقدام، وأعلنوا أنه لا سبيل للعاملين المذكورين على استمرار نفوذهما معا لما بينهما من الشقاق ونصب المكايد لبعضهم بعضا بل تكون السيادة لواحد منهما فقط ويكون عمله في اسم سلطان البرتغال، فتخلى علي بن قاسم عن الولاية ليحيى عن رضى منه، فلما رأى يحيى أنه لم يبق من يشاطره في الولاية قويت عزيمته على دفاع البرتغاليين وسيأتي بما في وسعه من تبديد أمور القائد دازمبوجة البرتغالي، وكان دازمبوجة في أثناء ذلك ابتدأ ببناء قصبة حربية(هي القصبة المربعة بالأبراج على شاطئ البحر الآن المدعوة برج ابلاط) مدعيا أنه إنما يبني دارا كبيرة تفي بضرورة تجار البرتغال، تحفظ سلعهم تحتوي على مخازن وبيوت تكون كافية لهم، وصار يغلق النوافذ بالطين وما أشبهه لينخدع بذلك أهل أسفي ولا يظنون أن من ورائها لوازم الحرب، وأمر بتبييض خارجها لتتم له مكيدة التدليس والخداع، فتفطن لذلك القائد يحيى وأمر الناس سرا بالكف عن إمدادهم بمواد البناء والتحصين من حجر وجير وعود وغير ذلك، فما بلغ ذلك دازمبوجة أرسل لعلي يعلمه بما خامره من الندم على تخليه عن الولاية مع أهليته لها وعدم أهلية صاحبه، وأمره بجمع بعض أصحابه للوثوب على يحيى وقتله ووعده بأنه يمده وينصره إن ألجأه الحال إلى ذلك وتكون له الرياسة على أسفي مكان يحيى فبلغ ذلك، يحيى بإشارة دازمبوجة فخاف على نفسه ولم يعلم بالمكيدة فخرج فارا إلى دار القائد عبد الرحمان، وفيها كانت تبنى القصبة فوجد فيها جلده ميراند حفيد دازمبوجة وكان بها سكناه ولم يكن له علم بأن يحيى فر إليها بإشارة جده فأمنه وأكرم مثواه واعتذر يحيى بعدم أهليته للولاية وعدم معرفته مع أنه كان من ذوي الدهاء والسيطرة، فحصل له بذلك العذر التخلص من دازمبوجة، بشرط أن يذهب في صفة أسير عند السلطان منويل والمثول بين يديه وأن يعقد معه معاهدة ود وإخلاص يكون بسببها مخلصا في خدمته إلى آخر عمره، فإن قبل منه الملك ذلك وإلا فيطلب منه أن يذيقه أليم العذاب حتى يقضي عليه، فذهب إليه فعفا عنه وأعطاه كبكبة من الخيل يترأسها ويقاتل بها من بضواحي المدينة، فجاء بها فكان يقاتل بإقدام وإخلاص وحزم، فعمل في اسم ملك البرتغال إلى إخلائهم أسفي كما سيأتي.

عمل القائد على بن قاسم

لما أخذ القائد علي بزمام السلطة وتفرد بالنفوذ أخذته الغيرة والحمية على وطنه، فعارض البرتغاليين بأقوى ما في وسعه ومنعهم من مواد البناء ومدد البنائين والنجارين والعملة، ووعدهم بالعذاب الأليم إن استمروا على العمل، وعلى رغم ذلك فقد كان البناء يتقدم شيئا فشيئا حتى تمت القصبة الحربية، ولما فرغ منها أمر بنقب الجدار الموالي للبحر كي يدخل منهم العسكر الذين هم في السفن المذكورة، وبعد نقبه حفرفي مواجهته إلى البحر خندقا ووارى طرفيه بالتراب فنزل منها العسكر ليلا، ومن الغد أوفد إلى القائد على طائفة من حاشيته بالتوبيخ على نقضه العهد على أنه يمدهم بالمواد اللازمة لبناء، القصبة، فصار يبدي لهم العداوة والعراقيل ويتوعد العملة فأجابهم علي بأنه تعجب من حماقة دازمبوجة وسوء فهمه وفعله فعل الغني بنفسه عن غيره إذ لم يخطر بباله أن يفتقر إلى المؤونة ولا يجدها إن لم يمده عامل أسفي، فأجابه دازمبوجة بأن البرتغاليين يكفيهم لحم أعدائهم ودمهم مؤونة يأكلون منه ويشربون، فلما سمع ذلك علي بن قاسم اغتاظ غيضا شديدا وعض على أنامله وصار يحشر الجيوش المقاتلين من ضواحي المدينة فجمع منهم عدداً كثيرا لا قدرة للبرتغاليين على مقاومتهم وحربهم, فلما عاينوا ذلك انكمشوا ولم يظهروا حربا كما إن القائد قاسما إنما حشر الجيوش وتركها رابطة ولم يعجل بالهجوم، وكان ذلك من سوء تدبيره وعدم معرفته بالسياسة، وإنما نصب لهم العيون والجواسيس للإطلاع على أسرارهم وما يريدونه من البدء بالحرب، حتى مل الناس وكلت العزائم ولحق المرابطين الفتور وقلت الأزواد، فلما علم بذلك البرتغاليون وصاروا يحركون أسباب الحرب فأرسلوا رجلا منهم من خدام بعض التجار لبعض الجزارين ليشتري لحما فأساء إلى الجزار، فصفعه الجزار فسل الخادم سكينا وطعن به الجزار فسقط ميتا من حينه ثم تمسك بأذيال الفرار ودخل للحصن، فاغتاظ المسلمون لذلك وهجموا على الحصن، وحاصروه فصب عليهم أهله كثيرا من الرصاص ومات به من المسلمين مائة وخمسون رجلا، ومع ذلك لم يثنهم عن الحصار والهجوم والبرتغاليين يقاتلون من داخل طول الليل ومن الغد عند الظهر خرجوا من الحصن ودفعوا دفعة واحدة، فتقهقر المسلمون فتبعوهم حتى ولجوا عليهم المساجد، ثم تراجع الناس واشتبك الحرب فكانت القصبة العليا تصب عليهم من الكور والبومب وابلا حتى أضروا وآنهدمت أركان القصبة البرتغالية واستمرت أياما كثيرة هلك فيها عدد كبير من البرتغاليين إلى أن وجه إليهم منويل جيشا كان مقيما بأشبونة متركبا من خمسة آلاف رجل ومائتي فارس حاملا مددا كثيرا من الذخائر الحربية وكان بالقصبة رجل عارف بالرماية، فكان يضرب بالقصبة البرتغالية فوزن (أي

صوب) عليه رجل برتغالي يقال له سيباستيان ردريك فجاءت الكورة في فم المدفع فتفرقع ومات الرجل المعلم وحمل الجيش البرتغالي فوقعت الهزيمة على المسلمين، وخرجوا من أسفي فنزل القائد علي بحاشيته بقرية ترغة بدكالة حتى قربه السلطان الوطاسي إليه ونزل باقي الأهالي جبل بني ماكر وذلك سنة1507 م الموافق سنة 913 ه . وما تقتضيه التواريخ العربية من كون الاحتلال كان قبل ذلك سنة 12 أو 16 أو سنة 8 فالمراد ابتداء الاحتلال بالطريقة المبينة سالفا، ولما تم الاحتلال أرسل سلطان البرتغال ضلطير واليا عاما على أسفي والجيوش التي بها وأرسل عساكر وعددا حربية , ولم يبق بأسفي إلا قليل من المسلمين منهم أفراد عائلة يحيى بن تعفوفت وغيرهم ممن لا همة لهم، ولعلهم هم الذين ذكر المؤرخ مانويل في الاستقصاء أنهم عقدوا مع البرتغاليين معاهدة لما طاولوهم الحصار وأسلموا لهم البلد على الأمان وإلا فالذي صرح به الحسن بن الوزان[1] ونقله عن المؤرخ جيروم انهم خرجوا من أسفي منهزمين عن قهر وغلبة كما بيناه، وكان الحسن ممن ورد سفيرا من الوطاسي ملك فاس إلى عامله بهذه الناحية وخليفته على سوس وحاحة، وهو الشريف السعدي , فهو "الذي" لذلك أخبر بالحال وأقعد بالمقال والله أعلم.

عمل البرتغاليين بعد الاحتلال

كان القائد دازمبوجة لما احتل أسفي عن قهر وغلبة قد قلب للمستأمنين ظهر المجن، وتبدل لينه بالخشونة ورفقه بالعنف، واستأسد الجيش البرتغالي على الذين خضعوا لهم وأطلقوا أيديهم بالقتل والنهب وهتك الحريم وهدم المعاهد الدينية وإهانتها واختطاف الناس كبيرا وصغيرا وبيعهم وغير ذلك مما تخجل منه وجه الإنسانية ويستحيي الفاضل من تسطيره في الكتب، و لكن لما كان التاريخ أمانة عند ثقات المؤرخين والكتاب فالواجب أداؤها. جاء في كتاب الرسائل العربية الواردة على سلطان البرتغال من مستعمراته التي جمعها ذو سوري البرتغالي طبع لشبونة صحيفة 11 من رسالة مؤرخة بثاني يوليو عام 1509 الموافق 13 صفر عام 915 ه مضمنها شكاية أهل أسفي الخاضعين لجيش البرتغال أن القائد زمبوجة أمر الجند بهدم المساجد، فهدموا الجامع الذي بقرب البحر حداء القبور ولم يتركوا فيه حجرا على حجر. والجامع الكبير ازالوا دفوفة وحصيره وأهانوه بما يستحيا من ذكره وكذلك زاوية الجامع الكبير المسماة زاوية باب الشعبة أخذها القائد زمبوجة وحجرها بحائط ومنع الناس منها, وكان فيها بيران يستقي منهما الناس، وزاوية سيدي علي بو علي

---

[1] - الحسن الوزان، وصف أفريقياج1، ص 150 – 151 .

هدموها أيضا وكذلك جامع باب أورير أزالوا دفوفة وحصيره, ومنعوا الناس من جنان بإزائه وحوانيت كانت تخصه, ومدوا أيديهم في النساء والبنات, واغتصبوهن, وفضحوهن, وأخذوا يختطفون الناس ويبيعونهم, من ذلك أن القائد المذكور أخذ سبعة أنفس من الواردين على المدينة للتجارة وباعهم إلى قبطان جزيرة(كذا)[1] الخشب, فطلبه القبطان المذكور في الشهادة بأنه اشتراهم، فأمر كاتبه فكتب له ذلك, واسترسل جنده في اختطاف الناس كبارا وصغارا وبيعهم سواء من سكان أسفي أو غيره, ولما سافر للبرتغال عبد الله اليحياني وعرف السلطان منويل بسوء سيرة جنده, نهاه القائد زموجة من أسفي من غير جريمة إلا ما ذكر، ومن فظائعهم أن رجلين من البرتغاليين كانا ساكنين بصومعة خارج أسفي، وكانت حرفتهما السرقة والنهب واختطاف الناس، فانقض عليهما رجلان من دكالة وقتلوهما فما كان من القائد المذكور إلا أن أمر أصحابه من غير فحص ولا تثبت بقتل سبعة من سكان أسفي دخلوا عليهم في قعر بيوتهم وسط نسائهم، فما كان المساء حتى ظهر من قتلهم وتبين أن قتل السبعة جرى من غير ذنب إلا ذنب الخضوع لسيطرة البرتغاليين . ومن ذلك هدم دور الفارين وتخريبها وغير ذلك من الفظائع الشنيعة والأفعال الوضيعة، جزى الله مرتكبيها بما يستحقون.

رياسة يحي بن تعفوفة

كان يحيى الخائن هذا حسبما أسلفناه قد خضع للبرتغاليين وهو أحد رؤساء الأحزاب المرسومين برسم الخائنين لله ورسوله والأمة والوطن, وقبل الاحتلال الفعلي ذهب للمثول بين يدي منويل بلشبونة، هذا سياق كلام جيروم كما نقله الحسن ابن الوزان[2] والذي قرره ابن الوزان نفسه في موضع آخر أنه لما احتل الجيش البرتغالي أسفي بالفعل أرسله زمبوجة عند منويل فأكرمه إكراما بليغا وأهدى له عشرين خادما وأمره أن ينوب عنه في إدارة شؤون ناحية أسفي, ولعل ذهابه كان متكررا وهو الظاهر لأن الأهالي عقب الاحتلال طلبوا فيمن يكون رئيسا عليهم واسطة بينهم وبين رؤساء جيش الاحتلال، فصدر الأمر له بذلك، فكان بصفة خليفة في قطر أسفي يولي ويعزل ويجبي الأموال ويباشر الحروب في جيش الأهالي الخاضعين للبرتغال، كل ذلك تحت رقابة قواد الجيش البرتغالي, وفي سنة 1516م الموافق لسنة 921 ه كان يحيى بلشبونة، وصادف موت فرننديز، فهم منويل بإخلاء أسفي، فصده يحيى عن

---

[1] -هكذا في الاصل

[2] - الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ج1، ص 151 .

عزمه وأمره بإرسال عوضه، ففعل وقلده هو رتبة الجينرال، فحسده حاكم أسفي إذ ذاك فكان ذلك سببا في ضعف نفوذ البرتغال، ثم قتل يحيى بعد ذلك فازدادوا ضعفا، لأن الخائن كان ساعدهم الأيمن وعضدهم الأشد، فكانوا بعده في انحطاط وتقهقر إلى أن أخلوا المدينة تماما صاغرين، ويقول لكرير إن يحيى أخلص للبرتغال وقام يحارب سلطان فاس وعمال سوس لنشر نفوذ البرتغال، وأرغم سكان دكالة ومراكش وحاحة على أداء الجزية للبرتغال، فجعله البرتغال واليا عاما على جميع البلاد المأخوذة، ه وقد طالت مدته حتى حارب السلطان أحمد الأعرج السعدي حسبما يأتي.

القوانين الإحكامية والجنائية في القبائل الخاضعة للبرتغال

رأيت صورة عهد بولاية رجل في كتاب سوزي[1] السابق صحيفة 53 ما نصه: الحمد لله وحده، باسم الله الرحمان الرحيم، بإذن من له الأمر والحكم السلطاني بمدينة أسفي وهو الشيخ الأجل المؤيد الأرفع أبو زكرياء يحيى بن تعفوفة بن محمد أدام الله عزه ومتع المسلمين بحياته، وفتح لنا دولته بالظفر، وبعد فقد تقدم عليه من قبيلة بني الحارث المكرم ابو عبد الله محمد ابن الحاج وفوض أموره له وطلب منه المعونة في أحكامه وتمييز رجاله وشطاره وتوليته، فأجابه يحيى المذكور بما طلبه منه برأي الكبار بأن أقامه مقامه وأن كل من خالفه وعصى أمره يعاقب عقابا شديدا على ما جرت به عوائد الشرع وعوائد أسلافهم، وأن يحكم في ناسه وقبيلته، وأمر أن من قتل أخاه المسلم يعاقب كما جاءت السنة من سير الشرع، فإن كان القتل عمدا يحكم فيه كما قال الله تعالى في كتابه العزيز « **أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص والسارق والسارقة اقطعوا أيديهم**[2] » كما قال الله تعالى ومن فعل شيئا يستحق العقوبة عليه فاحكموا عليه بما قال الله تعالى وبسنة نبيه جعلنا الله وإياكم من الذين يطيعون مولاهم ويتبعون الطريق المستقيم، المخالفين أهواءهم بجاه نبيه المنتخب آمين، وفي أوائل ربيع الأول عام 918 ه . وعقبه صحيفة 57 ما نصه : الحمد لله وحده السارق يعطي عشرة أواق أو مائة دينار أو تقطع يده, من جرح أخاه المسلم يعطي أوقيتين أو عشرين دينارا أو كبشا للمجروح, ومن ضرب بعصا أو بحجر له يعطي أوقيتين أو عشرين دينارا , من غصب مال رجل فان كان مديونا يعطي خمسين دينارا وإن كان حراميا يعطي مائة دينار , من ذكر ما

---

[1] - يقصد، سوزي البرتغالي.
[2] - سورة المائدة – أية 38-45.

سلف عن الناس الهاربين في زمان الحرب عليه عشرون دينارا أو ثوب أوقيتين, وإن شتمت امرأة رجلا تعطي نصف أوقية أو خمسة دنانير أو كبشا, ومن ادعت عليه امرأة وجاءت بالشهود عليه خمسة أواق أو خمسون دينارا أو يمين, ومن زنى من امرأة يعطي مائة دينار للمخزن وامرأته يأخذها المهتوك حرمته, ومن حكم عليه بالشرع ثم رجع للخصام بعد الحكم , عليه عشرون دينارا أو ثوب, ومن هرب وقت القتال يؤخذ ماله ويحرق بيته وينفى من البلاد وامرأته تأخذ ديتها من ماله المضبوط، وإذا قتله أحد فلا دية على قاتله, ومن طلب من آخر مالا له أو دينا له عليه فليرجع أمره أولا إلى القائد ليحكم بينهما ويعين لهما أجلا وإن لم يؤد المديون ما عليه للأجل المعين فيحكم فيه كما بينا. وكانوا يؤدون للبرتغال ضريبة سنوية وضرائب أخرى لا اسم لها ولا لقب إلا الظلم والجور نسأل الله السلامة.

حصار المسلمين الأول للبرتغاليين بأسفي

كان البرتغاليون بعد الاحتلال يتوقعون كرة المسلمين، فحصنوا المدينة غاية التحصين, فكان الأمر كذلك، فإنهم بعد ثلاث سنين من الاحتلال شاع الخبر بين المسلمين وذاع في الأوساط ما ارتكبه البرتغاليون، فجاء المتطوعون من الآفاق ووقع بينهم وبين البرتغاليين حرب صعبة شديدة كانت صفوف المسلمين تترادف من الأسوار كأمواج البحر، فقتل قواد عسكر البرتغال وكبارهم، وكاد يتم الفتح, ثم ورد على البرتغاليين شكودرة من مادرة بالعسكر والمدد فقويت نفوسهم وارتحل المسلمون عن البلد، وعند رجوعهم وإقلاعهم عن الحصار تبعهم البرتغاليون لينتهزوا الفرصة ظنا منهم أنهم اقلعوا عنها منهزمين, فكر عليهم المسلمون وأذاقوهم الوبال واستلبوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة.

الحصار الثاني

ثم إن المسلمين لما رجعوا عن أسفي مكثوا ريثما استراحوا وجمعوا الأدوات الحربية، فأمدهم خليفة السلطان الوطاسي بالمدافع من مراكش والطبجية وجاء المتطوعون من الآفاق فزحفوا إليها ثانيا بعد الحصار الأول بسنين قلائل وأحاطوا بها من جميع الجهات البرية، وكانت المدافع منصوبة بالدبرة، فقاتلوا قتالا صعبا ووصلوا السور فهدموا منه ثلمة كبيرة، واشتد القتال عليها بما خرج عن العدد، ثم رحلوا عنها من غير فتح، وأعرضوا عنها مدة عمرت خلالها أسفي بالنصارى وقصدها التجار وبنوا فيها الدور, ووسقوا (صدروا) الحبوب إلى بلادهم في السفن, وهذا الوسق للحبوب ناتج عن كون بلاد، عبدة

ودكالة وغيرها تحت نفوذهم وطاعتهم، وهي من أخصب البلاد، فكانت واردات الحبوب منها، سواء قلنا كانت بينهم وبين المسلمين معاهدة أم لا.

حركة يحيى بن تعفوفة إلى الخليفة الوطاسي بمراكش

كان يحيى قد اتسعت خطته ودخلت كثير من القبائل في طاعته، فتجهز في خمسمائة فارس وفيما يقرب من اثني عشر ألف فارس مغربي وقصد خليفة السلطان الوطاسي بمراكش سنة 920 ه . قاله ابن الوزان،[1] ولم يبين ما نتج عن هذه الحركة، ولعل صاحب مراكش جاء غازيا قطر أسفي فلقيه يحيى والله أعلم.

حركة السلطان الوطاسي لبرتغال قطر أسفي

في سنة 921 ه تحرك السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي زكرياء الوطاسي لإنقاد المسلمين من حكومة البرتغال بأسفي ونواحيه، فكانت طريقه على الجبل الأخضر بدكالة، ومكث هناك ثمانية أيام بجانب ضاية كانت معمورة بالحيتان وأمر بالخيل والجمال فأدخلوا إليها لكي يخرج الحوت فأدخل إليها نحو ألف فارس وأربعة عشر ألف ممن كانوا معه فخرج الحوت، فكانوا يقبضونه باليد، وكان يصيد بالبزاة وكلاب الصيد في غابتها، وبعد ثمانية نهض منها قائلا اللهم إني مرتاح لعلمك بما في نيتي التي انتقلت لأجلها وهي إنقاذ المسلمين من قيد البرتغال والمتمردين من العرب الذين في خدمتهم, وهم أعداؤنا الألداء، وأنت يا رب تعلم أن نيتي خالصة في ذلك وإن كنت منافقا فيها فأنت ولي الانتقام من الجميع، ثم قصد دكالة وكانت مدينة الغربية قد سقطت في أيدي البرتغال، فأرسل لأهلها ونهاهم عن أداء الضريبة للبرتغال وأمرهم بشق عصا الطاعة عنهم فقال له كبيرهم لا بد أن نبقى تحت طاعتهم، فأمر بجلده مع كبر سنة وبأخذ ماله فشفعوا فيه وسامحه ثم ارتحلوا منها وخربها أخو السلطان المذكور خوفا أن يتحصن بها البرتغال ثم عمرت بعد ذلك وأرسل لأهل مائة بير وبير وكانت قرية تعد لخزن الحبوب، وأهلها لا همة لهم ولا نخوة فلما بلغهم أمر السلطان الوطاسي بإخلاء القرية والخروج من حكم البرتغال، عز عليهم الخروج من بلادهم وفروا عند البرتغاليين بأسفي، فخربها السلطان المذكور، وأما أهل أسفي فقد قال ابن الوزان إن السلطان الوطاسى لما وصل لهذه البلاد وجدهم بجبل بني ماكر فرجعوا

[1] - الحسن الوزان، وصف أفريقيا ج1، ص 12 / 150 – 151 .

لأسفي, ومن كان منهم خائفا من البرتغال رحل مع السلطان إلى فاس, ه .
فيكون دخول من دخل لأسفي تحت حكم البرتغال كراهية الخروج من الوطن حيث إن السلطان المذكورأراد نقلهم من سلطة البرتغال, والله أعلم.

وقعة الرماة بأبي الأعوان

وفي سنة تسعة وعشرين وتسعمائة هجرية موافق 1513 م بلغ السلطان الوطاسي أن البرتغاليين في تقدم ونفوذ في هذه الناحية وأنهم أرادوا الزحف على قصبة أبي الأعوان بدكالة، والإيقاع بالناكثين طاعتهم، فجهز جيشا مركبا من ألفي فارس، ومائة رام كان على كل ألف قائد وعلى المائة رام قائد، وعلى الجميع الناصر أخو السلطان، فأوقعوا بجيش البرتغال بدكالة وقتلوهم عن أخرهم، ثم تحيزوا للجبل وبقي الرماة، فجهز البرتغاليون جيشا آخر وقصدوا موضع المعركة فظفروا بالرماة وانقضوا عليهم فقتلوهم قال الحسن[1] وجدني الحال ثمة، فشاهدت وقعة الرماة وكنت راكبا فرسا أنثى لأبلغ الخبر إلى صاحب مراكش فشاهدت الواقعة من بعيد، ثم تحالف المسلمون على البرتغاليين، فكروا عليهم وقاتلوهم حتى قتلوا منهم مائة وخمسين، وتقدم النصارى إلى مدينة الغربية فهدموها وخربوها إذ كان البرتغاليون يعتصمون بها, ثم عمرت, ولما جاء السلطان بعده أمر بتخريبها. ثم إن الناصر أمعن في جباية المال من قبائل دكالة فخانه بعض العرب، فاراد الرجوع من حيث جاء ولما راى الناس أنه أخذ منهم المال ورجع وتركهم طعمة للبرتغال منعوه من الرجوع وثقفوه كما أشار له ابن الوزان، والله أعلم.

[- زحفهم على القبائل المجاورة لأسفي ليلا, قال لكربير الفرنسي لما استولى البرتغال على أسفي كانوا يغيرون ليلا على عبدة ومدينة الغربية والشياظمة يتراوح عددهم نحو ثلاثمائة فارس وربما رجعوا بالخيبة لأنهم كانوا يتأهبون لحربهم ببناء الخنادق والحصون ويردونهم بالنشاب والأحجار، وكانت لهم مع البرتغال مواقف مشهودة مات فيها الكثير من أعيان البرتغال وربما رجعوا غانمين ويحرقون ويأسرون الناس وفي عام 1513م يوافقه 918 ه أغاروا على الشريف بقرية بتانسيفت بحاحة فأخذوا نحو مائتي ألف غنم وثلاثة آلاف ما بين جمال وخيل, ومرة أغاروا على أمكور فأخذوا أربعمائة أسير ومن القمح والشعير والعسل والدجاج ما استغرق نقله إلى أسفي ثلاثة أيام, ولما كان رؤساء البرتقيز يرجعون بهذه الغنائم، ثم كانت تقام لهم حفلات بالكنيسة، ولقد

---

[1] - نفس المصدر، ج1 / ص 156 – 157 .

كان موت يحيى خسارة عظيمة على البرتغال لأنه كان يدهم اليمنى وكان شجاعا مقداما , وهو سبب اسيلائهم على اسفي, ولما مات لم يخلفه أحد وكان ذلك سبب أفول نجم البرتغال ه نقل من خط المؤلف ويقول شيني الفرنساوي في ج2 من كتابه أبحاث في تاريخ المغارب، إن سلطان فاس لما جاء لاحتلال أسفي خرج إليه قائد البرتغال فرننديز في فرق من العساكر وهاجم مقدم عسكر السلطان وهزمه، فكان سببا في إدخال الرعب في جيش السلطان، فاضطروا إلى التقهقر تاركين معسكرهم وحوائجهم وزوجة من أزواج السلطان بين يدي عسكر البرتقيز، فشجع ذلك البرتغاليين ودخلوا في جوف البلاد يبتغون الغنائم, ثم إن أهل كزياتم لما رأوا قوة البرتغاليين أوقدوا بخيامهم النيران وفروا وفعلت النملة في البرتغال ما لم تفعله الجنود، فرجعوا إلى أسفي هـ، نقل من خط المؤلف.

وقعة القائد ابن أحمد وقتل الوالي فرننديز:

ذكر شيني في ج 2 من كتابه المذكور ص 429 أنه سنة 1516م موافق سنة921 هـ، نشب خلاف بين البرتغاليين وحلفائهم المغاربة وبين قبائل نواحي أسفي، فذهب البرتقيز إلى محاربة أولئك القبائل بأولاد عمران وإلى إخلاء مركزهم، فرجع البرتقيز بغنيمة كثيرة وعدد من النساء والعبيد من جملتهم زوجة ابن أحمد قائد تلك القبيلة اسمها يطو، فاغتاظ القائد من ذلك وجمع عدده وذهب في أثر العدو حتى لحق بهم في محل نزلوا به فهجم عليهم على حين غفلة منهم بشجاعة عظيمة وخالطهم في مجالسهم فقتل القائد العام فرننديز وعددا كثيرا من الضباط، واسترجع زوجته والغنيمة التي كان أخذها البرتقيز . وبعد هذه الهزيمة تبدلت الأحوال على البرتقيز وضعفت ثقته بالقبائل الموالية له وصارت القبائل تخرج من نفوذهم لما رأوا من تلك الهزيمة المنكرة، ولما بلغ الخبر لسلطان البرتقيز شق عليه الأمر وكاد أن يعزم على العدول عن محاربة المغاربة. فصادف الحال يحيى بن تعفوفت بلشبونة , فصد الملك عن عزمه وشجعه على المثابرة في الحرب وأوعز له بإرسال دون نوكنوانيكير نياس واليا عوض المقتول فركن إليه وأرسله إليه][1].

---

[1]ـورد هذا الكلام المثبت بين معقوفتين بالهامش دون إشارة إلى ذلك في المتن.

حرب الشرفاء السعديين لبرتغال أسفي

كان الشرفاء السعديون قد نزحوا [1] من سوس الأقصى واستقروا بتوسى وبها ندب أبو عبد الله محمد القائم بأمر الله الناس لبيعة أكبر أولاده أبي العباس أحمد الأعرج فبويع بها , وكانوا ذوي شهامة وإخلاص في حرب البرتغال، فتسامع الناس بوقائعهم مع برتغال أكادير وبحسن سيرتهم فقصدهم أشياخ حاحة والشياظمة وشكوا إليهم أمر العدو ببلادهم وسوء معاملته إياهم وشدة ضرره بهم وطلبوهم المجيء إلى بلادهم، فجاء أبو العباس ووالده ونزلا بزاوية الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد بن سليمان الجزولي بافوغال من بلاد الشياظمة وذلك سنة 922 هـ، ثم تجاوزا إلى بسيط قبيلة عبدة فحاربهم القائد يحيى بن تعفوفة، فكانت بينهم معركتان شديدتان استشهد في إحداهما السيد عبد الكريم ابن القائم بالله، لكن الأمير ابا العباس تدارك أمره فورا وجمع عسكرا جرارا وخطبهم ووعظهم وزحف إلى يحيى، فتم له النصر عليه وهزمه وفض جموعه ودخلوا أسفي مفلولين لا يلوون على شيء فانحصروا فيه وأغلقوا عليهم بابه وأتيح له من النصر والظهور عليهم ما لم يتقدم لغيره , والله سبحانه الموفق.

خروج البرتغال من أسفي وما يليه

كان خروج البرتغال من أسفي ونواحيه سنة 947 ه وهو الذي وجدته بخط غير واحد من علماء أسفي أهل القرن الثاني عشر فما بعده، قالوا وكانت مدة احتلالهم لأسفي أربعين عاما وهذا يقتضي أن يكون الاحتلال سنة 908ه لكنه محمول على ابتداء الاحتلال والتدخل في السياسة بالسلم حسبما أسلفناه وبذلك تتفق الأقوال المختلفة. وقال أبو القاسم الزياني في الروضة السليمانية [2] , وأبو حامد العربي الفاسي في مرآة المحاسن [3] إن خروجهم كان سنة 948 ه وهذه الأقوال كلها متقاربة, وقد نقل صاحب الاستقصاء عن المؤرخ البرتغالي منويل أن خروجهم كان سنة 1530م موافق سنة 933 ه وهذا مخالف للتواريخ العربية مخالفة بينة. والظاهر أنهم خرجوا منه ثم عادوا إليه، فيكون إخلاؤهم تكرر مرتين, قال اليفراني [4] في نزهة الحادي: لما بويع أبو العباس أحمد

---

[1] نزحوا، في الأصل نجحوا،وهو خطأ في النسخ

[2] - أبو القاسم الزياني، الروضة السليمانية في مفاخر الدولة الاسماعيلية 31،30

[3] - العربي الفاسي، مرآة المحاسن من أخبار الشيخ ابي المحاسن ، تحقيق محمد حمزة الكناني ص 273

[4] - الإفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، ص 54 .

الأعرج السعدي صرف همته إلى تمهيد البلاد واقتناء الأجناد وتعبئة الجنود إلى الثغور واستكثر من شن الغارات على العدو الكافر بتالمست وأسفي، وكان النصارى قد عتوا في السواحل مفسدين وخيموا بشط البحر من كل جهة وناحية، فأجلاهم عن تلك المناحي وطهر الله من نحسهم تلك البقاع والمناحي. ويقال إنهم لما رأوا ما وقع بمن كان بالسوس من القتل والسبي أخلوا أزمور وأسفي وأصيلا من غير قتال هـ. وهذا قد ذكره ابن القاضي في شرح درة السلوك في ترجمة محمد الشيخ السعدي أخي أبي العباس المذكور, قال كان له سعد وبخت عظيم في الجهاد ويد بيضاء في الإسلام، وكان منصورا بالرعب حتى تركوا له أسفي وأزمور من غير قتال هـ . لكن الذي اتفقت عليه التواريخ المتقدمة عليه أن ذلك كان في دولة أبي العباس لا في دولة أخيه المهدي، لأن دولة أبي العباس انتهت بخلعه عام 951 ه, وفيها بويع المهدي فذكر ابن القاضي وأبو زيد أن إخلاءهم لأسفي في دولة المهدي ليس على ما ينبغي، وعلى هذا، أي كون الإخلاء في دولة أبي العباس يأتي بحث الاستقصاء وهو قوله : وعلى كل حال فذكر أصيلا هنا غير مناسب، إذ هي يومئذ من جهة الوطاسيين وتخومهم، فما بال نصاراها يخرجون فرارا من السعديين وليسوا مجاورين لهاولا متوقعين هجومهم عليهم ه. نعم هو على ما ذكر ابن القاضي من كون ذلك في دولة المهدي غير بعيد لكون المهدي جمع مملكة المغرب , لكن ما ذكره ابن القاضي علمت ما فيه. وقد كان خروجهم منها خوفا ورعبا بعد ما أذاقهم الأمير أبو العباس السعدي وبال أمرهم ورأوا منه مالا طاقة لهم به, ونقلوا منها جميع ما لهم من عدة وأثاث إلى الجديدة. قال منويل وأوقدوا فيها النار , قال وبقيت اثنى عشر سنة وهي مخربة إلى أن أصلحها السلطان محمد الشيخ السعدي ه. وقد تتشوق النفس لعدم إخلائهم الجديدة مع إخلائهم أزمور وأسفي وهي بينهما ويمكن الجواب بأن أسفي وأزمور لهما أهل ولد وأوريو فيهما فهم لا يتركون دعاية الملوك وغيرهم لغزو بلادهم، ولا يسمحون للأجنبي بسكنى وطنهم وخروجهم عنه بخلاف الجديدة فإنهم قد أسسوا من أول وهلة فليس لهاأهل يبثون الدعاية لغزوها وإن كان الملوك وغيرهم يحاربونهم، عليها، فأمرها أخف من غيرها كما لا يخفى. والله سبحانه أعلم.

[بلوغ الشريف محمد إلى كاب أبير: قال شيني في سنة 1517م موافق 922ه[ ][1] البلاد الشريف محمد حتى بلغ كاب أبير الذي كان بيد البرتقيز.

---

[1]- بياض في الاصل يسع كلمة أو كلمتين أو.....)

ويقول لكربيير الفرنساوي في مقال نشر في لوماروك كاثوليك عدد أول عام 1925م[1] في سنة 1511 م يوافق 916 ه قام أبو عبد الله محمد ضد البرتغال وانتصر عليهم انتصارا باهرا وفي السنة التي بعدها أغير على والي أسفي فرننديز ذلطير ولكنه استبدل وأعانه يحيى كثيرا وفي سنة 1516 م موافق 917 ه أغار ابنا أبي عبد الله فقتل فرننديز وأسر القبطان دوبروكة وفي سنة 1517م (كذا) موافق 922 ه قتل يحيى، واستمر ابنا أبي عبد الله علي إغارتهم على أسفي، فحاصر أحدهما وهو محمد الشيخ المهدي المدينة مدة ستة أشهر 1539 م موافق 945 ه ولكنه لم ينجح، فأقام عنها فضعف البرتغال وخاف جان الثالث سلطان البرتغال من كارثة عظمى فعزم على إخلاء بعض النواحي المحتلة عدا الجديدة، وبعدها خسر سنطكيرز وأبيرفعزم على إخلاء أسفي، لأن المهدي أراد أن يجعل مرساة لتجارة السكر فاستولى على سنطركيرز بإعانة بعض أسارى النصارى في مارس 1541 م موافق ه 947 فوجد بها من الأسلحة والعدد كثيرا. وتزوج بدونة منسية بنت الوالي كنينر زدو منرور الذي أسر هو وعائلته، فأمر جان الثالث جان داكسطروم بإخلاء أسفي، ففعل ذلك سنة 1542م موافق سنة 948 ه ولم يعلم المسلمون بإخلائها، فأخرج البرتغاليون عددهم وخيلهم ومتاعهم وأبحروا, وفي الوقت نفسه أجلى البرتغال أزمور ولم يبق يبنهم بالمغرب إلا الجديدة , فاستولى محمد الشيخ المهدي على مدينة أسفي ه , جل مواد هذا المقال من كتاب كليفن المسمى الجديدة.

وقال لكربير: وإذا أردت أن تعرف السبب في فشل قواد البرتغال فلا بد من معرفة أن الشريف حاصر أسفي بتسعين ألف رجل وعشرين ألفا من الأسارى ومدافع كثيرة وأنه وجه أفواه مدافعه إلى برج، وكان الأعرج ماهرا في علوم الحربية ولم يكن مع قائد البرتغال إلا سبعمائة من المقاتلين، فطلب قائد البرتغال من قائد برتغال أزمور أن يمده بالإعانة، فأرسل إليه سبعين رجلا وعشرين برميلا من البارود وبقي الحصار مدة شهر حتى مل الأعرج وأقلع عن الحصار، ولكن لم يلبث أن رجع وحاصرهم مرارا حتى ضعفت سلطة البرتغال وخرجوا عنها. ونقل هذا من مقالين لكليفن نشرا بمروك كاتوليك عدد ماي 1922م[2] ه, من خط المؤلف. وقال شيني[3]، في مجلد آخر أن أحد الشرفاء كربين الشواطئ محاربا للبرتغاليين ومن والاهم إلى أن وصل إلى

---

[1] - لكربيير الفرنسي، لوماروك كاتوليك، عدد I سنة 1925 .

[2] - أعتمد المؤلف على مقالين للكاتب كيفن ماروك كاتوليك، ماي، 1922 م.

[3]- Louis,chenier ,recherches historiques sur les maures, T2/433.

كاب أيير فحاصرهم، ولكن لم يستطع الاستيلاء عليها إلى أن انفجر برميل بارود بكاب أيير فكان سببا في خذلان البرتقيز فاستسلموا وساروا أسارى للشريف انتهى من خط المؤلف.
الفائدة التي جناها البرتغال من هجومه على الشواطئ المغربية، يقول شيني الفرنساوي: كان احتلال أسفي وأزمور وكاب أيير وغيرها من النقط، كان قد عاد على البرتقيز بنفع عظيم في بداية الأمر. فوسع تجارته ونشر نفوذه عليها، ولكن المعارك التي قاموا بها داخل البلاد خسورا فيها أكثر مما ربحوه[1]. انتهى من خط المؤلف][2].

دولة الشرفاء السعديين

كان الأمير أبو عبد الله محمد القائم بالله بلغ من سوس عندما دهم المغرب البرتغال ودهوا منه بأمر عظيم، فكان أبو عبد الله القائم بالله هو وولداه أبو العباس أحمد وأبو عبد الله محمد الشيخ المهدي ممن قاموا بالدعاية ضد البرتغال وندبوا الناس للقتال ومباكرة ومراوحته. فتابعهم الناس على ذلك، فكانت لهم معهم معارك شهيرة كان الظفر لهم في غالبها.

أولهم الأمير أبو العباس أحمد الأعرج ابن القائم بأمر الله[3]

بيعته : بويع بأمر والده سنة 918 ه قال ابن القاضي في شرح درة السلوك: لما ولي الإمام أحمد بعد أبيه أسس الدولة ووطأها أخاه المهدي بالسوس عهده والدنيا تساق إليه ودخل أفواج الناس في طاعته وصار يشن الغارات على العدو بتالمست وأسفي، وكان الجو قد أظلم حتى استولى على بسائط المغرب وجباله، ودخل أمراء هنتاته ملوك مراكش تحت طاعته وتمهدت إليه الأرض وألقت إليه مقاليدها ه. ثم نزغ الشيطان بينه وبين أخيه المهدي، فظفر به أخوه المهدي فاعتقله وأجرى له الجرايات العظيمة وعامله بحسن معاملة وذلك سنة 951 ه.
وفاته : لما توفي أخوه المذكور أواخر حجة سنة 964 ه وبلغ خبره عامل مراكش علي بن أبي بكر إيكي، قام فأسرع بقتله هو وأولاده ذكورا وإناثا

---

[1] - Ibid , T2/434

[2] انتهى الكلام الوارد في هامش المتن

[3] - يعتبر مؤلف المنتقى المقصور لصاحبه ابن القاضي من المصادر المهمة التي أرخت لهذه الفترة إضافة الى نصوص أخرى متنوعة كمناحل الصفا لمؤلفه الفشتالي.

وصبية خشية أن يخرجه أهل مراكش فيولونه, وكان بينهما في الوفاة ثلاثة أيام والبقاء لله.

دولة أبي عبد الله محمد الشيخ المهدي بن أبي عبد الله القائم

مولده : كان مولده سنة 891 ه ونشأ في عفاف وصيانة.
عنايته بالعلم ومقامه فيه: كان قد عني بالعلم من صغره, وتعلق بأهله, وأخذه عن جماعة من الشيوخ , حتى بلغ فيه درجة الرسوخ, بحيث كان في ولايته يخالف القضاة ويرد عليهم الفتاوى, فيجدون الصواب معه, وقع له ذلك مرارا, وكان أديبا متقنا حافظا ديوان المتنبي , ممتع المجالسة والمذاكرة , حافظا للمقطعات الشعرية, والقرآن العظيم, عالما بمعانيه, حافظا لصحيح البخاري, مستحضرا ما للناس عليه, ويقول في شرح ابن حجر: ما صنف في الإسلام مثله, عارفا بالتفسير، وله حواش عليه.
بيعته : بويع عقب خلع أخيه أبي العباس سنة 951 ه وتولى ولاية أخيه من تادلا إلى وادي نون, ثم طمحت همته للزيادة فتحرك للوطاسيين ملوك فاس , وصار يستلبهم بلدا بعد بلد حتى أخذ فاسا ثم تلمسان.
حاله : كان ذا همة عالية, وشهامة عالية, كثير الحركة, مهد قواعد الملك , وأحيا رسوم الخلافة الدارسة ومعالمها الطامسة، وكان له سعد وبخت في الجهاد ويد بيضاء في الإسلام, وكان منصورا بالرعب.
وفاته: توفي رحمه الله مقتولا يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة 964 ه على يد بعض أجناده من الأتراك.
آثاره : منها اختطاطه تارودانت بعد اندثارها, وأذن للناس عامة وقت التخطيط في تأسيس الدور والغرس قصد عمارتها, ومنها تأسيسه مرسى أكدير لما أجلى البرتغال عن الموضع المسمى فوشى, وله غير ذلك من الجسور والآثار الحميدة.

دولة الغالب بالله عبد الله بن الشيخ المهدي

مولده : كان ميلاده سنة 933 ه.
بيعته : بويع سنة 964ه.
حاله : كان حازما، ضابطا لملكه، محافظا على انتظام سلكه، ذا سياسة وخبرة بالملك , مقتصرا على ملك والده، واشتغل بتحصينه.
وفاته : توفي في الثامن والعشرين من رمضان سنة 981 ه ودفن بمراكش بإزاء والده .

آثاره : منها مسجد المواسين , والمارستان , وتجديده مدرسة جامع ابن يوسف وغير ذلك.

دولة أبي عبد الله محمد المتوكل على الله ابن الغالب بالله

بيعته : بويع بعد والده بولاية عهد له .
حاله : كان متكبرا غير مبال بأحد, ولا متوقفا في الدماء، شديد العنف والظلم، وكان مع ذلك فقيها مشاركا في الفنون، مجيدا قوي العارض نظما ونثرا , بقي في المملكة ثلاث سنين, ثم جاء عمه عبد المالك من تلمسان في طائفة من الأتراك، وكان يكاتب دائرة ابن أخيه ويعدهم بالمواعيد, فخرج محمد للقائه، فجعل رؤساء جيشه يتسللون عنه إلى عمه ففر عن القتال وتبعه عمه, وجرت لهم وقائع آخرها وقعة وادي المخازن التي استنجد فيها بالبرتغال، فتوفي فيها منسلخ جمادى الأولى عام 986 ه غريقا رحمه الله وغفر لنا وله.

دولة أبي مروان عبد المالك بن محمد الشيخ

بيعته : بويع عقب خلع ابن أخيه آخر ذي الحجة سنة 983 ه .

غزوة وادي المخازن الشهيرة

لما فر محمد المتوكل أمام عمه كان آخر أمره أن استصرخ بسبستيان سلطان البرتغال بشرط أن يكون للبرتغال السواحل، ويكون له هو ما دون ذلك، فخرج سبستيان في جيش عظيم أكثر ما قيل فيه مائة وخمسة وعشرون ألفا وأقل ما قيل فيه ثمانون ألفا، واستنجد سباستيان غيره من دول أوروبا فأمدوه, وكان خروجهم في ربيع الثاني سنة 986 ه بالبلاد الهبطية، وضربوا محلاتهم بالفحص على الأقل من مسيرة يوم من القصر (مدينة القصر الكبير)، وخرج أبو مروان عبد الملك من مراكش ونزل بالمعارف من بلاد تامسنا كي تجتمع عليه الجيوش, واستنجد بالدولة العثمانية فأمدته بجيش من الجزائر، فكان موعد الجيش وادي المخازن, وأرسل عبد الملك لسلطان البرتغال يقول له إني جئت من مراكش مسيرة كذا وكذا يوم وأنت لم ترحل إلي ولو برحلة , فرحل إليه وقطع وادي المخازن فأمر عبد الملك بقطع القنطرة فالتحم القتال, واشتد الحرب والنزال, ودام خمسة وأربعين ساعة وكان وقع في أحد جناحي المسلمين انكسار فتزحزحوا عن مصافهم وحمل عليهم البرتغاليون لكن كان في ذلك الجناح الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي رضي الله عنه, وكان شجاعا مقداما ثابت الجأش فثبت في مركزه وثبت من كان معه فعادت الكرة على البرتغاليين، فقتل أميرهم سبستيان وانهزموا هزيمة شنعاء, وولوا الأدبار,

فوجدوا القنطرة مقطوعة فتساقطوا في الوادي ولم ينج إلا القليل، ومات الأمير أبو عبد الله محمد غريقا ومات الأمير أبو مروان عبد الملك إذ كان مريضا , وكان حاجبه يصدر الأوامر بالتقدم عنه وهو ميت, خوف الهزيمة, وكانت الوقعة يوم الاثنين متم جمادى الأولى سنة 986 ه, وغنم المسلمون من السلاح والأثاث ما يجل عن الحصر, إلا أن المسلمين وبالأسف انتهبوها انتهابا لما علموا بموت السلطان، وكان الناس يتوقعون مغبتها لاختلاط الأموال بالحرام لكون الغنيمة لم تقسم، فظهر ذلك بعده, وبعد تمام النصر وحصول السكينة رجع الجيش العثماني للجزائر حاملا ما أغدق عليهم أبو العباس أحمد المنصور المتولى بعد أخيه من الهدايا والتحف وبذلك كما في تاريخ الدولة العلية العثمانية, صارت مملكة مراكش ضمن دائرة نفوذ الدولة العثمانية خاضعة لها.

أبو العباس أحمد المنصور ابن أبي عبد الله المهدي

بويع بعد وفاة أخيه بوادي المخازن، ووردت عليه الوفود وجاءته الهدايا من حضرة السلطان مراد خان ومن حاكم الجزائر ومن دولة الأسبان وغيرهم.

حاله : قال في النزهة[1] كان شجاعا بطلا مقداما لا يكترث بالشجعان والأبطال ولا يصطلى إلا بنار الطعان والنزال, وله بصيرة بمكايد الحروب وخدع القتال، ومن حزمه أنه كان متطلعا لأخبار النواحي، باحثا عن الأنباء، غير متراخ في قراءة ما يرد عليه من رسائل عماله ولا يبطئ بالجواب, كان حسن السيرة حازما مشاورا في قوام الأمور, وقد اتخذ يوم الأربعاء للمشاورة، وسماه يوم الديوان، تجتمع فيه وجوه الدولة وأعيانها ويتطارحون فيه وجوه الرأي فيما ينوي من جلائل الأمور، وكان سخي النفس، جواد الطبع، لا يبالي بما يجود به , ويعطي عطاء من لا يخاف الفقر, قال الشيخ أبو العباس أحمد المنجور : ما عهدنا بذلا في الصّلاة إلا في أيام الشرفاء, ولا عهدنا بذل الألوف إلا في أيام المنصور، وكان على ما هو عليه من ضخامة الملك وسعة الخراج يوظف على الرعية أموالا طائلة يلزمهم بأدائها، وكانت الرعية تشتكي منه بذلك، ونالها إجحاف منه ومن عماله، وكان غير متوقف في الدماء ولا هياب للوقيعة في ذلك. وليته لم ينهب مال هذا ويهبه لهذا, ومن ذكائه أنه اخترع أشكالا خطية على عدد حروف المعجم، كان يكتب بها لعماله. قال في

[1] - الإفراني، نزهة الحادي، ص 197 .

حقائق الأخبار عن دول البحار: وهذا يدل على أن هذه العلامات التي تسميها الإفرنج الآن بالشفرة قديمة الاستعمال استعملها العرب قبلهم بقرون[1].

ضخامة ملكه

كان المنصور ضخم الملك واسع الخطة، ملك من البلاد ما لم يملك أحد. انتظمت له مملكة المغرب الأقصى من وادي ملوية إلى وادي النون، ثم انتظمت له سنة 989 ه توات وتيكرارين وفي سنة 999 ه جهز جيشا لبلاد السودان فأزال عنها ملك آل سكية، ودخلت في مملكته وجبى له ذهبها وخراجها، وليته لم يفعل وترك أولئك الأبرياء، أذلهم أمير خاص في قطر خاص، والتفت إلى إخوانه البؤساء الأندلسيين بجواره الذين كان يذيقهم الأسبان الموت الزؤام والعذاب الأليم , وأنقذهم مما هم فيه أو نفعهم ولو بالكلام مع الدولة العثمانية في نظامها العسكري ويهاديها ويخضع لها.

آثاره العلمية وعنايته بالعلم

كان المنصور نشأ في مهد العلم، وتربى في حجور أهله، فاقتطف من أزهار رياضه وكرع في معين حياضه، فأخذ عن أعلام بلده, وكاتب غيرهم من المغاربة والمشارقة، وله مشاركة في كثير من العلوم كالحديث والتفسير والتاريخ والسير وأيام الناس والشعر والأدب والتصريف والنحو والبيان والحساب والفرائض والهندسة والمساحة والجبر والمقابلة والتعديل وغير ذلك، وكان إذا قرأ بين يديه صحيح البخاري أو غيره صدرت منه أبحاث رائقة واعتراضات رائقة , وكان القضاة ربما توقفوا في النوازل الصعبة فيرجعون إليه فيها. وكم من مرة نقض أحكام القضاة بعد انبرامها وأطلعهم على وجه فسادها, ورأيت في كتاب بشائر أهل الإيمان في ترجمة بعض الفقهاء الواردين على المغرب الأقصى أنه وجد المنصور يدرس المطول بالمسجد كل يوم وناهيك بها همة وشغفا بالعلم وكان محبا للعلماء ومجالسهم، فكانوا لا يفارقونه سفرا وحضرا، وكان يستقدمهم عليه من آفاق المغرب, وشجع الناس على بث العلم بالدرس والتأليف, وأجرى على أهله الجرايات الواسعة، فأقام سوق العلم وأحيا رباعه، وعمر رباعه فازدهرت في أيامه العلوم والمعارف وانتشرت في المدن والقرى، وألفت فيه برسمه كثير من التآليف في مختلف الفنون، وكان له غرام بجمع الكتب والذخائر الثمينة حتى جمع من ذلك ما لم يجمعه غيره, ومن خزانته الآن الخزانة الموجودة بدير الأسكوريال بأسبانيا حسبما نُقِصَ بعد إن

---

[1]- عن استعمال الشفرة ، انظر القشتالي في مناهل الصفا.

شاء الله , وهو الذي أسس خزانة جامع القرويين وضم إليها كتبا نفيسة زيادة على ما كان فيها, وكان أحد كتابه له خزانة فيها خمسون ألف مجلدا , وإذا كان هذا في خزانة الكاتب فماذا عسى أن يكون في خزانة السلطان. ومن آثاره العلمية:
حاشيته على الكشاف للزمخشري جمعت من تقاييده, وهي خلاصة أبحاث ومطارحات من الزمخشري, وناهيك بمن تصدى للبحث مع فحل البيان والبديع أبي القاسم الزمخشري , ومنها كتب السياسة, وكتاب الأدعية وغير ذلك من نفثات أقلامه ومحاسن آثاره. رحمه الله ورفع درجاته.
وفاته : توفي رحمه الله بداره بالمدينة البيضاء فاس بالوباء ليلة الاثنين سادس عشر ربيع النبوي سنة 1012 ه ودفن من الغد بإزاء مقصورة الجامع الأعظم هنالك ثم نقل إلى مراكش ودفن بقبور الأشراف.
تنبيه : بموت أبي العباس أحمد بفاس الجديد بطل قول صاحب القرطاس[1] وصاحب الذخيرة السنية وغيرهما أن سعادة طالعها أنه لا يموت بها خليفة, ولا يخرج منها إلا نصر, بل مات فيها جماعة من السلاطين , كابي عنان المريني وأولاده السلطان موسى والسلطان أبي زيان , وأبي عمر تاشفين بن أبي الحسن, وأبي زيان محمد بن أبي عبد الله, وعبد الحق بن أبي سعيد وغيرهم.

حالة المغرب بعد أبي العباس المنصور

كان المنصور قد ارتكب غلطة في السياسة بسبب قسمة إمارة المغرب بين أولاده في حياته فكان : إنما ألقى بأسهم بينهم بعد مماته, ورسم لكل منهم طريق الاستبداد على صاحبه فصاروا كملوك الطوائف ولم يستحضر .غلطة هارون الرشيد الذي أوصى بعده بمثل ذلك لولديه الأمين والمأمون، فوقع بينهما من القتال والحروب ماهو معلوم، فانفتحت من أجل ذلك بعد المنصور أبواب الفتن والأهوال، وقامت بينهم الحرب على ساق طلبا للرياسة والاستبداد والتهالك عليها, واستبد الثوار بأطراف المملكة بل وبداخلها، فسفكت الدماء وهلكت وانفتحت أبواب الفتن والأهوال وفشت في الناس الخيانة وضاعت الأمانة وانقطعت السبل, وما أبين ما قال في ذلك الأمام أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الجزولي التمنرتي في كتاب الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة[2]

---

[1] - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص 421 .
[2]- بو زيد عبد الرحمان التمنارتي، الفوائد الجمة ،ص 166 وعن وفاة أبي العباس المنصور، انظر ص،340

حيث قال لما توفي المنصور، اضطربت الأمور وراجت الفتن والأهوال وتغيرت الأحوال وانعكست, وانقلبت البادية انقلاب الرغيف وأضر القوي من الناس بالضعيف، وطوي ما كان بها من الأمر منشورا، وعم الخراب الذي كان بالأمس كامنا مضمورا، واختل الحال وتوزع البال, وتناهت الآلام وبرز الحيوان الشرير من الآجام وطاش الوقور ونيش المحقور، ووضع النفيس، وارتفع الخسيس، وفشا العار، وخان الجار ولبس الزمان البؤس، وجاء بالعبوس، وأورد ماء الاختلاف، وأنضب ماء الوجه والائتلاف، وطأطأ الحق رأسه، وأخفى المحق نفسه وتبرقعت الحسناء، وكشفت الشوهاء, ووردت المهالك، وسدت المسالك، وعم الجزع والجوع، وتبرا الكوع من البوع، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

لعمرك ما المصيبة هـــــدم دار — ولا شاة تموت ولا بعير
ولكن المصيبة موت حــــــر — يموت بموته بشر كثير

وعلى الجملة فقد تدهور المغرب في القرن الحادي عشر وانحط من جيمع شؤونه بتتابع الفتن والأهوال وقيام الثوار في كل أفق من آفاقه، فقد كان أبناء المنصور ما بين فاس ومراكش، وأبو دميعة السملالي وأبو زكرياء بن عبد المنعم بسوس، وابن أبي محلى بسجلماسة، وكان بفاس جماعة من الثوار نحو ثلاثين سنة يتصرفون فيه، وأزالوا عنه سلطة أبناء المنصور، ثم كان الدلائيون بالأطلس وغيره, والرئيس محمد العياشي بسلا وغيرها والخضر غيلان بالهبط والريف، وغير هؤلاء ممن يطول ذكرهم، وكانت الحروب بينهم مشتعلة والفتن متواصلة حيث خربت البلاد وهلكت العباد، وساءت الحالة بما يقصر عنه اللسان إلى أن تدارك الله بانبثاق مجد الدولة العلوية، فأحيوا مراسمه ملك اسمه لملك المغرب وشيدوا معالمه. جزاهم الله خيرا.

الحالة العلمية في القرن الحادي عشر الهجري

كانت الحالة العلمية في القرن العاشر, في سطوة الدولة السعدية, قد أينعت ثمارها, وتدلت للطالبين أغصانها, وصفت منها المشارب , حتى كرع من معينها كل شارب , وخصوصا في دولة المنصور حسبما مر سابقا. ثم لما قبض الله المنصور السعدي , وتتابعت الفتن والأهوال, في جل القرن الحادي عشر, انعكست أحوالها وكدرت مشاربها, وكاد ينضب ماء معينها, وتتلاشى من هذا القطر رسومها, إلا أن الله سبحانه وتعالى تدارك العلم بثلاث رجال كانوا له ركنا منيعا, وحصنا حصينا , ولولا وجودهم لكانت الحالة أسوأ

والمصيبة أعظم, ألا وهم : الشيخ أبو عبد الله محمد بن ناصر بدرعة, والشيخ أبو عبد الله بن أبي بكر الدلائي بتخوم بلاد البربر بآيت إسحاق من زيان, والشيخ أبو محمد عبد القادر بن علي الفاسي بفاس . أما الشيخ محمد بن ناصر فإنه كان ركنا من أركان الدين, وعلما من أعلام السنة . قام بنشر العلم ودرسه, فدرس الكتب الستة وغيرها كالفقه والعربية . وكانت له رحلة إلى المشرق، فلقي أعلامه فاستفاد وأفاد, وتتلمذ له كبار كأبي علي اليوسي وأضرابه, وأعظم ما كان فيه الهيام بالسنة والتخلق بها، ففي ترجمته من الدرر المرصعة أنه كان متبعا للسنة في جميع أحواله وأقواله ومأكله ومشربه وملبسه, وقال عنه بسنده إليه : ما علمت حديثا من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عملت به ولو مرة واحدة في عمري وإن كان مخالفا لمذهب مالك تبركا به. وقال في طائفته النقادة أبو القاسم الزياني :

أحسن ما في مغربنا من الزوايا، الناصرية المقتدون بعمل أهل المدينة ومكة، المتمسكون بالسنة في السكون والحركة, فطائفتهم أحسن الطوائف سمة، أوأحسنهم في الذكر سمة، وأصبرهم على المشاق في طلب العلم اعتكافا وسبتا. وبالجملة لا ترى في سيرتهم عوجا ولا أمتا , وكانت وفاته سنة 1085 ه وخلف ولده الإمام أبا العباس أحمد بن محمد بن ناصر فكان على سنن والده في الدؤوب على نشر العلم، وبه قام على البخاري والكتب الستة ودرسها , وكان متخلقا بها متعصبا لها. رحل للمشرق مرارا , ولقي كثيرا من الأعلام, واستفاد وأفاد, وفاح ختام مسكه على العباد, وفي ترجمته من الدرر المرصعة عن بعض تلامذته, قال : كان الشيخ أبو العباس كثير السؤال والفحص عن أحوال الناس وما جرياتهم في الأمصار والمدائن , قال : فقلت ذات يوم في نفسي ما للشيخ والإخبارات, لو اشتغل بصلاته وصيامه وسبحته، فلقيني بعد ذلك وقال : يا فلان, المؤمن يسأل عن إخوانه والمسلمين وأحوالهم، فمن كان في خير دعا له بالزيادة والهناء, ومن كان في شر دعا له بخير ورحمة, وكان هائما بجمع الكتب يبذل فيها الأثمان الباهظة , وجلب منها من المشرق شيئا كثيرا, حتى كان يضرب بخزانته المثل, وكان لا يمنعها من مستحقها, وكانت وفاته سنة 1129 ه. ودرج في بيتهم عدة أعلام وصلحاء عظام. رحم الله الجميع.

الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي

كان إماما, عالما, مشاركا في كثير من الفنون كالتفسير والحديث والفقه واللغة وغير ذلك, تخرج به كثير من الأعلام كالحافظ أبي العباس المقري مؤلف نفح الطيب, وأبي مالك عبد الواحد بن عاشر الأنصاري, وأبي العباس أحمد بن

يوسف الفاسي وأبي حامد العربي الفاسي, وأبي عبد الله محمد ميارة, وأبي علي اليوسي, وغيرهم من الأئمة وشيوخ الوقت، وكانت الرحلة إليه في المغرب, لا يعدوه طالب ولا يؤمل غيره راغب, قال في البدور الضاوية[1] نقلا عن بذل المناصحة: كان مجلسه يعمر بالأشراف والطلبة المحصلين للعلوم, وقام للعلم به سوق نافقة, وصارت محبة العلم وتعلمه بالخاص والعام، فاستقل في ذلك برئاسة العلم والدين والسلوك على سنن المهتين، وكان أحب الأعمال إليه تدريس العلوم لكل من يستحقها على الخصوص والعموم من الآجرومية إلى التفسير مع فصاحة التعبير حافظا محققا مبينا لما أشكل، مفصلا لما أجمل، مستجمعا للشوارد، مستحضرا للشواهد، مستدلا بالحجج اليقينية على الأحكام الدنيوية والدينية, ولم يكن في الحديث أحفظ منه في البوادي والأمصار بعد شيخه أبي عبد الله القصار, وكان معمرا أوقاته الليلية بتدريس العلوم على اختلافها إقراء بحث واستنباط وتحصيل وارتباط، وبناء الفروع على الأصول، عارفا بطرق الاستدلال من الكتاب والسنة والإجماع والقياس, وكان يكرم طلبة العلم, ويوصلهم بالعطاء الجزيل, وكان مرتبا عنده بباب داره أزيد من ثلاثة عشرة مائة, وأما جوده فهو من أغرب الغرائب، وناهيك بكونه أطعم في يوم واحد أزيد من سبعين ألفا ومن مثل هذا ما استغرب, ومن أراد استيفاء أحواله ومكارمه فعليه بالبدور الضاوية في أهل الزاوية الدلائية لأبي الربيع سليمان الحوات[2], وكانت وفاته سنة 1046 ه وكان في بيته عدة أعلام أئمة, وقال أبو القاسم الزياني إنهم كانوا صلحاء علماء تشد لزاويتهم الرحال من أقطار المغرب , وكان فيهم خمسة وعشرون عالما درسوا في المعقول والمنقول ولم يتفق هذا العدد في بيت من بيوت أهل المغرب غيرهم وغير السادات الفاسيين.

الشيخ أبو السعود عبد القادر بن علي الفاسي

شيخ الإسلام وقدوة الأنام، محيي الدين وعمّدة الأئمة المهتدين , كان رحمه الله ممن نفع الله به العامة والخاصة، فلا نجد عالما بأفريقية والمغرب إلا من تلامذته أو تلامذة تلامذته , أو راغبا في الأخذ عنه، انتهت إليه رياسة العلم وأحيا الله به علوم الحديث والمغازي والسير، وخصوصا الصحيحين، وعلى

---

[1] ـ سليمان الحوات : البدور الضاوية في مناقب أهل الزاوية الدلائية، تحقيق عبد الرحمان كظمي.ص82-346.

[2] ـ البدور الضاوية ، كتاب في التعريف بأعلام الزاوية الدلائية للفقيه العلامة أبي الربيع سليمان الحوات، وقد قام بتحقيقه الأستاذ الدكتور عبد الرحمن كظمي في رسالة جامعية تقدم بها لنيل دبلوم الدراسات العليا تحت إشراف الدكتور عباس الجراري، ولاتزال مرقونة .

الجملة فحاله أشهر من نار على علم، وأعرف من أن يعرف به رحمه الله, كانت وفاته سنة 1091 ه. وبيته، بالأئمة العظام والمشايخ الأعلام الذين كان لهم أعظم الأثر في العلم والدين , رحم الله الجميع, فهذا بعض البعض من أوصاف الرجال الثلاثة الذين تحصن العلم بهم بحصن منيع في القرن الحادي عشر، جزاهم الله خيرا وأعظم لهم مثوبة وأجرا.

أبو المعالي زيدان بن أحمد المنصور السعدي

بيعته: بويع بفاس عقب موت والده ولم يزل في محاربة إخوته وأبنائهم ومقاتلة القائمين عليه من الثوار، ولم يخل في كل سنة من هزيمة عليه أو وقعة في أصحابه, ووقعت بينه وبين أصحابه معارك يشيب لها الرضيع، وكان ذلك بسبب إخلاء المغرب وخصوصا مراكش, وكان مقتصرا على مراكش وأعمالها كأولاده من بعده. قال اليفراني في النزهة[1] : كان زيدان غير متوقف في الدماء، غير مبال بالعظائم هـ, وفي دولته كان ظهور الفقيه أبي عبد الله محمد بن أبي محلى، استقامت له بلاد سجلماسة، ثم تقدم إلى مراكش وهزم جيش زيدان, ودخل ابن ابي محلي مراكش، ففر زيدان عنها واعتصم بأسفي, ومنه ركب البحر قاصدا مرسى أكادير مستغيثا بالزعيم أبي زكرياء بن عبد المنعم, وحمل معه خزانة الكتب فيها نحو ستة عشر مائة مجلدٍ من نفيس الكتب، وغيرها من الذخائر الثمينة التي كانت لوالده، فحملها له مركب فرنساوي, ولما نزل زيدان بمرسى أكادير فر صاحب المركب مدعيا أنه لم يوفه أجره، فتسلط على ذلك المركب مركبان من أسبانيا أسراه وأخذت تلك الكتب, وهي التي الآن بدير الأوسكوريال, وكان زيدان قد نهب الفقيه أبي عبد الله محمد بن ابراهيم الجزولي خزانته, وكان المذكور مغرما بالكتب، فلما حج سنة 1035 ه اشترى ما قيمته عشرة قناطر، فجاء بشيء كثير فنهبه له زيدان، فجوزي بمثلها, والله لا يظلم مثقال ذرة، ثم إن زيدان استغاث بابي زكرياء ورجع لأسفي، فجهز أبو زكرياء جيوشا عديدة, وقصد بها صاحب مراكش، فوقعت بينهما معركة قتل فيها ابن أبي محلى وهزم جيشه ورجع زيدان إلى مراكش، ولم يزل أمره يضعف إلى أن توفي رحمه الله، وكانت وفاته في 9 محرم عام 1037 ه، وكانت دولته 25 سنة وعشرة أشهر رحمه الله ، وعفا عنا وعنه. كان زيدان عالما مشاركا متضلعا في العلوم والتفسير، اعتمد فيه على ابن عطية والزمخشري, وله شعر لا بأس به.

---

[1] ـ الإفراني، نزهة الحادي، ص 347 .

أبو مروان عبد الملك بن زيدان

بويع بمراكش واعمالها، وكان فاسداالسيرة ، مطموس البصيرة ،مدمنا على الخمر ، قتله العلوج وهو سكران يوم الأحد سادس شعبان سنة 1040هـ وكانت دولته ثلاث سنين وسبعة أشهر.

الوليد بن زيدان

بويع بعد وفاة أخيه .

حاله : كان الوليد دينا، متواضعا، لين الجانب، مائلا للعدل، رضيته الخاصة والعامة، وفي أيامه صلح أمر الناس وانتعش, وكان محبا للعلم وأهله مقربا لهم، قام في بلده سوق العلم وانتشر , لكنه كان قاصرا على بلده, وقد ألفت باسمه تآليف، وكانت محاسنه كثيرة، غير أنه كان مسرفا في قتل الأشراف من إخوته وبني إخوته وبني عمه خوفا منه على الرياسة، وفي أيامه كانت قبيلة هشتوكة وأزمور قد فسدت وعاثت فيمن جاورها، فخرج إليها في جيشه في شعبان سنة 1044ه فشتت أمرهم وكسر جموعهم ونهبت أموالهم، وتبعهم الجنود إلى أنفا وأبلغوا في النكاية والعقوبة.

وفاته : توفي مقتولا، قتله الأعلاج غدرا يوم السبت الرابع عشر من شهر رمضان سنة 1045 ه ،ورأيت بخط الفقيه أبي عبد الله محمد بن علي البوعمراني الأسفي أنه قتله أخوه محمد الشيخ، قلت لعله بأمره, وإلا فقد كان محمد الشيخ مسجونا إذ ذاك, والله أعلم.

محمد الشيخ الأصغر ابن زيدان

حاله : كان حسن السيرة، لين الجانب مع الكافة، متواضعا في نفسه، صفوحا عن الهفوات، متوقفا عن الدماء، مائلا إلى الراحة، إلا أنه كان منكوس الراية، لم يصف له إلا مراكش وبعض أعمالها، وكان في زمانه ظهور اهل الزاوية الدلائية وكانت بينه وبينهم معركة في حدود الخمسين انقشع غبارها عن هزيمته، فأغضى الطرف عما بأيديهم وسالمهم. وفي أواسط ربيع النبوي عام 1058 ه تحرك لقبيلة الشياظمة إذ كانوا شقوا عليه العصا, فكانت الملاقاة بينهم عند جبل الحديد، فانجلت الحرب عن هزيمته، ثم تلافي أمره وأسر منهم وأفسد ورجع الى مراكش من غير أن يفتح له شيء من بلادها.

وقعة بآل غياث من عبدة

كان آل غياث من عبدة قد فسد أمرهم وعاثوا في أطراف أسفي، فكانوا يختطفون الناس من جانب السور، وكانت أسفي عديمة الحامية بتوالي الموت والقحط، فكتب له أهل أسفي مستغيثين به فخرج في جيشة من مراكش، فوافى آل غياث يوم الجمعة تاسع جمادى الأولى سنة 62 فأوقع بهم وبمن حذا حذوهم، وانتشف أموالهم وأفسد مساكنهم ودخل أسفي في اليوم المذكور، وكان نزوله بالقصبة العليا المعروفة بدار السلطان، ونزل جيشه خارج أسفي . فأفسد الجيش ما تركه آل غياث من الزرع حتى عدمت الأقوات بالكلية إلا ما في خزين السلطان من الشعير فقط, ولما رأى ما حل بأهل أسفي من عدم الأقوات وارتفاع الأسعار رتب لغالبيتهم المؤونة في كل ستة أشهر من السنة , ولم ينقطع ذلك الراتب إلى وفاته، حاش مدة شهر, وأفاض وافر إحسانه على أهل الزاوية الصالحية فوصلهم بثلاثمائة أوقية , ولما زار عياله ضريح الشيخ ابي محمد صالح وضعوا فيه مائة أوقية، ثم إن عيال آل الزاوية المذكورة زاروا عيال السلطان بالقصبة فوصلهم بأربعمائة أوقية وخمسين ذراعا [ ][1]وزيادة في التكريم أرسل معهم الفراش الذي كانوا عليه مع كثير من الدقيق والفاكهة، ورحل قاصدا مراكش يوم الثلاثاء سادس عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة واستصحب معه رئيس الزاوية الصالحية فأكرمه وبالغ في تكريمه، وكانت زوجة السلطان والدة أبي العباس المتولي بعده هي التي تولت إكرامه ووصلته بألف أوقية ورجع عشية يوم الثلاثاء رابع شعبان عامه.

بعثة الرماة حامية لأسفي

كان أسفي قد توالت عليه النكبات من القحط والفتن فكثرت الأموات بسبب الجوع, وتفاحش الأمر خصوصا في رمضان من العام المذكور، فقد كانت الموتى تأكلهم الكلاب خارج البلد وداخله وعجز الناس عن الدفن ومن كان من خاصة الناس يلقى به في مطمورة أو بئر، وبسبب ذلك طمع أهل الفساد في أهل المدينة فصاروا يقطعون السبيل ويخطفون الناس من جانب السور، ولما رأى السلطان المذكور خلو أسفي ممن يحميه أرسل عقب رجوعه لمراكش مائة رام ومعهم قافلة من الجمال تحمل ثمانين غرارة من الشعير مؤونة أولئك الرماة, وكان وصولهم لأسفي يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شوال سنة 1062 ه ولا أظن هؤلاء الرماة إلا أنهم الإيلايون سكان البستيون المدعوون الآن أهل سيدي بوزيد، ولم يزل ذلك الراتب لأهل أسفي إلى صفر من سنة

---

[1] بياض في الأصل

1064 ﻫ فقطعت المؤونة عنهم ففني ذلك الشهر الناس وهرب البعض عن أولادهم، وكان الموكل بتنفيذها هو الذي قطعها، فسولت له نفسه ذلك وحدثته نفسه بما لم يبلغه قدره وتابعه على رأيه الفاسد جماعة ممن هم على شاكلته, ولما أرسل لهم السلطان بالتوبيخ راموا شق العصا عن السلطان وغدروا بالباشا، فخرج إليهم السلطان بنفسه في صفر سنته فأدبهم وقتل منهم شرذمة وهدم ديارهم وأعاد الراتب المذكور كما كان, وفي آخر السنة كان الخصب إذ نزل المطر، فحرث الناس وانتعش أمرهم، وفي يوم الثلاثاء من ربيع الأول سنة 1056 ﻫ حدث حادث بدارالسلطان محمد الشيخ بمراكش فظن الناس أن السلطان قد مات فهرج أمر الناس وانتهبوا الأسواق، فركب السلطان بنفسه حتى رآه الناس ووقعت الهدنة عند رؤيته, وفي 58 كان السلطان قد بعث جيشا لكيل الحبوب من دكالة وبيعه للبرتغاليين بالجديدة وكانوا يعرضونه عليه بالعدة والحديد وغير ذلك.

وفاته : توفي رحمه الله آخر سنة 1064 ﻫ وكانت دولته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر.

أبو العباس أحمد المدعو العباس بن محمد الشيخ

بويع بعد وفاة والده, قال في النزهة[1] : قام مقام والده في جميع ما كان بيده, إلا أن حي الشبانات, وهم أخواله , قويت شكوتهم في أيامه وحاصروه بمراكش ووثبوا على الملك, ولما رأت أمه أن الأمر لا يزيد إلا شدة كلمته في أن يذهب إلى أخواله ويأخذ بقلوبهم ويزيل ما بنفوسهم عليه، فلما تمكنوا منه قتلوه غيلة. ورأيت في تاريخ أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الضعيف الرباطي، وتبعه أبو العباس أحمد ابن الحاج الفاسي السلمي في الدر المنتخب أن أم السلطان المذكور كانت إسبانية وشغفت بكروم الحاج، وكانت تبعث إليه بالضيافة والعلوفة , وفي أسفل الطعام والشعير الذهب والفضة وبسبب ذلك تقوي ساعده وأظهرته في المملكة لما لم تجد السبيل إليه من أجل ولدها ودبرت معه الحيلة في قتل ولدها المذكور بأن أرسلته لزيارة أخواله واستعطافهم وإزالة ما في قلوبهم من الضغائن وبعثت لكروم الحاج فتلقاه بالترحيب وأنزله بموضع يقال له المراح الواسع، وهناك قتله ونال شهوته من أمه وفتك بالأبكار بنات أبي العباس وأخواته وغيرهن، فحلقوا شعورهن وبعثوا بها إلى المولى الرشيد, كان قتل أبي العباس كما في النزهة[2] وغيرها سنة 1069 ﻫ وفي تقاييد قاضي

---

[1] - الإفراني ، نزهة الحادي، ص 374 .

[2] - الإفراني، نزهة الحادي، ص 374 .

أسفي الجيلالي بو خريص أن قتله كان في 8 ربيع الأول سنة 1070 ه وبموته انقرضت الدولة السعدية وطوي بساطها، فسبحان من لا يزول ملكه.

الحوادث : في ليلة[ ][1] من سنة 1057 ه دخل السيل لأسفي، وفي ليلة الجمعة رابع ذي الحجة سنة 1057 ه نزل مطر بأسفي ونواحيه، ولما كان بعد العشاء الأخيرة دخل سيل عظيم لأسفي من باب الشعبة ففزع الناس ووقع الصراخ والصياح وجعل الناس ينقلون أمتعتهم، إلى المواضع المرتفعة، ولم يزل الأمر يزداد شدة والماء يعلوا الديار كأنه أمواج البحر, فهدم السور الذي يلي البحر من عند الخراجات الذي كانوا يقولون له برج المقاذيف، وهدم ما كان على ساحته من باب الشعبة إلى البحر، فحطم حوانيت القشاشين ثم العطارين والخرازين والبقالين والمعصرة والطواحين والدور القريبة من السوق وكل ما كان على طريقه، وحفر خندقا عظيما من باب الشعبة إلى البحر، وبقي الخندق كذلك وعليه قنطرة يمر الناس عليها إلى سنة 1060ه، فأمر السلطان محمد الشيخ الأمير مسعود بن ابراهيم الهوزالي فشرع في إصلاح أحباس المخزن وحوانيته يوم الخميس رابع رمضان ثم شرع بإصلاح أحباس المساجد، وأمر من له ملك أن يصلحه وسوى ذلك الخندق ولم يبق له أثر وعادت الأسواق أحسن مما كانت عليه وفي سنة 1058 ه كان الوباء بأسفي ذهب بتسعة أعشار أهله وبالبوادي لا تحصى الأموات ولا تعد وفي سنة 1056 ه [ ][2] الحبوب وفي ذي الحجة سنة 1060 ه لم ينزل مطر فارتفعت الأسعار وبلغت الأقوات ثمنا غير معهود وانتشر الفساد وحل بالمغرب وباء كبيرفكان الناس يموتون بالطرقات نساء ورجالا وفي ذي القعدة 1061 ه عدمت الأقوات بأسفي إلا ما كان يجلب من مراكش, ثم ازداد الأمر شدة حتى أغاث الله بما جلبه أهل سوس من الحبوب، وفي أوائل سنة 1062 ه تفاحش الأمر وبلغت القلوب الحناجر، فتدارك الله الناس بالمطر فحرث قليل من الناس وأخصبت البلاد أواسط يناير ومارس واستبشر الناس بحسن المستقبل إلا أنه انقطع المطر وهبت الرياح على الزروع فيبست وهلكت المواشي وارتفعت الأسعار ارتفاعا فاحشا فاشترى السلطان محمد الشيخ الأقوات من السوس وجلبها لهذه البلاد وجعل لها ثمنا أحط مما كان, لكن لم يفد في تخفيف الوطأة بل زاد الحال خطورة , وتفاحش الموت في الناس بالجوع وانقطعت السبل وخرجت القرى المجاورة لأسفي وتفرق جل الباقين من الناس في نواحي

[1] بياض في الأصل
[2] بياض في الأصل

مراكش وسوس، وكانوا يموتون في الطرقات, ولما رأى عرب آل غيات وغيرهم خلو البلاد وفناء العباد اشتغلوا بالنهب والسلب فقطعوا السبل وافسدوا الزروع وعاثوا في البلاد حتى كانوا يسلبون الناس بباب أسفي, فكان لهم مع السلطان محمد الشيخ ما أسلفناه من الإيقاع بهم, وفي شعبان من السنة المذكورة تفاحش الموت في الناس جوعا حتى مات أكثر الناس، ومنهم من قصد مراكش وسلا حتى بقيت أسفي وقراها خالية لا أنيس بها، ورباط الشيخ ابن محمد صالح خربت حتى بقيت منه اثنتان وأربعون دارا ما بين من مات أهلها أو ارتحل عنها، وكان عدد دور الرباط اثنين وسبعين داراً وقد كانت الأقوات موجودة لكن الدراهم مفقودة, وأكثر ما كان يأكله الناس اللحم والنبات المعروف بتالكوطة له حب أسود دقيق يباع، وفي رمضان من العام المذكور كان الموت الذريع بالجوع حتى عجز الناس عن الدفن وصارت جثث الأموات تأكلها الكلاب في الطرقات، ومن كان من أهل الصلاح والوجاهة يلقى في بئر أو مطمورة إذا كان ملقيه يخاف الله , أو أدركته الشفقة والرحمة من أجله, وإلا فيبقى ثلاثة أيام أو أربعة حتى تأكله الكلاب, وخلت أسفي من الأنيس بحيث كان يدخل الداخل من باب الشعبة إلى باب البحر فلا يرى أحدا، وفي شوال من السنة المذكورة ارتفعت أثمان الأقوات فوق النهاية فاقتصر الناس على أكل تالكوطة وأيرني، وعدمت الحبوب بالأسواق بالكلية , فكان لا يوجد بها إلا آيرني وتالكوطة وكان ذلك هو قوتهم سنتين, وفي أخر حجة من السنة المذكورة تفاحش الموت في الناس تفاحشا لم يتقدم له نظير وانقطعت السبل وخلت البلاد والقرى وكثرت الخيانة, وقلت الأمانة, وزال الحياء من الناس حتى كان الرجل ينهب متاع أبيه وأخيه فضلا عن غيره من غير حياء ولا حشمة, وجعل الناس يأكلون الدواب والكلاب والقطوط، وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل زاد حتى فني الناس وجعل الباقون يفرون عن موتاهم وأولادهم حتى تعفنت الطرقات وخلت البلاد والقرى بأسرها ولم يبق فيها صاحب روح أصلا ونزل بالمغرب مطر قليل, وفي يوم الاثنين الموافي واحدا وعشرين محرم سنة 63 ه نزل مطر غزير لم ينزل مثله منذ سنة 1057 ه فتراجع الناس وفرحوا وطمعوا في الحياة بعد اليأس منها ثم توالت الأمطار وتزايد الخير وانتعش الناس, وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين منه استرسل نزول المطر ولم ينقطع إلا يوم الثلاثاء بعده فحرث الناس من أهل أسفي بستة أزواج فقط, وكان على كل زوج جماعة, واستبشروا بحسن المستقبل , ولما ظهر صلاح الزرع انخفضت الأسعار وعظمت نعمة الله على عباده , ولقد أحصى من فقد من الرباط فكان العدد أربعمائة نفس ما بين رجال ونساء وصغار وكبار منهم من مات ومنهم من فقد، ولم يبق من الدور عامرا به إلا

تسع عشرة دارا وخربت منه إحدى وخمسون دارا لم يبق بها أنيس ولا حسيس, قال بعض الحفدة من أولاد الشيخ أبي محمد صالح بعد ما سبق ولقد كان معنا رجل من العرب المجاورين لأسفي فذكر لنا أنهم كانوا ثمانين رجلا أبناء رجل واحد فانقرض الجميع عدا خمسة وعشرين منهم , فانظر سطوة الله تبارك وتعالى وحكمه النافذ في عباده, وأجعله نصب عينيك وتأمل كيف خلت البلاد وهلكت العباد بعد العمارة الكثيفة, والأحوال الكثيرة, فسبحان من إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون, ولله في خلقه شؤون، وفي يوم السبت ثالث عشر جمادى الأولى سنة 1063 فكسفت الشمس فيما بين الظهر والعصر كسوفا جزئيا , وفي ليلة أربعة وعشرين منه طلع القمر خاسفا إلى أن حان وقت العشاء فعاد له ضياؤه وفي فاتح سنة 64ه نزل المطر وحرث الناس وانتعشوا وتراجعوا إلى أمكنتهم ورخصت الأسعار وأخصبت البلاد، والحمد لله على حلمه وعفوه.

دولة عبد الكريم الشباني المدعو كروم الحاج

في يوم السبت لما قتل أبو العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان سارع الشبانيون إلى مراكش، فقام بها كبيرهم عبد الكريم ابن القائد أبي بكر الشباني الحريزي المدعو كروم الحاج, فدعا الناس إلى بيعته , فبويع بمراكش وامتنعت أسفي وضواحيها من بيعته وأعمالها، فجهزلهم جيشا وخرج بنفسه من السنة المذكورة فهزموه ورجع إلى مراكش مفلولا, ثم تلافى أمره وبعث لهم ثانيا, ثم لم يزل يردد لهم البعوث, ويجهز لهم الجيوش, والحرب بينه وبينهم سجال إلى سنة 1075 ه التي كان له الظهور فيهاعليهم, فحاصرهم بأسفي حتى اشتد عليهم الحصار وقطعت عنهم المواد وقلت الأقوات وضاع العيال، فأسلموا له البلد على الأمان فدخلها ونقض العهد ونقل الرؤساء لحضرته وصادر أموال آخرين وكان دخوله يوم العاشر من جمادى سنة 1075 ه، فكانت مدة امتناعهم وحربهم إياه خمس سنين وعشرين يوما، ولم يزل عبد الكريم مستقيم الأمر إلى أن توفي في العشرة من المحرم سنة 1079هـ.

أبو بكر بن عبد الكريم الشباني

بويع بعد وفاة والده , واستقام أمره بمراكش وأعمالها إلى أن دخل عليه المولى الرشيد بن الشريف العلوي مراكش في الثاني والعشرين من صفر سنة 1079ه فقتله وبني عمه وأخرج شلو عبد الكريم وأحرقه لأجل غدره بأبي العباس أحمد ابن الشيخ زيدان, وكانت ولايته أربعين يوما.

الحوادث : في سنة 1072 ه كان الغلاء العظيم و عدمت فيه[1] الأقوات بالكلية حتى كان الناس يأكلون الموتى والجيف, وذبح الأطفال وأكلوا, نسأل الله العافية، وكان يعرف هذا العام بعام كروم الحاج , ويضرب به المثل في الشدة , وفي ثامن من شوال منه كسفت الشمس, وفي سنة ثلاث وسبعين ازداد الغلاء واشتد الأمر وتفاحش تفاحشا خارجا عن المعتاد وأكل الناس الموتى والجيف وكثرت الموت بفاس كثرة مفرطة.

الدولة العلوية
أبد الله ملكها وأدام فضلها

دولة مولانا الرشيد ابن مولانا الشريف ابن مولانا علي العلوي الحسني

بيعته : بويع بعد وفاة أخيه مولانا محمد تاسع المحرم فاتح سنة 1075 ه وانضمت اليه جموع أخيه وبايعوه , وحارب الثوار بفاس، فاقتحمها عليهم صبيحة يوم الاثنين ثالث ذي الحجة سنة 1073 ه فحكم السيف في ثوارها حتى أبادهم فتمهدت له البلاد وبويع بها وأفاض على علمائها سجال العطايا وغمرهم بالأنعام، وبسط جناح الشفقة، فسكنت محبة الناس له في القلوب، ثم خرج لأهل الدلاء وقد كانوا تملكوا بلاد البربر وبسطوا اليد على فاس فهزمهم ودخلوا في طاعته ونقلهم إلى فاس وتلمسان , ثم توجه إلى مراكش ففتحها سنة 1079 ه وفي سنة 1081 ه دخلت أسفي في طاعته وفيها دخلت سوس أيضا في طاعته، وخرج إليها بنفسه حتى أطفأ جمرة من بها من الثوار واستراح من غالبهم , ولم يزل يمهد المغرب ويجوس خلال قبائله حتى ملكه قطرا بعد قطر, وبلدا بعد بلد، من واد نون إلى قرب الأغواط من ناحية الجريد, فجدد

---

[1]- زائدة

مراسم الملك بعد دروسها , وجمع كلمة المسلمين بعد تفرق أهلها منذ مات السلطان أحمد المنصور سنة 1012 ه ولم يزل مستقيم الأمر، منصور اللواء، أينما توجه إلى أن لبى دعوة ربه قرب فجر ليلة السبت الحادي عشر من ذي الحجة سنة 1082 ه عن اثنين وأربعين سنة.

آثاره في العلوم والمعارف

كان المولى الرشيد قد أحيا الله به مراسم العلم بعد دروسها , وأطلت به شموسه بعد أفولها، فكان إذا دخل بلدا تعهد مساجدها ومدارسها وسأل عن الحالة العلمية وعن المدرسين وعمن يحضر مجالس الاقراء بها ويفيض على أهل العلم مجال العطايا ويسبغ عليهم كمال الإنعام وما اجتمع مع علماء وقته إلا وحض في مجلسه على نشر العلم وبثه وإتقانه وتحقيقه وتعظيم طلبته. وكان ربما حضر مجالس بعض العلماء كأبي علي اليوسي, وإذا دخل فاسا أول ما يدخل منها للقرويين فيتعاهدها ويرى ما بها من المجالس العلمية, ودخل مرة للمدرسة المصباحية فتلقاه بها أبو علي اليوسي وفقيه آخر فأعطى لكل منهما مائة مثقال، وكان مجلسه مجلس علم تتجاذب فيه أطراف الحديث وتتناشد فيه غرائب الأشعار, وكان يبالغ في إكرام أهل العلم وإعظامهم، فظهرت للعلماء في عصره أبهة, واعتزاز بالعلم , ونفقت سوقه وعمرت المساجد والمدارس بعدما كانت في سلك الداثر الدارس, ولقد جاء في رسالة اليوسي[1] للمولى اسماعيل في الموضوع إن المولى الرشيد رحمه الله أعلى مناره وأوضح نهاره وأكرم العلماء إكراما لم يعهد، وأعطاهم ما لا يعد، ولا سيما بمدينة فاس, فضح من قبله وأتعب من بعده , ولو طالت مدته لجاءه علماء كل بلدة, ومن آثاره فيه مدرسة الشراطين بفاس ولو طال عمره لكان له فيه أعظم أثر في سائر بلاد المغرب رحمة الله عليه رحمة واسعة .

أبو النصر مولانا اسماعيل بن الشريف العلوي

بيعته : بويع بفاس يوم الأربعاء 15 ذي الحجة سنة 1082 ه واجتمع على بيعته أهل الحل والعقد ووفدت عليه الوفود من المغرب حاضرة وبادية إلا مراكش وأعمالها فإنه قام فيها المولى أحمد بن محرز ودعا الناس لبيعته واستقل بها فأوفد إليه جيشا كان اللقاء بينهم بأزمور، ومرت بينهم حروب صعبة هزم فيها مولاي أحمد واعتصم بمراكش، ثم تجهز إليه السلطان حتى خيم على أحد معاطين دكالة وتقدم إلى الشياظمة فأدبهم ونهبت أموالهم عن

---

[1] - أبو علي اليوسي، رسائل اليوسي. ج147/1

آخرها، ولم يبق أحد منهم يذكر مولاي أحمد، ثم جرت بينهم حروب آخرها حاضرة مراكش فأخرجه منها بعد انهزامه، ولم يزل يشغب على عمه إلى سنة 1096 ه فكان قتله كما رأيته بخط القاضي بوخريص منتصف ذي القعدة من السنة المذكورة وقام عليه ولده مولاي محمد العالم وكان ولاه سوسا، فدعا الناس لبيعته وكانت حروب في سنة 1118 ه فجهز له جيشا أمر عليه ولده مولاي الحفيد وترك محلته وأثاثه ورجع لأسفي فاعتصم به خوفا من أخيه وكانت الهزيمة في ربيع الثاني من السنة المذكورة كما في الدر المنتخب, ويؤيده صنيع القادري في النشر[1]، ثم ظفر به وقطع يده ورجله من خلاف , وفي سنة 1123 ه أمر السلطان قبيلة عبدة بالحركة إلى بلاد القبلة وأسقط عنها جميع الوظائف إلا الزكاة والعشر , وفي سنة 1129 ه تمهدت بلاد المغرب بأجمعها وانقطع عنها الثوار , ولم يبق له منازع وصارت الرعية في أمن وأمان حتى كانت الضعيفة أو الذمي يخرج من وجدة إلى وادي نول فلا يسأله أحد والعمال يجبون الأموال والرعية تدفع، وصار أهل المغرب كفلا حي مصر يخدمون ويدفعون في كل جمعة ومن نتج فرسا يربيه، فإذا بلغ أوان الركوب دفعه للعامل ويدفع معه قيمة السرج، ولم يبق بأرض المغرب سارق ولا قاطع، ومن ظهر عليه شيء وهرب يؤخذ من كل قبيلة يمر بها, وكلما بات مجهول الحال بمحلة يثقف بها إلى أن تظهر براءته وإن تركوه يؤاخذون به , وكان قد نزع السلاح والخيل من القبائل ونظم جيش عبيد البخاري أحسن تنظيم وشيد لهم ستة وأربعين قلعة بآفاق المغرب وفرقهم فيها، وكان عددهم مائة وخمسين ألفا، وأدرك الناس من الهناء والأمن والعافية ما لم يكن معهودا إلا ما كان من الأموال الموظفة على الرعية للقيام بشؤون العسكر وغير ذلك من أمور المملكة على حسب ما سبق بيانه, قال في الأزهار الندية : أحيا الله به رسوم الدين بعد دروسه وأضحك به وجه الزمان بعد طول عبوسه، وأخمد به الفتن بعد تأجج نارها، وأحيى به العالم بعد الأخذ بثأرها، فانتعش به كل الأرامل والأيتام، ورسمت فيه أئمة أعلام، ومن حسناته فتح المعمورة وطنجة والعرائش وغير ذلك من الآثار الخالدة والمفاخر التالدة، وقد أفردت أخباره وآثاره بتآليف .

آثاره في العلوم والمعارف

كان المولى اسماعيل قد جدد في دولته العلوم والمراسيم فكانت أسواقه معمورة المواسم, والمعاهد في أيامه به عامرة، ونجوم أفلاكه به زاهرة، بوجود ما

---

[1] - محمدبن الطيب القادري، نشرالمثاني، ج3 / 167 .

أدرك الناس من العافية وحسن النظام, فقام كثير من الناس بالعلم والدين أي قيام , ومدارسه ومعاهده الدينية بمدن المغرب بذلك شاهدة, وهذه مدارس مكناسة الزيتون ومساجدها وغير ذلك من المساجد والمعاهد الدينية . وفي سنة 1105 ه , أمر ببناء مدرسة بأسفي , ومن تعظيمه للعلم وأهله ما رأيته في شرح الإحياء للشيخ مرتضى على قضية هارون الرشيد في صبه الماء على يد الإمام أبي معاوية الضرير تعظيما للعلم ما نصه : ولم تزل سنة الملوك الماضين في إجلالهم للعلم وأهله, وحكى لي من أثق به من المغاربة أن مولاي اسماعيل ابن الشريف جد ملوك المغرب الآن دعا علماء عصره وفيهم أبو الوفاء اليوسي وقدم إليهم الطعام، فلما فرغوا صب على أيديهم الماء، فامتنع أبو الوفاء , فغضب، أي السلطان لامتناعه عن ذلك.

وفاته : توفي رحمه الله يوم السبت الثامن والعشرين من رجب سنة 1139ه .

حالة المغرب في القرن الثاني عشر للهجرة

كانت حالة المغرب على ما وصفنا في دولة المولى اسماعيل من حسن النظام وإدارة الأمور على ما ينبغي, ولما قبضه الله إليه وتولى ولده المولى أحمد المدعو بالذهبي لعب عبيد البخاري في سياسة المغرب دورا كبيرا, وصار أولاد السلطان المولى اسماعيل كالكرة في أيديهم يولون ويخلعون، فعمدوا أولا إلى أركان الدولة الذين تثقل عليهم وطأتهم وكانوا سدا بينهم وبين الفساد فقتلوهم واحدا بعد واحد جاعلين ذلك في اسم المولى أحمد، فانحل بسببه النظام و استخفت الرعية بالسلطان وانقطعت الطرقات وعاث الفساد في المدن والقرى، وخصوصا البربر فكثرت الشكايات بباب السلطان ولا من يرفع لهم رأسا [وهو] معتكف على استيفاء لذاته تاركا الناس يموج بعضهم في بعض، فتفاقمت الأمور وظهرت الشرور وأعضل الداء وأعوز الدواء , وتناهت الآلام فطاشت العقول، والأحلام فتوالت الفتن والأهوال ، وانعكست الأمور والأحوال وسفكت الدماء وخربت البلاد وضاعت الأموال , وتنكست رؤوس الأخيار , وارتفعت رؤوس الأشرار , وسادت الفوضى في كل أفق من آفاقه, ونبغ الفساد والمستبدون في كل ناحية من نواحيه، فانطمس ما في المغرب من الحقائق وانعكست الطرائق, ودرست تلك المعالم, واندثرت بطول الفتن من الدين تلك المراسيم، وساءت الأخلاق ، وانسدت أبواب الأرزاق , حتى كأن الأرض تبدلت بغير الأرض لما طبقها من الفتنة بالطول والعرض، وكأن الناس بالأمس غير الناس اليوم، وعلى الجملة كان المغرب في القرن الثاني عشر بعد المولى اسماعيل عصر فوضى وفتنة، تضعضع فيه المغرب من جميع شؤونه

ماديا وأدبيا حتى منّ الله بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله فأمسك رمقه وأعاد رونقه جزاه الله خيرا.

أبو العباس الذهبي ابن المولى اسماعيل العلوي

بيعته : بويع يوم وفاة والده يوم السبت الثامن والعشرين من رجب سنة تسع وثلاثين ومائة وألف الهجرية بأمر عبيد البخاري, وكانت الحالة على ما وصفنا من استبداد عبيد البخاري وشيوع الفوضى, وغفلته عن أمور الرعية، فخلعوه يوم الثامن والعشرين من شعبان سنة أربعين ومائة وألف.

أبو مروان عبد الملك بن السلطان المولى اسماعيل العلوي

بيعته : بويع في الساعة الرابعة من يوم الأحد عاشر شعبان سنة 1140 ه باستدعاء عبيد البخاري ومكنوه من أخيه، فوجهه إلى تافيلالت ثم إنه فر من الطريق واحترم بزاوية سيدي سعيد أحنصال، فخاب ظنهم في أبي مروان، وأمسك يده عن العطاء، فأغار العبيد عليه، ففر إلى فاس واحترم بضريح مولاي إدريس واستدعوا مولاي أحمد الذهبي ثانيا فبايعوه.

بيعة المولى أحمد الثانية : بويع باستدعاء العبيد في ذي الحجة سنة 1140 ه ففرق الأموال والذخائر، وامتنع أهل فاس عن بيعته، وجاهروا بنصر أبي مروان عبد الملك فنصب عليهم آلة الحصار حتى ضاق بهم الأمر، وسفكت الدماء وقطعت الأشجار، وقلت الأقوات، فأذعنوا لبيعته، ودفعوا له أخاه فسجنه بمكناسة, فأمر بخنقه ليلة الثلاثاء فاتح شعبان سنة 1141 ه وتوفي بعده المولى أحمد في رابع شعبان المذكور ولله عاقبة الأمور.

دولة المولى عبد الله بن مولانا اسماعيل العلوي

بيعته: بويع وهوبسجلماسة، وبلغ فاسا في مهل[مستهل] رمضان سنة 1141 ه ثم دخل مكناسا وثبت قدمه في الملك.

حاله : كان ذا رأي وحزم وإقدام مستبدا برأيه عن وزرائه، قاهرا في سلطانه, كان إذا أعطى أغنى , وإذا صال أفنى، يباشر الحروب بنفسه، وكان سفاكا للدماء مسلطا على العتاة والظلمة وغيرهم , قال أبو القاسم الزياني في البستان[1] : كان أمير المؤمنين المولى عبد الله فيه شدة وبطش، وبسببهما نفرت قلوب الجند والرعية عنه وبقي بدار الدبيبخ لاياتيه أحد مدة من اثنتي

[1] ـ أبو القاسم الزياني، البستان الظريف في أولاد مولاي علي الشريف،تحقيق رشيد الزاوية،ص249

عشر سنة وهم فارون لكثرة ما سفك من الدماء بغير سبب ظاهر، وفي سنة 1147 ه عزم العبيد على خلعه وقتله لكثرة ما سفك من دمائهم إذ قتل من عظمائهم أزيد من عشرة آلاف , فأنذره بعضهم، ففر إلى سوس الأقصى عند أخواله المغافرة.

أبو الحسن علي بن اسماعيل المدعو الأعرج العلوي

لما فر المولى عبد الله بويع بعده في السنة المذكورة أبو الحسن على واستقر بمكناس.

حاله : كان رحمه الله موصوفا باللين والحلم والعقل متوقفا في الدماء، وأسقط عن الرعية الوظائف الموظفة[1] عليهم، عدا الزكاة والأعشار وما جرت به العادة من الهدايا الخفيفة، فستره الله في آخر أمره وأجمل خلاصه، ثم خلعه العبيد لما سمعوا بالمولى عبد الله قد جاء من سوس، فخرجوا للقائه بأبي فكران، فرجع الناس مذعورين وبايعوا المولى محمد بن عربية.

أبو عبد الله بن اسماعيل المدعو بابن عربية

لما رجع الناس مذعورين من فعل المولى عبد الله بايعوا أخاه أبا عبد الله محمد بن عربية وهو بفاس، ودخل مكناسا وفر المولى عبد الله إلى البربر ثم إن السلطان المذكور، لما استقرت قدمه، أطلق أيدي النهب في الأموال وانقطعت السبل. قال صاحب الجيش[2] إن أيامه كانت نحسا ووبالا على المسلمين, وفي رابع وعشرين صفر سنة 1151 ه خلعوه وجعلوا عليه الحراس بداره بجنان حمرية.

المولى المستضيئ بن اسماعيل العلوي

لما خلع العبيد أخاه المذكور أرسلوا له بتافيلالت فبايعوه واستقر بمكناس، وسار في الناس سيرة سيئة، قتل ونهب، وعذب الأشراف وغيرهم، وكان مع ذلك مسيكا بخيلا، وفي رابع عشر قعدة سنة 1152 ه بلغه أن العبيد أرادوا عزله وتولية أخيه المولى عبد الله، فخرج عن مكناسة لنواحي طنجة ومكث نحو شهرين، ثم توجه لنواحي مراكش إذ كانوا بايعوه. وفي آخر قعدة من السنة المذكورة أرسل أخاه أبا النصر خليفة على مراكش وأعمالها، ثم تلاه هو فاستصرخ قبائل الحوز على قتال أخيه، فلم تجبه إلا قبيلة دكالة أخواله وبنو

---

[1]- المفروضة

[2] - محمد أكنسوس، الجيش العرمرم، خ.ع 83 ج، ص138.

حسن، وأما عبدة والرحامنة فكانوا شيعة لمولى عبد الله, فأغارت شيعة المولى المستضيئ على عبدة وقتلوا منهم جمعا عظيما، ونهبوا أموالهم، وكان وبالا على مراكش وأعمالها، وفي الترجمان المعرب لأبي القاسم الزياني[1] أن دكالة قالوا له : إن عبدة شيعة المولاى عبد الله فإن لم تمكر بهم لا يستقيم لك أمر هذا الحوز، فوجه إليهم سبحته وكتب لهم بالأمان فجاءوه بمائة ومعهم كسوة الضريح الشيخ أبي محمد صالح وأولاده، فلما وقفوا بين يديه قتلهم كلهم وأحل خيلهم وسلاحهم لأهل دكالة. وقد كانت بين عبده ودكالة حروب عديدة وتوالي عليهم القحط وانقطعت السبل بهم حتى ذهبت دكالة للولي الصالح سيدي المعطي بن صالح مؤلف الذخيرة ونزلوا عليه شهرا رجالا ونساءا يرغبونه في القدوم إلى بلادهم، فلم يزالوا به حتى جاء ودخل آزمور ودكالة , وكان لدخوله رنة فرح وسرور، فوعظهم وذكرهم وزجرهم عن الخوض في الفتن والحروب، فأجابوا لذلك، فطلب منهم أن يصحبه الفقهاء والشرفاء والأعيان للدخول معه لعبدة فصحبوه، فدخل عبدة ثم أسفي فعقد معهم الصلح بين الفريقين سنة 1153 ه على أن ترك بينهم بلادا تعرف بالمحرومة لا يحرثها أحد، وأطفأ الله نيران الفتنة والشرور وترك أصحابا وأتباعا بأسفي، ورجع جزاه الله خيرا. انظر اليتيمة.

دولة المولى عبد الله الثانية

لما فر المولى المستضيئ تبعه أخوه المولى عبد الله إلى قصبة وادي الزم، وأقام يتجسس أخباره، فاتفق العبيد على بيعته، فبايعوه أوائل السنة 1153 ه . وفي شهر ربيع الأول 1154 ه شعر بفتك العبيد به ففر إلى فاس.

دولة المولى زين العابدين بن اسماعيل العلوي

لما فر المولى عبد الله بويع بعده أخوه المولى زين العابدين، ووفدت عليه الوفود, وكان ذا حلم وأناة, ولم يظهر منه عسف ولا امتدت يده إلى مال أحد، ولقلة ذات يده نقص من راتب العبيد فنكثوا بيعته في منتصف رمضان من السنة المذكورة.

دولة المولى عبد الله الرابعة

لما انحرف العبيد عن أخيه وفر عن مكناس، بايع القبائل وأهل فاس المولى عبد الله، ثم استدعى المولى المستضيئ غوغاء العبيد فكانت بينه وبين أخيه

[1] - أبو القاسم الزياني، الترجمان المغرب، نفس الإشارة في البستان الظريف، ص 293-317.

حروب ومعارك هزم المولى المستضيئ في آخرها، وفر لدكالة أخواله فتبعه المولى عبد الله ونزل بقصبة أبى الأعوان، وفر أهلها مع المولى المستضيئ إلى مسفيوة فتسلطت العساكر على بلاد دكالة فنهب الزرع وخربت القرى وقطعت الأشجار وتقلبت في بسائط دكالة المتسعة فأوسعتها نهبا وتخريبا حتى لم يبق فيها ما تلتقطه الطير. والسلطان مقيم بالقصبة وزمران، وكانوا شيعته فامتدت الأيدي إلى مسفيوة، إفسادا وتخريبا حتى جاءوا مستشفعين إليه بعد ما فر عنهم المولى المستضيئ . ثم جاءه دكالة بنسائهم وصبيانهم فعفا عنهم وأذن لهم بالرجوع إلى بلادهم أواخر سنة 1157ه، ورجع إلى مكناسة فدخلها في ربيع الثاني سنة 1159ه ثم استقر بدار الدبيبغ وضعف أمره وبقي بها إلى أن توفي بها يوم الخميس السابع والعشرين من صفر سنة 1171 ه .

خلافة السلطان سيدي محمد بن عبد الله بالحوز في حياة والده

لما دوخ السلطان المولى عبد الله بلاد الحوز طلبه قبائله أن يقدم بنفسه إلى بلادهم فواعدهم باستخلاف ولده البار سيدي محمد بن عبد الله، فتوجه معهم لمراكش صدر سنة 1159 ه ولما بلغ مراكش نزل بالقصبة واشتغل بحفر أساس داره، فتعرض له سفهاء الرحامنة لما اعتادوا من العيث بأطراف مراكش، فخرج قاصدا اسفي فتلقته قبيلة عبدة وحمير بالهدايا المعتبرة وهم في ألف وستمائة فارس، فاستضافوه ببلادهم , ولعبت الناس على الخيل فرحا بمقدمه وتنويها بشأنه وساروا معه إلى أسفي فتلقاه الأشراف والعلماء من أهل أسفي فنزل بالقصبة بدار المخزن، ففرحوا به وقدموا لديه هداياهم، وتبعهم على ذلك تجار المسلمين والنصارى واليهود وعمر عليه عبدة برجالهم وأعيانهم ودفعوا له أولادهم لخدمته وأوصلوه بكل ما قدروا عليه. قال في الدر المنتخب[1] : ولذلك ما زال الخير في عقبهم. فكان معه في ركابه من عبدة ألف فارس, فهم أول جيش أسست عليه دولة هذا السلطان الجليل، وبهم ابتدأ جمع كلمة المسلمين وأراحهم من الفتن المجحفة بالدنيا والدين، ولما اطمأنت به الدار بأسفي سرح الوسق للتجار بالمرسى فأقبلت عليه المراكب من سائر الأقطار بأنواع السلع والبضائع فتكاثرت الخيرات ونمت البركات, وصارت أسفي من أعظم الثغور التي لها بال، ثم لما ذاع أمره وشاع في الناس ذكره, دخل في طاعته الشياظمة وحاحة وكثر لديه المال، وخدمته الرجال فاستركب واستلحق، فلم تمض عليه ستة أشهر حتى كان يركب في نحو ألف فارس من

---

[1] - ابن الحاج، الدر المنتخب، الجزء الخاص بفترة محمد بن عبد الله، ص 307-308-309/خ.ع 2149 فيلم.

مراكبه وأصحابه، فلما سمع الرحامنة وأهل حوز مراكش ما أدرك عبدة وحمير من العز والرفعة بالسبقية إلى خدمته والشرف بولائه ويمن طلعته نفسوا ذلك عليهم وراجعوا بصائرهم واجتمع أعيانهم وقدموا عليه لأسفي بهداياهم والتزموا له بالطاعة وأظهروا الندامة مما سلف، ونسبوه للسفهاء منهم وحلفوا له أنهم لا يبرحون عن بابه حتى يرجع معهم إلى مراكش ولو أقاموا سنين طويلة متطاولة، فتوجه معهم وركب معه عبدة بألف فارس زيادة على أصحابه، فنزل القصبة ووفدت عليه قبائل حوز مراكش بالهدايا وقدموا له الطاعة وأتاه الرحامنة بأولادهم مثل ما فعل عبدة، ثم جاءه عبيد البخاري حتى اجتمع لديه منهم ألف وخمسمائة ومن عبدة وحمير مثل ذلك ومن الرحامنة وأهل الحوز ألف فارس فجند الأجناد وكتب الكتائب . وفي سنة 1169ه تحرك لسوس فمهد أرجاءه وأباد ما به من الثوار ورجع لمراكش, وفيه[1] تحرك للشاوية إذ كانوا قطعوا السبيل، فأوقع بهم وقتل منهم عددا كثيرا، ثم دخل الغرب ومهد أرجاءه، وكل ذلك في اسم والده المقيم بدار الدبيبغ, ولما توفي والده عبد الله استقل بالمملكة، وكان منه ما سنقصه.

دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي

بيعته : بويع بمراكش رابع ربيع النبوي سنة 1171 ه بعد وفاة والده .

حاله : كان كريم اللقاء، كثير العفو والحلم، حازما، ضابطا، سياسيا خطيرا، عارفا بإدارة الأمور على ما ينبغي، وجد الدولة قد بددها الثوار حتى أشرفت على السقوط والبوار, فشيد منارها ووطد مراكزها وأعادها إلى أوج عزها, وكان عالي الهمة يحب الفخر ولا يرضى إلا بأعالي الأمور، كثير الجود، يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ولقد بذل في فكاك أسارى المسلمين من أهل المغرب مالا عظيما حتى لم يبق في عصره أسير, وفي سنة 1200 48000. ويبعث بالأموال لأهل مكة والمدينة والشام ومصر، يفرق على أهل العلم والأشراف وغيرهم، ويضع الأشياء في محلها، ويعرف مناصب الرجال، يؤدى حقوقهم ويتجاوز عن هفواتهم، ويراعي لأهل السوابق، وكان من الشجعان المذكورين يباشر الحروب بنفسه, ويقتني[2] الرجال ويعدهم ليوم ما، وكان ملوك أوروبا يهادنونه ويطلبون مسالمته في البحر، إذ كانت له فيه السيادة والسيطرة، فكان يسالمهم عدا دولة الموسكو، فلم يسالمها لمحاربتها دولة آل عثمان ، وكان قد ربط بينه وبين تركية أواصر المحبة والمودة، وكان

1- نفس المصدر.

[2] يقصد بذلك شراء العبيد.

يراسلهم بالأموال الوافرة وخصوصا في حال حروبهم، وكانوا هم كذلك يراسلونه بالهدايا والرجال والذخائر الحربية ولشدة الروابط بينهم وبينه كانت الدولتان كأنهما دولة واحدة في الاتحاد سلما وحربا، يدا واحدة على عدوهم, فما أدق نظر هذا السلطان في ذلك، وما أوسع علمه رحمه الله وجزاه خيرا، ولما ثبتت قدمه في الملك أعطى المال وأغدق الأنعام على الجند وعلى الفقهاء والأشراف وطلبة المدارس ومعلمي القرآن والأئمة والمؤذنين والفقراء وأراح العليل وألان الجاني, وسار في الناس سيرة حميدة بَعُدَ العهد بمثلها وتفقد الثغور والمراسي وحصنها ورتب الحامية من الجند في كل ثغر من الثغور وفي سنة 1173 ه كتب وهو بمراكش لتجار أوربا بأسفي بإقامة (مواد أولية) المراكب القرصانية : صواري وانطاقات وحبال وقلوع، فتنافسوا في ذلك وفرحوا به وأتوه بذلك طائعين , وفي سنة 1174 ه سرح لهم وسق (تصدير) الصوف من مراسي أسفي, ثم التفت إلى العمال المستبدين في أيام والده, إذ كان لما استخلفه ولده أعرض عنهم, ولما توطد ملكه انقض عليهم فأودعهم السجون، وصادر أموالهم، منهم القائد أبو الحسن الحاج على بن العروسي الدكالي البوزراري، كان عامل دكالة في دولة المولى المستضيئ فأودعه المطبق[1] عدة أعوام، ثم سرحه وولاه مدينة شفشاون وأعمالها وآخر أمره رجع إلى بلده وتوارث بنوه الرياسة من بعده ولهم آثار بثغر الجديدة, ولما اعتزله عن دكالة استعمل عليها قائد القوات السيد محمد بن حدو الدكالي , وكان عنده بمنزلة الوزير وأضاف إليه تامسنا وتادلا، وكان عاملا على فاس وهو أحد القواد النصحاء، وكانت وفاته سنة 1176ه ومن القواد المستبدين القائد الرضي التادلي وولد المجاطية بتامسنا وعبد الحق فنيش السلوي والحبيب المالكي, انقض على الجميع وأودعهم السجن، ثم عفا عنهم ومنهم من مات في السجن ومنهم من قتل حدا, وفي الثاني والعشرين من صفر سنة 1178 ه صدر الأمر بتحرير الفقهاء والقراء بقبيلة عبدة وعدم مطالبتهم بالوظائف الموظفة[2] على الناس وفي سنة 1189ه كان خروج العبيد على السلطان وبيعتهم لولده اليزيد، وبسبب ذلك انحل نطاق الملك وسرى الفساد في القبائل كلها عربا وعجما لولا حسن سياسته وسداد رأيه في إطفاء غائلة ذلك لانتثر عقد الدولة ولكن الله سلم فعفا عن ولده لما أتاه الأشراف وعفا عن العبيد أيضا , وفي جمادى الأولى سنة 1191 ه استعمل على أسفي وعبدة السيد عبد الرحمان بن ناصر العبدي فوردها ومعه خمسون من عبيد البخاري، وكان

---

[1]- يعني السجن
[2]- الموظفة : المفروضة

على عبدة قبله اثنا عشر عاملا فقبضهم ثم سرحهم وتولى العمل, وكان أحد أركان دولته , استعمله قبل ذلك على قبائل تادلا , ومكث عاملا على عبدة وأسفي إلى ربيع الثاني 1193 ه فأرسل إليه واستعمل بدله القائد ناصر المحياوي والقائد الحاج محمد بزاز العياشي، وكان في ولايته (أي السلطان سيدي محمد بن عبد الله) شديد الشكيمة، وفي فصل الربيع من سنة 1198 ه خرج للوقوف على مدينة الصويرة ولزيارة رجال رجراجة السبعة، فوقف على أضرحتهم ووصل ذريتهم وتفقد أهل العلم منهم وأمر ببناء قبة سيدي واسمين أحد الرجال السبعة, ورجع فمر على رباط شاكر, وأمر بحفر أساس مسجده وتجديده على ما ينبغي.

وفاته : توفي رحمه الله يوم السبت الرابع والعشرين من رجب سنة 1204 ه.

آثاره في العلوم والمعارف

كان رحمه الله من أعظم الملوك أثرا في الدين، وأشدهم حياطة على المسلمين فشد للدين والعلم معالمه الدارسة, وأحيا آثاره الطامسة , فأسس كثيرا من المعاهد والمدارس، وجدد منها في حيز الداثر والدارس، وكان يتفقد العلماء وأهل القرآن في كل بلد يواصل الإكرام ويغدق عليهم العطايا والإنعام، ويحضهم على نشر العلم وإعانتهم والاعتناء بشأنهم, ويكتب بذلك إلى عماله في آفاق المغرب, وقد جال في المغرب وتقصى مدنه وقراه وبث النصائح لأهل كل بلد وعين لأهل العلم النظام الذي يسلكونه في التدريس من كتب الأقدمين، ككتب الحديث والتفسير والمدونة وغير ذلك من كتب المتقدمين, ونهى عن الفتوى والتدريس من الكتب المختصرة حتى كاد الناس يتركون قراءة مختصر خليل وابن عرفة وأضرابهما. وسلك في ذلك مسلك ابن خلدون وأبي إسحاق الشاطبي في عدم جدوى المختصرات لانغلاقها وشدة اختصارها, وكان نظره في ذلك أشد، فإن الكتب المختصرة أشبه بالألغاز فترى الطالب ينفق جل عمره في حل مغلقها, , وإيضاح مشكلها وإبداء احتمالاتها، ثم إنها لم تغن عن كتب المتقدمين فإنها لغموضها احتاجت لشروح, والشروح احتاجت لشروح، فوضع عليها حواش, والحواشي احتاجت لحواش فلا يحقق الطالب الماهر, فضلا عن غيره في النازلة إلا بجمع تلك الكتب، وقد لا تجتمع له وتلك الكتب أدخلوا لها صورا وهمية ربما لا تقع, إنما وضعوها فرضا وتقديرا. وكان مالك إذا سئل عن نازلة سأل هل وقعت وإلا لم يجب، ويقول إذا تكلم الفقيه فيما وقع أعي , كل ذلك وهم معرضون عما هو أسهل من ذلك بكثيروهي كتب الحديث والتفسير والاستعانة عليها بكتب الأقدمين التي في غاية الوضوح إذا استخرج من ذلك ما هو واضح العبارة مع بيان المدرك

والمأخذ فلا بأس به بل هو أنفع للطالب المستفيد من كتب الفروع، المجردة عن الدلائل والكتب المجردة عن الفروع لكنهم هجروا كتب المتقدمين وكتب الحديث، فقصروا عن درجاتهم ونعوا على من يشتغل بالحديث والتفسير قصورا وجلا منهم، وقد تكلم على ذلك ابن خلدون والشاطبي وأحمد بابا السوداني فلينظر. ومنه يعلم دقة نظر هذا السلطان رحمه الله. وقد كان رحمه الله في نفسه إماما عالما جليلا محظوظا من غالب الفنون كالحديث والفقه والتاريخ والتفسير والسير والأدب. وجلب كثيرا من الكتب الحديثية والفقهية من اسطنبول والديار المشرقية، وجمع حوله ثلة كبيرة من الأئمة كان يستقدمهم عليه من البوادي والأمصار ويجالسهم فيفيد ويستفيد. وكانت قد رتبت لمجالسه العلمية أوقات لا تتخرم تدرس فيها كتب الحديث والفقه دراسة بحث واستنباط، وكان يلازمه جملة من العلماء حضرا وسفرا يخوضون معه فيما كان يؤلفه. ويجمعون ما كان يمليه عليهم، وكان يترسم في ذلك خطر أحمد المنصور الذهبي السعدي ويتشبه به في سيرته ويملي على جلسائه سيرته من مناهل الصفا[1] ويعجب بها، وله كتب قيمة بديعة الترتيب منها كتاب الفتوحات الصغرى وكتاب الفتوحات الكبرى وكتاب الجامع الصحيح الأسانيد المستخرج من ستة مسانيد، وقد جمع الثلاثة في الأخير ورتبه على أبواب الفقه، ولعله المسمى طبق الأرطاب فيما اقتطفه من مسانيد الأئمة وكتب مشاهير المالكية والإمام الحطاب . وعلى كل حال فهو من أعظم الملوك في الدين أثرا وأبعدهم في ذلك غورا، تشهد لذلك مدارسه ومساجده القائمة العين بمدن المغرب وبواديه، وذلك مبسوط في كتاب إتحاف أعلام الناس للعلامة البحاثة أبي زيد سيدي عبد الرحمان ابن زيدان العلوي حفظه الله ورحم سلفه

الحوادث: في يوم الأحد التاسع والعشرين من رمضان 1177 ه كسفت الشمس كسوفا جزئيا، وفي الثلث الأخير من ليلة الأحد السادس والعشرين من المحرم عام 1105 ه وقعت بأسفي زلزلة اهتزت لها الأرض واضطربت الأبنية ولحق الناس فزع كبير، فالتجأوا إلى الله وتضرعوا إليه حتى سكنت. وفي ضحى يوم السبت الخامس والعشرين من محرم الحرام سنة 1169ه وقعت بأسفي زلزلةعظيمة انهدت منها الجدران وفاض البحر ودخل للمدينة حتى دخل المسجد الكبير، وخرج الناس منه فارين، كذا بخط بوخريص الأسفي، وفي نشر المثاني[2] أنها كانت ضحى يوم السبت السادس والعشرين منه، ارتجت

---

[1] - مناهل الصفا لمؤلفه أحمد الفشتالي، من أهم مصادر الدولة السعدية خصوصا فترة أحمد المنصور الذهبي.

[2] - محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني، ج4 ، ص 113-114 ، إشارة إلى المناطق التي ضربها الزلزال سنة 1169 هـ.

لها الأرض مشرقا ومغربا وبقيت تضطرب نحو درج وفاض الماء وتصدعت السقوف والحيطان، وجاء من سلا أن البحر فاض وغرق فيه خلائق وتصدعت منها بعض الجبال وانهدمت دور كثيرة ومساجد ومات تحت الردم خلق كثير , وفي وقت زوال يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شعبان سنة 1174 ه وقعت بأسفي زلزلة اهتزت لها الأرض وتحركت الدور والصوامع تحركا شديدا , وفي يوم السبت الخامس والعشرين من المحرم فاتح سنة 1196ه آخر الساعة الرابعة وقعت بأسفي زلزلة اهتزت لها الأرض وانشقت منها المساجد والصوامع وسقط سور وأبراج وطواحين من ناحية البحرودامت نحو ربع ساعة، وحصل للناس روع كبير، وبعد سكونها فاض البحر ودخل للمدينة فارتاع الناس روعا أعظم من الأول ورجع في الحين وأدخل القوارب إلى قعره وفزع الناس إلى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ففرج الله ببركتها ولم يمت أحد، وفي عام 1190 ه كانت المجاعة العظمى بالمغرب وتوالى القحط نحو ست سنين حتى أكل الناس الميتة والجيف , وفني أكثر الخلق ورتب السلطان للمساكين والضعفاء المؤونة في كل بلد وأمر بجلب الأقوات من الأماكن البعيدة وتباع بما اشتريت به، وأسقط عن الناس الوظائف الموظفة عليهم. وفي يوم السبت 26 شوال عامة كسفت ، الشمس كسوفا حتى بدت النجوم وبقيت الظلمة.[ ] [1] ثم انجلت.

نظرة عامة على المغرب

المولى يزيد ابن السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي

قال في الجيش[2] كان المولى اليزيد في صغره تلوح عليه أمارات الخير والنجابة، وكان الناس يلهجون بذكره ويهتفون باسمه لما كان عليه من الكرم والشجاعة ومحبة الشرفاء, وكان والده يفرح به ويقدمه في الأمور العظام ويرشحه للخلافة قبل انعكاس أحواله, ثم ابتلاه الله بمخالطة أهل الشر والفساد، فانعكست أحواله بصحبة الأحداث الذين زينوا له الانتزاء على الملك، فكان منه ما قدمنا من الخروج على والده , ولما توفي والده سنة 1204هـ كان

---

[1] بياض في الاصل

[2] - أحمد أكنسوس، الجيش العرمرم، ص231.

لائذا بضريح المولى عبد السلام وكان والده أوفد له جيشا محاصرا له، فبلغه خبر موت والده فبايعه أهل الجيش ووفدت عليه الوفود من جميع أنحاء المغرب عربا وبربرا ولم يتخلف، عن بيعته أحد، وكانت بيعته بأسفي كما القاضي بوخريص, في غرة شعبان من السنة المذكورة، وكتبوا بيعته وأوفدوها له صحبة وفدهم.

انحراف أهل الحوز عن طاعته

قال صاحب الجيش[1] لما وردوا عليه بعد موت أبيه للتهنئة لم يبال، فتحققوا أنه مصر على المكر بهم وخافوا سطوته فحملهم الخوف على الخروج عليه وذلك بموجب بيعتهم لمولانا هشام, وقد ذكر أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الضعيف الرباطي[2] ما هو أوضح من ذلك في سبب خروجهم عنه، قال: وقد حدثني عنه بمعناه الفاضل المسن أبو عبد الله محمد ابن الفقيه الحاج الطاهر الحفيد الأسفي عن والده، وكان قد أدرك ولاية المولى اليزيد قال إن المولى اليزيد، لما دخل مكناس أوائل جمادى الأولى سنة 1205 ه وجه صاحبه محمد بن عبد الكامل الرباطي بمحلة من العبيد لناحية حاحة وسوس، ونزل على عبدة بقرب أسفي فتلقاه عبد الرحمان بن ناصر بمؤونة الجيش، وكان اليزيد يريد المكر به، فبعث بكتابين أحدهما لعبد الرحمان بن ناصر، يأمر بقطع رأس القائد سالم ولد الدليمي عامل سوس, وكتابا لولد الدليمي، يأمره فيه بقطع رأس عبد الرحمان بن ناصر فنهض عبد الرحمان مع الجيش قاصدا سالما بن الدليمي، فلما وافاه أخرج له القائد سالم الكتاب وأخرج له القائد عبد الرحمان الكتاب أيضا، فتركا بعضهما البعض وقالا: هذا الرجل غدار، فاتفقا عل خلعه ونكث بيعته، ولما أحس ابن عبد الكامل منهما بالفتك به هرب هو وجيشه لأكدير واعتصموا بها مدة، ثم إن القائد عبد الرحمان أخذ يكتب إلى القبائل من أهل دكالة والحوز ويندبهم للخلاف على اليزيد، وكتب للأسبان فسرح لهم وسق الحبوب من مرسى أسفي وطلبهم المدد بالأنفاض والبارود والمال.

بيعة المولى هشام ابن السلطان سيدي محمد العلوي

لما كان ما ذكرنا من أسباب انحراف أهل الحوز عن طاعة المولى يزيد بايعوا المولى هشاما يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الثاني عام 1206 ه، وكانت بيعته

---

[1] - نفس المصدر، ص230.

[2] - عبد السلام الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف الرباطي، دراسة وتحقيق، محمد البوزيدي الشيخي ج375/1.

بمحضر القائد عبد الرحمان بن ناصر والقائد الحاج ابن العروسي الدكالي وقبيلتهما وأهل الحوز ومراكش وبمحضر قاضي مراكش السيد عبد العزيز بن حمزة ومولاي عبد القادر وكافة أهل مراكش ورؤساء الرحامنة وأزمور وغيرهم والقائد سالم ابن الدليمي عامل سوس، فانتظمت له مملكة الحوز بأسره وجمع من هذه القبائل نحو ثلاثين ألفا ونزلوا بمحل قرب وادي الربيع ليصدو مولى اليزيد عن الحوز، وكتبوا للنصراني سلمون الإسباني، وكان صاحب تدبير الإسبان أن يمدهم بالعدة والمال وما يحتاجون إليه، فأجابهم إلى مطلوبهم وأرسل لهم ذلك من مرسى أسفي وصحبة السفير ميشال صورة القائد عبد الرحمان بن ناصر, وأمره ألا يدفع ذلك إلا لصاحب الصورة، وكان القائد بمحل فبلغه الخبر فجاء فقابل السفير ميشال الذي عنده به فإذا هو بنفسه, فنزل السفير ومن معه وصنع لهم مهرجانا ودفع لهم البقر والغنم والسمن والدقيق وجميع ما يحتاجونه، وكان نزولهم بأسفي في فاتح جمادى الثانية عام 1206ه، وكان ما جاءوا به من المدد على ما رايته بخط القاضي السيد الجيلالي بوخريص الأسفي ستة مهاريز للبونب ونحو مائة من المدافع للكور ونحو مائة قنطار من البارود وتسعين قنطارا من الريال الرومي وبآلات المدافع كالكراريط والبونب والكور.

دخول المولى اليزيد مراكش

لما ثبت لديه انحراف أهل الحوز عنه وبيعتهم لأخيه المولى هشام أرسل لهم المولى الحسين ينذر أخاه , فلما جاء قال لهم لا تخافوا من اليزيد فإنه قد ضعفت دونته فتجهز المولى يزيد في جيوشه وقصد الحوز، ولما بلغ وادي أم الربيع في مستهل جمادى الثانية أراد أن يقطع من مشروع أولاد غبراء فصدوه أيضا ثم لمشروع احمدي فورد عليه القائد عبد الله بن محمد الرحماني في شرذمة من الخيل وأرشد للقطع من ناحية بني مسلين، فقطع منها وكان شاع أنه رجع منهزما واحترم بأبي الجعد، فعملت المنتزهات بمراكش وأسفي وأيقنوا برجوعه، ثم إن المولى يزيد قطع الوادي يوم الجمعة ثالث جمادى الثانية وقصد مراكش على حين غفلة من أهلها فلم يرعهم إلا جيوشه قاصدة الأبواب فأغلقوها في وجهه واعتصموا بالأسوار فشدد عليهم الحصار حتى انهد باب اكناوة بكورة مدفع ودخل الجيش، وذلك يوم الجمعة عاشر جمادى الثانية سنة 1206هـ فاستباحها للجند، ودام القتل والنهب أربعة أيام ولم يرفع عنهم سيف القتل والعسف إلا يوم الثلاثاء، فقتل وصلب وأحرق بالنار وقطع الأيدي والأرجل وسمل الأعين، فكان من قتل نحو الألف من الأعيان والفقهاء والشرفاء فيهم القاضي فمن دونه, وكان الحادث عظيما والأمر فظيعا.

حرب المولى هشام لأخيه المولى اليزيد

لما دخل المولى اليزيد مراكش على الوجه المذكور جهز أخوه المولى هشام ووزيراه القائد عبد الرحمان بن ناصر العبدي والقائد الهاشمي بن علي العروسي الدكالي جيشا كثيفا من عبدة ودكالة ومسفيوة وبعض السراغنة وأولاد عامر وأولاد دليم وحمير وأهل أزمور وأهل سوس في عاملهم القائد سالم بن الدليمي وبعض زرارة والشبانة وغيرهم، وقد وجد الزمام الذي كان فيه راتب الجيش فإذا فيه ثلاثون ألفا في الجيش المذكور، وقصدوا مراكش، فخرج المولى يزيد في جيشه فالتقى الجمعان بموضع يعرف بتزكورت يوم الأحد ثامن عشر جمادى الثانية عام 1206ه فاشتد بينهم الحرب وعظم الكرب والخطب وصبر الفريقان وأظهروا من التجلد والإقدام ما لا مزيد عليه، فكان المولى يزيد يباشر الحرب بنفسه ويتقدم إلى الصفوف فيقتل ويرجع بالأسلاب، فانهزم جيش المولى هشام وتركوا الأخبية وأفراكً بما فيه من العيال والأثاث والأموال، فاستولى عليه المولى اليزيد وتبع المنهزمين، ثم صمد له رجل تحت شجرة فرماه برصاصتين وقيل ثلاثة فكر عليه فقتله، ثم ركب محفة إذ لم يقدر على ركوب الفرس ووقع الفشل في جيشه فانتعش إذ ذاك أمر عبدة ودكالة ورجعوا على جيش المولى اليزيد وضربوا في أعقابه حتى قهروه وردوه على عقبه وكانت الهزيمة علي الفريقين وغنم المولى اليزيد من الخزائن والأموال مالا يعد، وأسر نحو مائتين وثمانية وستين نفسا فيهم بعض النصارى الإسبان، وكان عدد القتلى يزيد على الألف رجل ودخل مراكش يداوي جراحاته، فتوفي منها ليلة الخميس الثالث والعشرين من جمادى الثانية عام 1206 ه قال ابن عبد السلام الضعيف[1]: قيل إن أهل مراكش أرشوا صاحب مطبخه على أن يدهن بالحامض ويدخل عليه فشم رائحة الحامض وفشت جراحاته من رائحة الحامض وتوفي رحمة الله عليه. وأما المولى هشام ووزيره القائد عبد الرحمان بن ناصر فإنهم لما رجعوا إلى أسفي لم يأمنوا سطوة المولى اليزيد، فعزموا على ركوب البحر إذا قصدهم، وكانت سفن الإسبان على ظهر بحر أسفي راسية، ثم لم يفاجئهم إلا موته. وقد حدثني الفاضل المسن أبو عبد الله السيد محمد ابن الفقيه الحاج الطاهر الحفيد الأسفي عن والده وكان قد أدرك القضية إنهم لم يتيقنوا موته حتى أتى لهم برأسه، وكان الآتي لهم به رجل من أولاد الحمر الأسفيين أحد المستخدمين في جيش المولى اليزيد، فكافأه على ذلك القائد عبد الرحمان بن ناصر بصلة وافرة . وقد دفن هذا الرأس بموضع سيدي أحمد بن مومن، وعليه كانت مزارة معلومة، ثم لما توفي المولى المذكور دفن معه

---

[1] - عبد السلام الضعيف، تاريخ الضعيف، ج423/1.

في مزارته وأسست القبة بعد ذلك. وقد حدثني غير واحد من ذوي الاسنان[1] العالية ممن أدركوه, وهذا وإن لم يذكره المؤرخون فإنه غير بعيد النظر للحالة التي كانت بينه وبين أهل مراكش، فلا مانع أن ينبشوا عليه ويقطعوا رأسه مكافأة له على ما فعله بهم, ويتقربوا به لمرضاة المولى هشام ووزيره, والله سبحانه أعلم.

البيعة الثانية للمولى هشام

لما توفي المولى اليزيد بمراكش افترقت مملكة المغرب بعده فبويع المولى سليمان بفاس، وبويع أخوه المولى هشام بالحوز وكانت بيعته بآسفي يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الثانية سنة 1206 ه وتبعهم أهل مراكش وغيرهم من قبائل الحوز. قال صاحب الجيش[2] في الاستقصاء كان وزيراه القائمان بأمره صاحب أسفي القائد عبد الرحمان بن ناصر العبدي، وكان غاية في الكرم والجود وبسط الكف , وصاحب دكالة القائد محمد الهاشمي بن علي العروسي الدكالي، وكان ذا شوكة بعصبيته وقومه، فكان هذان القائدان عليهما النقض والإبرام في دولة المولى هشام , هذا بكثرة ما له وعطائه, وهذا بعصبيته وشدة شوكته, فدانت للمولى هشام قبائل دكالة وعبدة وحمير والشياظمة وحاحة وغيرها من قبائل الحوز، واستمر الحال على ذلك برهة من الدهر إلى أن افترقت عليه كلمة الرحامنة وتجنوا عليه بأن قتلوا عاملهم القائد عبد الرحمان بن محمد الرحماني غيلة وخلعوا طاعته وبايعوا المولى حسينا أخاه وزحفوا به إلى مراكش، فلم يرع المولى هشام إلا طبولهم تقرع حول القصبة، فخرج يسعى على قدميه إلى أن أتى إلى ضريح أبي العباس السبتي، وبعد أيام تسلل وسار في حاشية من أصحابه إلى أسفي ونزل على وزيره القائد عبد الرحمان بن ناصر، فأكرم مثواه وأحسن نزله وغدا وراح في طاعته ومرضاته، ودخل المولى الحسين قصر الخلافة بمراكش واستولى على مافيه من الذخيرة والأثاث من متاع المولى هشام ومتخلف المولى اليزيد، فاضطر أهل مراكش إلى مبايعته والخطبة به، وكان ذلك سنة 1209ه، وافتقرت الكلمة بالحوز فكان بعضه كعبدة وحمير ودكالة مع المولى هشام وبعضه مثل الرحامنة وسائر قبائل حوز مراكش مع المولى حسين فاتقدت نار الفتنة بين هؤلاء القبائل وتفانوا في الحروب إلى أن بلغ عدد القتلى بينهم أكثر من عشرين ألفا على ما قيل هذا كله والسلطان المولى سليمان معرض عن الحوز

---

[1]- يقصد الطاعنين في السن.

[2] - محمد أكنسوس، الجيش العرمرم,ص234-235، خ. ع. 965د.

إلى أن ملوا الحرب فصاروا يتسللون إليه إرسالا ويسألونه بالذهاب إلى بلادهم فكان يعدهم بذلك، ولما فرغ من تمهيد الشاوية قدم مراكش سنة 1211 ه فهرب المولى الحسين منه والمولى هشام التجأ بزاوية الشرادي، ودخلت القبائل في طاعته وبايع القائد عبد الرحمان بن ناصر وأرسل البيعة مع الكاتب أبي عبد الله بن محمد بن عثمان. هذا سياق صاحب الجيش وتبعه صاحب الاستقصاء.. وعندي أن فيه اجمالا واختصارا وخلافا في دخول المولى سليمان لمراكش وبيعة أهل الحوز له وها أنا سأسوقه معتمدا على ما وجدته بخطوط ثقات علماء بلدنا وعلى تاريخ أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الضعيف رحمه الله.

البيعة الثالثة للمولى هشام

بويع المولى هشام ثالثا بمدينة أسفي يوم الجمعة عام 1209ه وبويع بمراكش كما رأيته بخط القاضي الجيلاني بوخريص يوم الأثنين سابع جمادى الثانية من العام المذكور ولعل المراكشيين رجعوا عن بيعة المولى الحسين إذ كانت بيعتهم له كرها، ويحتمل أن تكون بيعتهم للمولى هشام هذه صادرة من البعض منهم، وأما بيعه الأسفيين له فإن القائد عبد الرحمان بن ناصر كان إذا أحس بالمولى سليمان آتيا للحوز يبالي بالمولى هشام وإذا أحس به مشتغلا عنه نبذه فلعله جدد له البيعة لذلك أو كانت توثقا من الناس والله أعلم. وفي ربيع الأول سنة ثلاثة عشر حرك المولى هشام مع القائد عبد الرحمان لدكالة فأوقع بالفرقة المنحرفة عنه وهي الغربية فقتلوا وانتهبوا وسلبوا، وفر أهل الغربية إلى الرحامنة . وفي يوم الأربعاء ثاني رجب عام عشر كان قتال بين شيعة المولى هشام والرحامنة، وفيها دخل المولى هشام مراكش واستعمل عليها القائد بوستة، وكان معه في هذه الدخلة القائد الحاج محمد بن علي العروسي الدكالي ووضعوا على أهل مراكش ما أثقلوا به كواهلهم من المغارم ففر كثير منهم من أهل مراكش، وفي ذي القعدة وجه السلطان النصارى "الظاهر سلطان الأسبان" للقائد عبد الرحمان بن ناصر، افتراك نمري بقبة عجيبة, فوجهه لسلطانه المولى هشام بمراكش, وفي هذه السنة كان الخصب كثيرا بالحوز فكانت الحبوب تسوق من مرسى الجديدة وطيط وأسفي وأكدير وفيها[1] سجن القائد الهاشمي بن علي العروسي الدكالي بمراكش, وكان هو وأخوه الحاج محمد على طرفي نقيض في رئاسة دكالة, فكان الحاج محمد بتيط مستبدا بمرساها, والحاج الهاشمي بالجديدة مستبدا بمرساها, وكانت

[1] -أي في هذه السنة.

بينهما فتن, ولما سجن الحاج الهاشمي بأمر من أخيه، وجاء الأخ المذكور من مراكش فاستولى على دكالة, قام في وجهه أبناء أخيه الحاج الهاشمي, وكانت دكالة نصفين, نصفها مع الحاج محمد ونصفها مع أخيه وأولاده, فتغلبت شيعة أخيه عليه وحاصروه بتيط, وضيقوا عليه الحصار حتى غلت أسعار الحبوب واللحم والدقيق وغير ذلك, وبلغت مبلغا كبيرا، وفي يوم الخميس ثالث عشر رجب سرح الحاج الهاشمي من سجن مراكش وجاء لدكالة فاستولى على تيط وأخرج عنها أخاه وحاز ما فيها من ماله وأثاثه والخيل والبغال والأشياء الرفيعة, واجتمعت له رئاسة دكالة بأجمعها, وصار هو صاحب النقض والإبرام فيها .

تخلي المولى هشام وبيعة المولى حسن

وفي سنة 1211ه تخلى المولى هشام عن المملكة حيث أن الرؤساء كانوا مستبدين عنه، فكان القائد عبدالرحمان إذا علم أن السلطان سليمان قاصدا الحوز يبايعه ويرابط به على وادي أم الربيع وإذا علم منه أنه مشتغل بتمهيد قبائل الغرب نبذه فتخلى من أجل ذلك عن الملك لبيعة المولى حسين. ولما علم القائد عبد الرحمان بأن السلطان في هذه السنة قاصدا الحوز بايع المولى حسينا أخاه ليصده به، وكانت بيعته يوم الخميس صبيحة عيد الفطر من شوال سنة 1211 ه بتازروت من عبدة بايعه القائد عبد الرحمان بن ناصر في عبدة وحمير ودكالة مع الحاج الهاشمي والشاوية وغيرهم بمحضر أبي عبد الله محمد بن أبي العباس الشرادي، وكان هو اخر البيعة، ولما بويع أمر له القائد عبد الرحمان بالمال والعدة والعسكر وضرب السكة في اسمه, وكتب له ألا يصل إلى أسفي, وكل ما احتاجه يرسله إليه لأنه كان يعلم منه أنه مهما ثبت قدمه يضرب على يديه ويمكر به لأنه ليس كالمولى هشام الذي كان طوع يده محجورا له فلزم مكانه بتازورت، وامتنع أهل مراكش من بيعته وكتبوا للسلطان مولى سليمان يستحثونه على القدوم إليهم ويعلمونه بيعة المولى حسين, ثم لم يلبث أهل مراكش أن بايعوا المولى هشاما وذلك بأمر القائد قاسم الرحماني ورؤساء مسفيوة وزرارة والشبانة وزمران, وكانت بيعته في شوال من السنة المذكورة، فتجهز المولى الحسين في قبائله وقصد مراكش ونزل بكليز، فأقام ثلاثة يراسلهم في بيعته فاستجاب له محمد الزوين في السراغنة والمنابهة وحربيل، وأجابه أهل مراكش ببيعتهم للمولى سليمان والرحامنة ببيعتهم للمولى هشام، فحاصرو مراكش، فاستغاث المولى هشام بالرحامنة ومسفيوة واشتعلت نيران الحرب بين الفريقين، فانهزم الرحامنة إلى جبل درن ولما اشتد الحصار على أهل مراكش أخرجوا المولى هشاما ليلا وذهب للسيدة

عزيزة بنت ابراهيم محترما، ودخل المولى حسين لمراكش وبايعه أهلها في ذي الحجة من السنة المذكورة، وكتب بذلك للقائد عبد الرحمان بن ناصر بأسفي إذ لم يحضر, فعملت بأسفي المفرجات وأخرجت المدافع ولعب الناس على الخيل، ولما دخل مراكش قبض على الرحامنة واكتسح أموالهم وقبض على التجار وأغرمهم أموالا استعان بها على شأنه، ثم خرج للرحامنة وخالفه المولى هشام إلى مراكش فلما بلغه الخبر رجع إليها, عوده على بدئه فدخلها على حين غفلة من أهلها، ففر المولى هشام إلى أبي العباس السبتي مع الحاج محمد بن العروسي الدكالي, وفي هذه المدة كان المولى سليمان بالشاوية مشتغلا بتمهيدها، فكتب القائد عبد الرحمان بن ناصر إلى المولى حسين يستحثه على المجيىء للمرابطة على وادي أم الربيع ليصدوا المولى سليمان على الحوز، فخرج إلى بتازروت واستخلف على مراكش القائد الحاج الهاشمي بن العروسي في أربعة آلاف من دكالة, وحضره عيد الأضحى بتازورت وبقي إلى أن رجع المولى سليمان إلى الغرب، وحينئذ رجع المولى حسين إلى مراكش, وفي فاتح سنة اثنى عشر كانت رسل المولى سليمان تتوارد على القائد عبد الرحمان بن ناصر في شأن بيعته وجمع كلمة المسلمين، فبايعه وكتب البيعة، أما أهل مراكش فإنهم اختلفوا، فبعضهم أراد المولى سليمان وكتبوا له بالإتيان إليهم وبعضهم أراد المولى حسين، لكن لما تحقق لديهم بيعة القائد عبد الرحمان بن ناصر اتفقوا على بيعه السلطان المولى سليمان, وخلعوا المولى حسين، واجتمعت كلمة المسلمين في سنة 1212 ه والله أعلم.

الحوادث: في نصف ليلة الخميس الرابع والعشرين من ربيع النبوي عام 1205 ه الموافق آخر أكتوبر [ ][1] كانت ريح عاصفة ومطر غزير دخل بسببه سيل عظيم لأسفي والناس نيام، فكسر باب الشعبة وهدم بعض الحوانيت وقلع مصاريعها وأفسد ما فيها من السلع وبلغ إلى الدور القريبة من السوق، ومات من الأنفس ما يزيد على المائة بين نساء ورجال بالدور وفندق القاعة, ووقف على الكل القائد السيد عبد الرحمان بن ناصر وجهزهم وحضر دفنهم بنفسه، ومات من البهائم والدواب شيء كثير، وكانت الخسارة جسيمة. وآخر ليلة السبت السادس عشر منه دخل سيل آخر أعظم من الأول انهد بسببه السور وباب البحر وحل (فتح) الحوانيت ودورا كثيرة قريبة من السوق وأفسد ما في ذلك من الأموال والأثاث وعاث فيها عيثا فاحشا وماتت البهائم, ومن الأنفس

---

[1]- بياض في الاصل

اثنان فقط, وفي سادس عشر ربيع النبوي المذكور دخل سيل آخر هدم حوانيت ودورا.

دولة السلطان أبي الربيع مولانا سليمان بن محمد العلوي

حاله وسيرته: كان رحمه الله فقيها مشاركا إماما ناسكا، عكف على التفسير والحديث والفقه والبيان حتى نال من ذلك البغية. كثير العفو والصفح والحلم والجود والكرم ومكارم الأخلاق في الرياض الديانية، اتفق الناس قاطبة على أنه أحلم الخلفاء من أهل بيته, وأملكهم لنفسه عند الغضب من أن يقع في الخطأ, ومذهبه درء الحدود بالشبهات, وما رؤي في ملوك عصره أعدل منه على ما شوهد عيانا شرقا وغربا، عجما وعربا, وفي الإشراق, كان لا يجالس إلا الفقهاء, ولا ينبرم أمر من أمور مملكته إلا بعد مشاورتهم، ولا يقبل منهم إلا النص الصريح, وكانت سيرته في العمال أن يأخذهم بغير بينة حملا لهم على الظلم إذا اشتكت منهم العامة, وهي سيرة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما , ففي تهذيب النووي قال أبو الزناد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يرد المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة، وكان يكتفي بأيسر من ذلك إذا عرف وجها من مظلمة الرجل ردها إليه، ولم يكلفه تحقيق البينة, لما كان يعرف به من غشم الولاة قبله, ومن عدله أنه أسقط جميع الوظائف[1] والمكوس ولم يبق إلا الزكوات والأعشار, وكان يولي العلماء القيادة، سيدي حمدون بن الحاج على الغرب وغيره ويؤخر الجهال ويجبرهم على ذلك.

بيعته : بويع بفاس لما بلغت أهل فاس وفاة المولى يزيد سنة 1206 ه واجتمعت له مملكة الغرب فقط، وبويع بالحوز أخوه المولى هشام وبفور بيعته كتب للرئيس عبد الرحمان بن ناصر العبدي كتابا مؤرخا برابع شعبان من السنة المذكورة ببيعة أهل فاس له ومن بها من أهل العلم وأهل الحل والعقد، ويأمره بجمع المسلمين ببيعته أيضا، ثم أتبع ذلك ببعث الفقيه محمد بن عبد السلام الفاسي, والسيد علي المغربي, ودخلا أسفي في 8 حجة وحضرا عنده عيد الأضحى فأكرمهم ووصلهم بقنطار من المال، وبعث معهم للسلطان بسرية وافرة واعتذر لهم عن بيعته المولى سليمان ببيعة أخيه المولى هشام, واستقل بقبائل الحوز مستبدا على سلطانه المولى هشام، وكان عنده إلا صورة فقط يصانعه بمرافقة المولى سليمان إذا سمع بقدومه للحوز, وإذا سمع به مشتغلا بسياسة القبائل ينبذه، هذه حاله معه، وفي سنة تسع أرسل القائد عبد الرحمان

---

[1]- يقصد الضرائب

للأسبان هدية فيها سبع وخيل، فظفر بها سفراء السلطان سليمان فأسرتها, وفي الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة 1211 ه أوقع السلطان بالشاوية بعد حرب شديدة انهزمت الشاوية في آخرها فاكتسح أموالهم, وقتل وسبى ونكل بهم, وتقدم حتى نزل على أم الربيع يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذي القعدة, وكان في مقابلته من العدوة الأخرى جيش أخيه المولى حسين والقائد عبد الرحمان بن ناصر ليصدوه عن العبور فلم يعبر وفي مدة نزوله قصده ليلا جمع كبير من دكالة طالبين الشفاعة فظنهم جيش السلطان أنهم أعداء قصدوه للقتال، ومات خلق كثير من دكالة والشاوية وهشتوكة جلهم من الطلبة كالفقيه السيد المكي ابن السيد علي بن ابراهيم وبعض طلبته والفقيه السيد الغازي، وغيرهم وفي يوم الخميس 27 قعدة رجع السلطان إلى الدار البيضاء واستخلف عليها أخاه المولى الطيب ثم رباط الفتح ومكناس وفاس، وفي الخامس والعشرين من ربيع الأول خرج الشريف سيدي علي بن أحمد الوزاني قاصدا أسفي, ورأيت كتابا مؤرخا بالثالث والعشرين من صفر عام 1212 ه من صاحب الدار البيضاء للشريف مولاي التهامي بن عبد الرحمان الوزاني مضمنه أن الشريف سيدي عليا توقف في مروره بدكالة وهم على ماهم عليه من متابعة أخيهم الحاج الهاشمي، فمن الجائز ان تلحقه في المرور بطرق دكالة مضرة ومعرة، وحيث أن السيد عبد الرحمان يطلب وصول الشريف إليه فليبن ذلك على أساس نظره ووافر عقله حتى يأمن الشريف مما تخوفه هذا مضمنه, فبلغ ذلك الشريف سيدي علي بن أحمد إلى أسفي على أحسن حال فالتأمت بسببه كلمة المسلمين وائتلفت بقدومه قلوب المؤمنين وبايع القائد عبد الرحمان بن ناصر، وأهل أسفي وعلماؤه وقد رأيت بيعتهم مؤرخة بالرابع والعشرين من ربيع النبوي عام 1212 ه، ولما سمع بذلك أهل مراكش أخرجوا المولى الحسين فاتح ربيع الثاني وذهب لمسفيوة وبايعوا أيضا المولى سليمان وقبل ذلك بايع أهل الصويرة فاجتمعت كلمة أهل الحوز قاطبة على السلطان المذكور، ولما تم ذلك أوفد القائد عبد الرحمان بن ناصر على السلطان وفدا من عبدة وحمير وزرارة والشبانة وتكنة ومجاط وأولاد دليم وغيرهم من قبائل الحوز, عدتهم مائة وخمسون فارسا مع ولده الش... [ ][1]. بعثهم من الشريف سيدي علي بن أحمد الوزاني والفقيه السيد علي ... الفاسي بعدما أغدق عليهما من النعم وأصحبهما هدية وافرة للسلطان وكان ورودهم على السلطان بمكناس يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الثاني ومكنوه من البيعة فنشط لذلك وفرح بجمع الكلمة بعد الشتات والائتلاف بعد الاختلاف و أرسل ذلك

---

[1] بياض في الأصل.

الوفد لفاس بعدما مكثوا عنده في ضيافته أربعة أيام، فدخلوه يوم الأربعاء السابع والعشرين منه، ومكثوا به مكرمين إلى تاسع جمادى الأولى فخرجوا قاصدين مكناس مع وفد مراكش ثم الحوز وأخذ السلطان في الاستعداد لمراكش فدخله يوم الأربعاء تاسع جمادى الثانية، وتلقته قبائل الحوز والرحامنة والسراغنة وعبدة ودكالة فلم شعثهم, وحقن دماءهم وأطفأ ما كانت أثارته بينهم الفتن من العداوة والبغضاء[ ][1] ولم يلقه القائد عبد الرحمان بن ناصر ثم خرج السلطان من مراكش ومعه من قبائل الحوز عدد كثير, واستركب من أولاد عبدة جماعة كوالدة.[2] رحمه الله، ودخل مكناس يوم الاثنين ثالث رمضان، وحضر معه عيد الفطر رؤساء مراكش وعبدة وأسفي وغيرهم، واجتمعت له مملكة المغرب الأقصى بأجمعه كسوس وسجلماسة وغيرها. وهادته ملوك أوروبا، وفي يوم الخميس حادي عشر شوال بعث ولده مولاي ابراهيم لأسفي ليقرأ العلم عند القائد عبد الرحمان بن ناصر مع الفقيه علي المغرف صحبة وفد عبدة ودكالة وأسفي, وفي يوم السبت الخامس والعشرين من ذي القعدة خرج الفقيه السيد علي بن ارويس من مكناس مع جماعة من رؤساء عبدة ودكالة ليصلحوا بين عبدة ودكالة إذ كانت وقعت بين القائد عبد الرحمان بن ناصر والقائد الهاشمي بن العروسي فتن وحروب، فأصلح بينهم، وفي الرابع والعشرين من رمضان نزل المولى الحسين من مسفيوة وقدم على القائد عبد الرحمان بن ناصر، فلم يتم له غرضه وذهب حيث شاء، ولما بلغ السلطان خبره غضب على أولاد عبدة الذين معه وأرسلهم لأهلهم, وفيه أغارت عبدة على الصويرة.

خروج السلطان لأسفي

كان السلطان المولى سليمان غير آمن من القائد عبد الرحمان بن ناصر لكونه لم يأته واعتذر عن عدم لقائه، فقبل السلطان ظاهرا عذره وأرجأ أمره إلى أن رجع إلى فاس فتجهز إليه وقصده بأسفي ليؤدي الطاعة مباشرة، فخرج في جيش الوداية من فاس الجديد يوم الأحد فاتح قعدة 1213 ه، ولما نزل السلطان بسلا وجه للقائد عبد الرحمان بن ناصر فرسا أنثى هدية من الفقيه السيد علي المغرف ثم قطع إلى الرباط ولما بلغ أم الربيع قدم أمامه القائد عياد في جيش الوداية وقال له : إذا وصلته فأزعجه بالقدوم علينا فإن قدم فأقم أنت باسفي وإن امتنع من القدوم فكاتبنا وأقم هناك حتى نصل إليك, وكان القائد عبد الرحمان

---

[1]- بياض في الأصل.
[2]- بياض في الاصل.

أيضا غير آمن من جانب السلطان فجمع حوله جيوشا عديدة من عبدة وحمير, ثم إن السلطان وبخه فلم يسعه إلا القدوم عليه فركب في محفته وهو مريض وحوله قبائله وأنصاره وكان الجمع بينهما أواخر قعدة 1213 ه بموضع مائة بير بين بلاد عبدة ودكالة، فبايع وأدى الطاعة وألان له السلطان القول لما عرف عذره بالمرض وبصق له على محل الداء من عنقه, قال صاحب الجيش[1] فلما رآه وتحقق صدقه وأنه ما تخلف إلا للمرض وفى له بعده وزاد في كرامته وجازاه بالخير على إيوائه لأخيه مولانا هشام , وقال له : والله ما فعلت إلا الخير، دفعت شر مولا اليزيد على المسلمين, ولآجل ما تحقق من صدقه دخل معه إلى داره بدون سلاح وأكل طعامه من غير اتقاء ما يتقي مثله من أمثاله بعدما نهاه جميع أهل الدولة الذين هم معه عن الدخول معه على تلك الحالة حتى إنهم ما اعتدوا بحياته حتى خرج وقد جدد له على قبائله، وأمر بقبض الواجب الشرعي وقلده أمر المرسى, وعقد للقائد الحاج الهاشمي الدكالي على أزمور والجديدة ونواحيها من قبائل دكالة وقدم له القائد عبد الرحمان بنته فأعطاها لولده مولاي محمد لأنه كان يقرأ عنده بأسفي, وخرج السلطان للصويرة، ثم مراكش وخرج منه يوم الخميس تاسع صفر عام 1214 ه ومر في طريقه على دكالة فوجد عاملها الحاج الهاشمي العروسي الدكالي قد مات بالوباء وكذلك ابنه الطاهر وأخوه محمد بخدمه وعياله وبقيت داره خالية فوجه السلطان من أتاه بما فيها من المال، وفي العشرين من صفر 1214 ه توفي المولى هشام وأخوه المولى الحسين بالوباء بمراكش ودفنا بقبة إزاء قبة الشيخ الجزولي، وفي يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الثانية عام 1214 ه توفي القائد عبد الرحمان بن ناصر بالوباء أيضا مطعونا في عينيه، واستعمل السلطان ولده القائد محمد بن عبد الرحمان على عبدة وأسفي، فهذا سياق خبر دخول الحوز في طاعة المولى سليمان, وأما ما اعتمده صاحب الجيش وتبعه صاحب الاستقصاء فغير عمدة لأن بيعة القائد عبد الرحمان بن ناصر التي قال إنها عام أحد عشر، فهاهي موجودة تعرب عن نفسها فأنها سنة1212 ه ويؤيد ذلك الكتاب الوارد من الدار البيضاء على مولاي التهامي الوزاني في سبب ورود مولاي على الوزاني, وكذلك سياق مولاي عبد السلام الضعيف صريح في ذلك, وقد استقصى وأحاط علما بالقضية، وقد أشار صاحب الجيش آخر كلامه إلى أن سياقه الذي مشى عليه، ثم ما يخالفه من رواية مرجوحة تركها، مع أن تلك الرواية المرجوحة في نظره هي الراجحة في الواقع، والله سبحانه

---

[1] ـ محمد أكنسوس، الجيش العرمرم.ص،244.

وتعالى أعلم[1]. وفي هذه السنة لما تمكن من المراسي أسقط أعمال القرصان البحرية لما تثيره من الفتن والمشاكل بينه وبين الدول , ومدحه أهل أوروبا على ذلك، ومنذ هذا التاريخ طمع العدو في المغرب, وفي ربيع الثاني سنة ستة عشر كانت الفتن بدكالة فتجهز إليها السلطان فوردها, وكان العامل عليها القائد عباس بن محمد بن أحمد الدكالي, والقاضي بها الفقيه السيد محمد بن عبد الله الغربي البكوشي الدكالي أصلا الرباطي دارا, ولا هما في السنة قبل هذه, فأخمد السلطان ثائرتهم ورفع خرق فتنتهم, ومكث أياما ورحل عنها لمراكش فدخلها يوم الجمعة 14 جمادى الثانية، ثم منها للصويرة ورجع لمراكش ثم للغرب على طريق دكالة أوائل محرم سنة 1219 ه، ولما قطع وادي أم الربيع لقيه الشريف الصالح أبو الحسن سيدي علي بن أحمد الوزاني، فأمره أن يأتي أسفي ليصلح عبدة مع عاملها القائد السيد محمد بن عبد الرحمان بن ناصر، .وكانت قبيلة عبدة قد ظنوا أن السلطان يمر بهم فجمعوا له هدية قدرها سبعة قناطر فضة فقبضها القائد المذكور، ولما لم يمر بهم السلطان اجتمعوا وقالوا له أعطنا ذلك المال، فقال لهم هو للسلطان وكان السلطان، ألزمه إياهم عاملا وقال لهم لا يكون عليكم إلا هو، فقاموا عليه لذلك فاحترم بضريح الشيخ أبي محمد صالح حتى أصلح بينهم الشريف المذكور، وفي سنة أربعة وعشرين نهض السلطان إلى مراكش وقبض على عامل عبدة القائد محمد بن عبد الرحمان بن ناصر، وكان سيئ السيرة، فاسد السريرة، وقد بلغنا أنه قطع له يده، فاغتاظ وضرب بيده على حائط، فتوفي عفا الله عنا وعنه , ثم تولى بعده القائد محمد بن الطاهر العبدي الشهلاوي، ثم خرجت عبدة على أخيه خليفة عامر المدعو عمورا، وكان جائرا ظالما وذلك في السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة 1228 ه، ولما تحقق السلطان جوره قبضه في خامس جمادى الثانية،وتولى أسفي القائد محمد بن الكاهية في عاشر جمادى الثانية , والقائد حمان بن أحمد الجرموني في ثامن عشر منه.

ولاية القائد محمد بن عبد الصادق المسكيني على عبدة ودكالة والصويرة وما والاها

كان القائد محمد بن عبد الصادق المسكيني من أشهر عمال السلطان المولى سليمان، كان ولاه عمالة الصويرة وما والاها منذ أول دولته، ثم أضاف إليه عبدة ودكالة في السابع والعشرين من جمادى الثانية سنة ثمانية وعشرين

---

[1] ـ يشير المؤلف إلى الإختلاف الحاصل عند بعض المؤرخين بخصوص تولي القائد عبد الرحمان بن ناصر من طرف السلطان م . سليمان.

ومائتين وألف، إلا أنه أغراه طول مدة الولاية فكثرت الشكاية به لدى السلطان وقامت عليه قبيلة عبدة وحاصرته بأسفي عند زوال يوم الأربعاء الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة 1230 ه، وأغلقت أبواب أسفي ولم تفتح إلا صبيحة يوم السبت بعبدة, وفي الثامن والعشرين نهبت عبدة بقرا لأهل أسفي وساقوا أموالهم وأفسدوا الجنان والزروع وفي يوم الأحد ثالث عشر جمادى الثانية أغلقت الأبواب أيضا، ولم تفتح إلا يوم الخميس سابع رجب وكانت بدكالة قلاقل حيث قام الدكاليون على عاملهم القائد عبد الرحمان بن بوشعيب فعزله السلطان عنهم وأرسله إلى مكناس مكبلا . وأوقع بالخارجين عليه بأن قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وذلك في 29 محرم واستعمل ابن أخته محمد بن الغزواني على دكالة، ووجه القائد عمر بوستة لقصبته فأخذ ما فيها من الأموال والذخائر والذهب والجوهر، وكان قد تأثل أموالا طائلة لأنه كان عاملا على مراكش، ثم قام عليه دكالة وحاصروه بقصبة عبد الرحمان, وأخرجوا المساجين، وفر هو إلى أزمور واستعمله السلطان على عبدة بدلا من الحاج محمد بن عبد الصادق . فورد أسفي عند زوال يوم السبت 16 رجب سنة 1230 ه، وفي اليوم نفسه سافر الحاج بن عبد الصادق معزولا إلى مراكش ليسجن بها، وكتب السلطان المولى سليمان لعبدة كتابا بالتوبيخ ونصه خديمنا القائد عمر بوستة سلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد فنأمرك أن، تقول لعبدة لستُ بناس عهد والدنا وأسلافنا رحمهم الله فيكم وخدمتهم ومحبة أسلافهم, إن ضيعوا وما رأيت والدي أكل عبدة ولا أباحهم ولا جدي ولا أبوهُ وإنما رأيتهم مع عدم حضوري وأهل الغرب وأردت أن أجعل لهم ما يرتدع به سفهاؤهم وما قط أكلت قبيلة بلا حضور سلطان حتى أشراكة أخوال والدنا رحمه الله ما أمر بأكلهم حتى حضر، فليحذروا سخط الله ولينظروا كيف لم يراع والدنا رحمه الله أخواله لما خرجوا عن الطريق لقول الله تعالى : "لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباؤهم أو إخوانهم أو عشيرتهم[1]" وهب أن عبد الصادق ظلمهم يرفعون أمرهم إلي فإن أنصفتهم وإلا فالشرع بين، ومن لم يرضه كافر ومن ظلم لا يظلم ومن جار عليه عامله فلا محل له أن يحارب ولا أن [illegible] من العامل لقوله صلى الله عليه وسلم" أدوا الذي عليكم وأطلبوا الله الذي لكم", وقوله صلى الله عليه وسلم : "إن ضربك فاصبر وإن أخذ مالك فاصبر وإن شتمك فاصبر, واقطعهم بالحجة الشرعية وعرفهم أنهم استوجبوا الهلاك لولا غفر الله لصنيعهم وهذه

---

[1]- سورة المجادلة ، آية 22

مدة ما شاع عنه أحد ولا ذاع ضرر ابن عبد الصادق لهم ولا قامت القبيلة كلها لضرر عام فاش, وإنما سفيه جمع سفهاء كلهم مباحون المال والدم وصار يدور على صلحاء القبيلة وذوي الأغراض والثروة ويجبرهم على القيام للفساد، هذا هو مبدأ أمرهم وجعل معهم الحساب، ثم قبض منهم ابن عبد الصادق في غير حق وكم قتل من نفس بغير حق لتكون لنا الحجة على العمال في عزلهم وإما إن كان كل عامل أراد تنفيذ الأحكام الشرعية وجريان الذاتية على من وجبت عليه يقوم سفيه محارب باغ, عليه ويجبر القبيلة على الفساد ما بقيت ولاية ثابتة لأحد يراقب الله ويريد الحق وما بقيت أحكام الشرع تجري على أحد وصار الولاية والعزل بيد الفساق لا بيد السلطان، فتخافهم الحكام و يفسد الدين وأقطعهم بالحجة وقل لهم جميع الأيمان تلزمني إن لم أحكم فيهم بما أنزل الله حتى أخرج من وسطكم , ولم أرد ولايتكم لشبع بطني ونيل شهوتي من الدنيا، بل قبلتها لأكون رحمة للضعفاء، أصرف عنهم العذاب العام إن شاء الله وسوط عذاب على الظالمين أنزل بهم ما يستحقون بحول الله. فإن قبلتم وإلا انصرفت عنكم، والسلام في 23 رجب عام 1230هـ وأمر القائد بمراقبة دكالة أيضا، ثم سافر القائد بوستة يوم الاثنين سادس عشر رمضان من العام المذكور للقاء السلطان بالغرب في أربعمائة فارس من عبدة ودكالة واستعمل غيره.

ورود السلطان مولاي سليمان على عبدة ودكالة

ولما وقعت هذه القلاقل بين الرعية وعمالها تجهز السلطان في جيوشه وقصد الشاوية فأوقع بهم، فقتل ونهب واكتسح الأموال لخروجهم عن الجادة، ثم قصد دكالة وعبدة لثوراتهم على عمالهم، فقطع وادي أم الربيع يوم الأحد السابع والعشرين من شوال سنة 1230 ه ونزل مكرس وسط دكالة، فأتاه دكالة بصبيانهم طالبين شفاعته، فقبض رؤساء الفتنة.[ ][1] ووظف عليهم خمسمائة من الخيل وقيل ألفا أعطاها لبني حسن واستعمل عليهم العباس ابن المزوار ورتب أمورهم، وتقدم لعبدة فبلغهم يوم الخميس فاتح قعدة فتلقوه بالصبيان طالبين شفاعته كأهل دكالة، فعفا عنهم ووظف عليهم الخيل كدكالة, ثم توجه إلى مراكش فدخله يوم الثلاثاء سادس قعدة و سرح ابن عبد الصادق واسعمله على فاس , وسرح القائد عبد الرحمان بوشعيب وأوطنه مكناس, وفي سنة أربعة وثلاثين قصد السلطان برابرة آيت ومالو بجيوس عديدة تبلغ 70 ألفا فيها من عبدة وحمير ما يقرب من ألف في عاملهم القائد محمد بن الطاهر الشهلاوي, وبهامات, ولكثرتها وعدم نظامها وتخاذل رؤسائها انهزموا هزيمة

---

[1]- بياض في الأصل

شنيعة وأسر السلطان وذلك يوم 28 رجب ثم انطلق وقد فلت هذه الوقعة من غربه واستخف به العبيد وغيرهم من الجند وسرى الفساد في الرعية في الحواضر والبوادي وساءت الحالة وكانت أسفي قد أخذت حظا وافرا من الفوضى والفساد، فانقسم أهلها طائفتين: أتباع القائد الحاج عبد الرحمان الجرموني وخليفته بأسفي الحاج عبد الله الشقوري وغيرهم, والعمرانيين أتباع الفقيه القاضي القائد ابن العربي عمران وله أتباع, فكان هذان العاملان كل منهما يتولى زمام الأحكام ويقبض على الآخر وبين الفريقين فتن تقاطع وفوضى, ولم تزل الحالة من سيئ إلى أسوأ حتى توفي السلطان رحمه الله، وفي رابع قعدة سنة 37 كانت الوقعة بينه وبين الشراردة بحوز مراكش، فانهزم جيش السلطان أيضا وأسر السلطان، وقام الشراردة بطاعته ولم يستخفوا به كالبرابرة، فكانت مما أوهنت جانبه، ثم تلتها قضية الصالحة الواردة من الصويرة فتعرض له ذو بلال ونهب أكثرها الشياظمة وعاملهم القائد علال بن محمد الآتي بها فكانت آخرقضية قضيت عليه رحمه الله.
وفاته : توفي رحمه الله ليلة الجمعة رابع عشر ربيع النبوي سنة 1238 ه بمراكش ودفن بضريح جده مولاي علي الشريف بباب إيلان .

آثاره في المعارف

كان رحمه الله من نوادر عصره في الشغف بالعلم والتعطش، وكان يبذل الأموال لأهله, ويغدق النعم على متعاطيه، وخصوصا مختصر خليل [الذي] كان يخص حفاظه بالعطاء الجزيل بعد أن يختبرهم في حفظه, ولقد أمر باختبار من يحفظه من دكالة فوجد في أولاد بن المنحوت بأولاد فرج أربعين نفرا من بيت واحد فأكرمهم وبالغ في الإنعام، وقال لا عليكم أن تختبروا أحدا من هذه القبيلة, وفي الرياض الربانية[1] أنه كان يعظم العلماء ويرفع مناصبهم على سائر رجال الدولة ويجري عليهم الأرزاق، ويخلع عليهم الخلع الرفيعة ويعطيهم العطايا الجسيمة كالدور المعتبرة والضياع المستقلة . ويحسن إلى من دونهم في الرتبة من المدرسين وطلبة العلم ويؤثر المجتهد منهم [ ][2] وتضعيف الجراية حتى تنافس الناس في وقته في اقتناء العلوم والامتحان لصناعته لاعتزاز العلم وأهله وسعة أرزاقهم وصلته لهم، ويخص أولاده وبني عمه على العلم، ومما يدل على كمال فضله وحسن خلقه للعلم وأهله ، زيارته لأبي عبد الله التاودي بن سودة بداره, وأبي زكرياء يحيى الشفشاوني كذلك

[1] - جعفر الكتاني، الرياض الربانية في الشعبة الكتانية، خ،ع 497ك ،ص378.
[2] - بياض في الاصل

وأبي الفيض حمدون ابن الحاج كذلك، ووصله بألف مثقال لما استدعاه لداره، وعيادته سيدي أحمد بن التاودي وسيدي عبد القادر بنشقرون لما مرض وزاد بأن ضمه إلى صدره وقال لا عدوى ولا طيرة، وحضر جنازة الثاني راجلا، وحشره في قبره وسوى التراب عليه بيده، أخذ عن ابن شقرون والهواري والطرنباطي وسيدي حمدون بن الحاج, وسيدي عبد الرحمان الخبيب والطيب ابن كيران, والتاودي بن سودة وغيرهم وفي الأشراف للقاضي ابن الحاج[1] أنه كان لا يجالس إلا الفقهاء , ولا يبرم أمرا من أمور مملكته إلا بعد مشورتهم ولا يقبل منهم إلا النصح الصريح, يعني غالبا, ويبالغ في الثناء عليهم وتعظيمهم وطلبتهم ومودتهم وتفقد أحوالهم وأحوال كل من له صلة بهم. ولم يكن نهوضه العلمي قاصرا على بلد بعينه، بل كان أينما حل يسأل عن أهل العلم، ويجالسهم ويواصلهم بالإكرام، وربما ذهب إليهم بنفسه , وكان إذا حل بأسفي يجتمع بالفقيه العلامة أبي العباس أحمد بن محمد المقدم الأندلسي الأسفي، وكان يجل قدره واختصه بقراءة أولاده سيدي ابراهيم وغيره، وكذلك بالبوادي يتفقد من بها من أهل العلم ويونسهم ويحضهم على العلم وبثه ويواصل إكرامهم، وله من الآثار العلمية عدة كتب كحاشية الخرشي في مجلدين وتعاليق على الموطإ وشرحها للزرقاني والمواهب وغيرها , وعناية أولي المجد بذكر آل الفاسي ابن الجد, وتآليف في التجمير بالقسط أي العود في نهار رمضان، وله فهرس جمعه له كاتبه أبو القاسم الزيني سماه جمهرة التيجان في أشياخ مولانا سليمان[2] وخطبته الشهيرة في ردع الناس عن المواسم وما هبت به رياح الأهواء في عصره, وأمر الخطباء أن يخطبوا بها في جميع إيالته، وبالجملة فمحاسنه كثيرة وآثاره أثيرة رحمه الله ورفع درجته.

دولة المولى عبد الرحمان بن هشام

بيعته: بويع بولاية العهد من عمه المرحوم المولى سليمان بفاس في السادس والعشرين من ربيع الأول سنة 1238 ه وبمراكش يوم الأحد الواحد والعشرين منه وبأسفي في خامس جمادى الأولى، وقد وقفت على بيعتهم له مؤرخة بالتاريخ المذكور, فوفدت عليه الوفود من جميع أقطار المغرب، ولم يتخلف عن بيعته أحد حتى برابرة آيت ومالو.

---

[1] ـ القاضي ابن الحاج، الأشراف. نفس المعلومات جاءت عند الكتاني في النص السابق.

[2] ـ أبو القاسم الزياني، جمهرة التيجان في أشياخ مولانا سليمان مخطوطة بالخزانة العامة للرباط، تحت رقم 1220 ك.

حاله : لا نذهب في الإعراب عن حاله بالقارئ شوطا بعيدا, ولا ناتيه إلا بشهادة عمه المرحوم المولى سليمان الذي جعل له ولاية العهد دون أولاده الذين هم أفلاذ كبده حيث قال في ولاية العهد له : إنه صار المدح للتعريف واجبا ولاظهار حال الرجل لينتفع به , اليوم ما أظن في أولاد الجد مولانا عبد الله ولا في أولاد والدي سيدي محمد رحمه الله ولا في أولاد أولاده أفضل من مولاي عبد الرحمان بن هشام ولا أصلح لهذه الأمة منه، فإنه حفظه الله لا يزني، ولا يخون ولا يسفك الدماء، ولا يقدم على الأموال بغير موجب ولو ملك المشرقين، لأنها عبادة صوفية، يصوم الفرض والنفل ويصلي الفرض والنفل وإنما أتيت به من الصويرة لفاس ليراه الناس ويعرفوه, وما أخرجته من تافيلالت إلا لإظهاره فإن الدين النصيحة, فإن اتبعه أهل الحوز صلح أمرهم كما صلح سيدي محمد جده وأبوه حي , ويغبطهم أهل الغرب ويتبعونهم إن شاء الله , وقد أرى أن من اتبع عبد الرحمان بن هشام اتبع الهدى والنور، ومن اتبع أولاد اليزيد اتبع الفتنة والضلالة والفجور, وأوصيكم وأحذركم عباد الله: إياكم وأولادي وأولاد اليزيد ليس فيهم رجل رشيد، كما حذرني والدي رحمه الله, وقد رأى من اتبع اليزيد واتبع أولاده كيف خاض الظلمات ونابته دعوى والدي وخرج على الأمة وأما أنا عباد الله ما كتبت هذا حتى ضعفت قواي ووهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا حتى ختم الله لي وللمسلمين بلا إله إلا الله وجعلها آ خر كلامي، وكان منه ما توسمه رحمه الله، فإنه نهض بأعباء الدولة بعدما اشرفت على الهرم، وأصلح الله به أمر الناس بعد الفساد, وكانت سياسته في العمال على خلاف سياسة عمه لا يأخذ العامل إلا بالحجة ويحمل الرعية على الظلم والفساد والخروج عن الجادة حتى يثبت ظلم العامل بالحجة وبذلك استتب له الأمر وصلح الحال، فإن فساد العامل ليس لفساد الرعية , ضرورة أن فساد الفرد أخف وأهون من فساد الأمة و لذلك قال مالك وسفيان الثوري: إمام جائر سبعون سنة خير من فتنة سيئة . فكانت هذه السياسة مما ارتدع بها اولو[ ] [1] الذين يثيرون الفتن ويقومون على الولاة فيقع بسببهم من الفساد أكثر وأشنع من فساد الولاة الجائرين، مع كون ذلك لا يتخذ قاعدة مطردة، والله سبحانه أعلم، ولما ثبت قدمه في الملك، ووفدت عليه وفود المغرب، خرج يتفقد أمر الرعية، فمر بقصر كتامة وبلغ الرباط ووافته قبائل الحوز هناك ومن جملتهم عبدة وأهل أسفي, وكانت أسفي على ما وصفناه من الانقسام إلى طائفتين , طائفة العمرانينن، رئيسهم الفقيه السيد العربي عمران, والحمانيين , رئيسهم القائد الحاج حمان بن أحمد الجرموني، فكانت بين

---

[1] بياض في الأصل

الفريقين من الفتن والتنازع على الرئاسة مع قدم الوازع ما انتشر به من الفساد في هذه المدينة، وكدر الحالة واكفهر به جوها فوفد الجميع على السلطان برباط الفتح عصر يوم الثلاثاء الرابع عشر من شوال سنة 1238 ه وفي يوم الجمعة مثلوا بين يديه فوبخهم على سوء صنيعهم، واستعمل عليهم القائد حمان الجرموني فتنازع في ذلك أهل أسفي والبحاثرة وغيرهم من سماسرة الفتن وغزاة الفساد، فقتل أربعة في عبدة، ورحل الحاج عباس المطاعي والحاج ابراهيم كوار الأسفيين، الأول إلى مكناس والثاني إلى تطوان وكانا ممن خاض عباب تلك الفتن وبقيا إلى أن استتب الأمن ورجعت الحياة إلى مجراها، فوقعت الشفاعة فيهما فرجعا إلى آسفي.

وأسند ولاية القضاء إلى الفقيه السيد الجلالي بن القاضي محمد بوخريص وأخر عنها الفقيه السيد عمران الذي كان قاضيا قائدا محتسبا ورجعوا يوم الثلاثاء الموافي عشرين قعدة، ولما أشرف على الحوز رأي أنه لا بد من مزيد استعداد لإخضاع قبائله التي طالما خبت ووضعت في الفتنة والثورات آخر الدولة السليمانية، فرجع لفاس ريثما جدد أمره ثم رجع فمر بالشاوية فرتب أمرها وولى عليها، ثم تقدم إلى إلى دكالة فانتقم من رؤساء الفتنة وأراح العباد منهم بالقتل وولى عليهم القائد عباس المزوار البوزراري. وأوقع بعرب العونات ثم توجه لمراكش ومكث به يرتب الأمور ويتفقد القبائل إلى سنة 43، فتوجه لفاس أيضا وفي سنة 43 التفت السلطان إلى إحياء القرصان البحرية، إذ كانت معطلة منذ سنة 1213 ه فخرج منتصف شوال من مكناسة وتطوف على المراسي البحرية من تطوان إلى أسفي فأعادها إلى ما كانت عليه ولما خرجت صادفت سفنا تجارية للنامسا فقبضوا عليها وأسروها غنيمة، وكانت هذه الواقعة سببا في إعراضه على الغزو في البحر لما يؤثر بينه وبينهم من الخصومة حتى كاد عقد المهادنة ينفصم بين الطرفين سيما أن الإنكليزيين والفرانساويين كانوا ينقمون على الدولة المغربية ما تأتيه قرصانها من الأعمال المخالفة للنظام الدولي، ثم انعقدت بين الدولتين معاهدة على شروط مضمنها المخالطة في البيع والشراء مع الأمان والاحترام، وذلك بواسطة الإنكليز سنة 1246 ه وفي أوائل رجب سنة 45 ورد عليه بمراكش قنصل النكليزموكدا عقود المهادنة والصلح بين الطرفين، وماحيا ما كان دار بخلدهم من الوسوسة والزور الذي كانت من أجله تتفاقم الأمور. وعلى إثره قدم سفير الدانمارك راغبا في حط بعض الضريبة الموظفة[1] على بلاده ، دولتهم،

---

[1] ـ الموظفة: المفروضة

مدعيا أن دولة السويد استولت لهم على ثلث مملكتهم وأنه سرق لهم بيت المال، ففعل وأجابها إلى ذلك، وفي يوم الخميس السادس والعشرين من رجب سنة ستين ومائتين وألف هجم أسطول فرنساوي على ثغور الصويرة بسبب انفصام الصلح الذي كان قبل، فرمى عليها الكور والبونب آلافاً حتى هدم صقالتها وكان رئيس الأسطول الفرنسي بيجونوبيل الاميرال تقدم إلى الجزيرة التي فيها المساجين أصحاب الجرائم فأسرهم ولم يدخل إلى الصويرة، فدخلها الشياظمة وغيرهم وانتهبوا الأموال وسفكوا الدماء وهتكوا الحريم، ولقد حدثني بعض أصحابنا عن والده أنه دخلها أتيا من حاحة بعد ثلاثة أيام من الواقعة فوجد الناس بها ورأى رجلا يقطع يد امرأة ميتة على سوار بيدها, وبهذا نعلم قدرما بلغه المسلمون من الانحطاط وسوء الأخلاق وخرج أهل الصويرة إلى البادية في حالة سيئة، فكان من خرج لحاجة الغالب عليه السلامة لما كانت عليه من الضبط بواسطة عاملها الحاج عبد المالك بيهي، ومن خرج للشياظمة نهبوه وفضحوه، ولذلك نكب السلطان عاملهم القائد سليمان جيري، الحاجي اتهاما له على مواطأة قبيلته على ذلك أو تراخيا منه في الأحكام، ولما أقلع الأسطول بالمساجين تراجع الناس واستدرك السلطان ذلك بأن أمر عمال حاحة والشياظمة برد الناس إلى منازلهم ووجه لهم المال أصلحوا به شأنهم، وفي يوم الاثنين ثالث شعبان عقب ذلك خرج أهل أسفي لما خامرهم الفزع إلى البادية, وكان القائد محمد بن عزوز الأسفي وغيره من الأعيان يجتهدون في منع الناس من الخروج وإعادة السكينة والأمن, ورجعوا يوم السبت 19 شعبان وبعضهم رجع أوائل رمضان، وهذا دليل على ما كان عليه المسلمون من الجزع والفزع الذي لا سبب له إلا الأوهام والجبن الذي داخل أوساطهم وخامر عقولهم، وقد عززت ذلك فرنسا بضرب طنجة فصبت عليها زلزال الكور حتى هدت أركانها, ولم تكتف بتلك التأديبات حتى جهزت جيشا للحدود خرج إليه الخليفة سيدي محمد بن السلطان المولى عبد الرحمان في جيش كثير العدد قليل العُدد فاقد لكل نظام، فوقعت عليه الهزيمة بتخاذل الرؤساء وتنافسهم في الرئاسة، وتركوا وراءهم الأخبية وما فيها من مال وأثاث وكان هذا الحادث المهول على الساعة العاشرة يوم منتصف شعبان من السنة المذكورة، فنكل السلطان بأولئك العمال وحلق لحاهم ثم وجه عنايته لحشر الجيوش والاستعداد للحرب لكن تداركت ذلك فرنسا فأرسلت تطلب الصلح، فانعقد بينهم على شروط منها ارتحال الجيوش المحشودة بوجدة من قبل السلطان ومنها إجراء القصاص على الذين تعدوا على الحدود ومنها إخراج الأمير عبد القادر محيي الدين من إيالة السلطان، ومنها حدود فاصلة بين البلادين، فقبل السلطان ذلك، وكان الذي تولى عقد الصلح المرشال بوجو في خيمة له بسيطة ليس فيها

تطبيق بالحرير، خالية من الصواري المزركشة، فاستغرب الوفد المغربي ذلك خلاف ما يعهدونه فتصدى لهم، وقال لهم قولوا لسلطانكم إن الرجال بالحديد لا بالحرير، فليكثر من الحديد وتنظيم الجنود إذا شاء أن يدوم له الملك، وقد تم ذلك سنة 1261 ه الموافق 18 مارس سنة 1845م ولما انعقد الصلح أطلقت فرنسا الأسارى المأخوذين من جزيرة الصويرة، فأرسلتهم بمركب وانزلوا في الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة 1261 ه، وكانت هذه الواقعة سببا في امتناع دولة الدانمارك والسويد مما كانا يؤديانه كل سنة للدولة المغربية من الغرامة في مقابلة عدم تعدي قرصانها عليهما في البحر، وامتنع غيرهما من وظائف أخرى وتقهقرت، بسبب ذلك دولة المغرب الأقصى، وانحطت عند دول أوروبا انحطاطا سافلا وكثر تردد سفنهم للمغرب في سبيل التجارة، وانفتح لهم باب ثان كان مسدودا قبل وابتدأ تداخلهم في سياسة المغرب.

خروج الخليفة سيدي محمد بن السلطان المولى عبد الرحمان للبحاثرة من قبيلة عبدة

كانت هذه القبيلة من عبدة متوليا عليها القائد محمد بن الغنيمي معظم دولة السلطان المولى عبد الرحمان، وكان من أفضل العمال وأحسنهم سيرة ودينا ولما عزل وتولى عليهم مكانه القائد فضول بن حمان، فورد القائد الجيلالي بن العواد، فقرأ عليهم منشور الخليفة المذكور بتوليته يوم الأربعاء خامس شوال سنة 1261ه ودام الحال على ذلك نحو سنتين، ثم تفاقم بينهم الأمر وأجمعوا على الخروج عنه سنة 1264ه، فجمع أخواله الجرامنة وغيرهم ممن في طاعته حتى اجتمع له بشر كثير ونزل بهم اسفي في سابع ربيع النبوي، وفي صبيحة الغد صبح أولاد سلمان وانتهبوا ما وجد في طريقه من مال لأهل أسفي وغيرهم، فوقعت بينهم حرب باشرها العامل المذكور بنفسه, وكان من أهل الإقدام فأصيب في يده برصاصة كسرتها يوم الثلاثاء تاسع ربيع النبوي، وفي يوم الجمعة ثاني عشر ربيع النبوي، خرج جماعة من أعيان أهل أسفي بأمر من عاملهم القائد محمد بن عزوز بقصد الإصلاح بينهم، فلم يجدوا محلا للصلح وتفاقم الأمر فكتب القائد فضول إلى الخليفة سيدي محمد ابن السلطان المولى عبد الرحمان فتجهز في جيشة من مراكش وكتب لعمال دكالة كالقائد محمد بن ادريس السبيطي والقائد محمد بن مهدي البوعزيزي وغيرهم حضروا معه, ولما سمع البحاثرة بذلك انحازوا للبحر شمال أسفي وتحصنوا بالكهوف، ولما قرب انجاز الحرب كتب لهم الخليفة بواسطة الشرفاء الغنيميين ينعى عليهم سوء فعلهم ويعظهم ويأمرهم بالرجوع إلى الطاعة فلم يفعلوا وازدادوا نفورا، فتقدم إليهم بالساحل واكتسح ما وجد من الأموال وقتل رؤوس

من ظفر بهم منهم، وكان اللقاء يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الثانية، فقاوموا الجيش شر مقاومة، ومن الغدو وهو يوم الجمعة صبحهم على حين غفلة منهم إذا ظنوا أنه لا يحاربهم يوم الجمعة، فأوقع بهم وقعة شنعاء وشرد بهم من خلفهم، وقتل وسبى ونهب، وبعد هذه أذعنوا للرجوع إلى الطاعة، واصطلحوا مع عاملهم، وكان العامل صاحب غيرة فأخذته الحمية أيضا لما رأى العبيد قد سبوا النساء، فلم يرض ذالك فأوعز إلى إخوانه الذين في طاعته بإعانتهم فوقع الصلح على ذلك حين رأوا منه غيرته عليهم وأذعنوا لقبوله، فطلب من الخليفة رد السبي فردهم وكساهم وخمدت فتنهم، وأقلع الجيش عنهم ونزل بالعذير من أسفي زوال يوم الاثنين ثالث رجب عام 1264 ه فاحتفل الأسفيون بمقدمه وأكرموا نزله، ودخل أسفي وزار الشيخ أبا محمد صالح وتفقد أحوالها[1]، وكان مما قدموه في ضيافته ثمانمائة مائدة من الطعام مقسطة على خمسة أيام نزوله، ووصلهم أيضا بهدية من الدراهم، وصلى الجمعة بمسجد الشيخ أبي محمد صالح، وسافر صبيحة يوم ثامن رجب قاصدا مراكش بعد قضاء الغرض على أحسن وجه وأكمله، وفي سنة 1270 ه التفت السلطان للحالة الدينية بالبوادي فكتب للقائد أحمد بن عيسى العبدي البحتري والقائد سعيد بن أحمد المتوكي وقبل ذلك سنة 52 كتب للقائد عبد المالك الحيحي ينبههم على سوء الحالة الدينية ويأمرهم بمشاركة طلبة العلم الذين يرجع إليهم الناس في أمر دينهم وتعليم صبيانهم، وإقامة الصلوات الخمس والآذان بالمداشر، وتقريب أهل العلم وإعانة النجيب منهم والاهتداء بهم وقبول نصيحتهم, وينعى عليهم سوء تصرفهم وغفلتهم عما استدعوه، وقد ملأ تلك الكتب نصائح وإرشادات ومواعظ جزاه الله خيرا.

وفاته: توفي رحمه الله يوم الاثنين التاسع والعشرين من المحرم سنة 1276 ه بمكناس ودفن بضريح جده المولى اسماعيل رحمهما الله تعالى .

الحوادث: في آخر سنة ثلاثة عشر ومائتين وألف كان الوباء بالمغرب وعم الحواضر والبوادي ولم يكن بهذه الناحية , وإنما أتى به جيش السلطان المولى سليمان لما قطع وادي أم الربيع أواخر شهر قعدة, وفي فاتح شوال عام 1217ه نزل مطر غزير فدخل بسببه السيل لأسفي من باب الشعبة وولج الدور والحوانيت وأزال دفوفها وأفسد ما فيها من السلع والأموال والأثاث وحفر في الأرض أخدودا ودخل المسجد الأعظم وأقلع منه باب درب القوس وأقلع باب المدرسة، وجر الرخامة التي كانت به إلى البحر، ثم أصلح ذلك وسويت السكة

---

[1]- أحوال أسفي

على نفقة إدارة الأحباس ومن له شيئ من غير ذلك قام بإصلاحه, وفي سنة 1234 كان الطاعون بأسفي بل والمغرب حواضره وبواديه وذهب بكثير من الأعيان، وفي السابع والعشرين من المحرم سنة 1238ه أخذ عبدة ما بقي من بقر أهل أسفي، وفي ليلة الخميس من سنة 1238أحرق باب الشعبة من أسفي، وفي يوم الجمعة أغلق بالحجارة والطين، وفي يوم الخميس رابع عشر محرم سنة 1240 فتح وركبت له دفتان جديدتان يوم الجمعة بعده, وبعد العصر من يوم الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة 1241 نزل مطر غزيردخل بسببه السيل لأسفي انهدت به الحوانيت وأزال دفوف الباقي وأفسد ما فيها من السلع وبلغ المسجد الكبير حتى امتلأ ماء، وبلغ الزاوية الناصرية وحمام بوجرتيلة وغير ذلك من الرحاب القريبة حتى بلغ عتبة باب الرباط البرانية. وفي عاشر محرم من السنة المذكورة فشا الطاعون بأسفي، وفي يوم الأحد خامس ذي الحجة نهب أولاد زيد سوق احد احرارة ونهبوا لأهل أسفي ما بيدهم من السلع وجرحوا البعض، وبعد زوال يوم الخميس خامس عشر جمادى الأولى عام واحد وستين قتل الحسين بن العياش بجنان الزيتون وأغلقت أبواب أسفي ثم فتحت قرب العصر، وبعد زوال يوم الأربعاء ثالث رمضان سنة 1262 ه سافروفد أهل أسفي إلى الحجاز وكان مؤلفا من واحد وثلاثين رجلا من أسفي فقط وفي سنة 1266 ه اشتد أمره[1] ، وكان الناس يكلون الجيف والميتة والخبيزي ويعرف بها ومعظمه كان بعبدة ودكالة وحمد والرحامنة وبني مسكين وغير ذلك من الصقع الحوزي وفزع الناس إلى الغرب وكان الرجل إذا أكل وأمعن في الأكل تضطرم أحشاؤه أو يموت من حينه ،ودام إلى ثمانية وستين فنزل المطر وأخصبت البلاد وفي آخر شوال سنة 1261ه كان الوباء بأسفي والمغرب وهو إسهال مفرط يصحبه وجع في البطن والساقين ويعقبه تشنج وبرودة واسوداد فإذا جاوز صاحبه أربعا وعشرين ساعة فالغالب عليه السلامة وإلا فهو الحتف، وقد مات به كثير من أعيان اسفي وغيره, وفي الثامن والعشرين من ربيع الثاني سنة 1271ه نزل مطر دخل سيله لأسفي وهدم حوانيت الفخارين والزنايديين والخرازين والبقالين وأفسد ما في جميعها من أنواع السلع والحبوب وما في ترائقها من الأموال والأثاث واحتتبس الماء على باب البحر وكان الناس يقطعونه بالفلك ولما جف الماء ترك في الأرض أخدودا وبعد ثلاثة أيام سقط منه السور الذي كان بقرب دار الفريندي وتعرف بحملة عيصوت لكونها لم تذهب من الأنفس إلا به، وهو يهودي وكانت الخسارة في الأموال جسيمة، وفي ليلة ثالث عشر

---

[1]- يقصد الجوع والجذب

صفر على الساعة العاشرة سنة 1273 خسف القمر خسوفا كليا وبقي بلا نور، وعلى رأس الساعة التي تليها بدأ انجلاؤه وعلى رأس الساعة الثانية عشر كمل انجلاؤه.

دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان بن هشام العلوي

حاله: كان رحمه الله من خيرة بني أبيه، فاضلا، دينا، زكيا، مرضيا، جوادا، سمحا، جامعا لكثير من محاسن الأخلاق، موفر الفضل ،مبسوط الكف، رحب الراحة، محبا لأهل العلم، حانيا إليهم، معتنيا بهم، ذا معرفة بالسياسة والتدبير ورسوخ قدم في الفنون العقلية، حسابا وتوقيتا وهندسة وتنجيما وغير ذلك.
بيعته: كان رحمه الله مرشحا للخلافة من قبل والده، فكان له التولية والعزل في العمال والنقض والإبرام في دولة والده فلذلك لما توفي والده اتفقت كلمة أهل الحل والعقد بالمغرب على بيعته, ولم يخالف في ذلك أحد يعتد به, ولم يبلغ الخبر لبلدنا أسفي حرسه الله إلا في يوم الجمعة حادي عشر صفر من السنة المذكورة, فانتظر الناس الإعلام بذلك, ولما لم يظهر جمع باشا أسفي القائد الطيب بنهيمة أعيان أسفي , وفي مقدمتهم القاضي السيد محمد بن عبد الخالق الأسفي بالجامع الأعظم يوم الثلاثاء سادس عشر صفر سنة 1276ه وأخذ عليهم البيعة للسلطان أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد الرحمان, وفي عشية ذلك اليوم ورد الكتاب المولوي معلما بوفاة والده, واجتماع الناس على بيعته وأرسل مولاي المأمون لأخذ البيعة من الناس فقدمت إليه بيعة أهل أسفي وعبدة وحمير وغيرهم. وفي رابع جمادي الأولى أرسل الأسفيون وفدا فوق الثلاثين رجلا من الأعيان لأداء مراسيم التعزية والتهنئة لصاحب الترجمة بالجلوس على تخت المملكة فوافوه بفاس فأكرمهم غاية, وأغدق عليهم من النعم ما لم يكن في حساب، وكذلك فعل بغيرهم من الوافدين عليه, وفي أوائل جمادى الثانية رجعوا مغتبطين بما قابلهم به من غاية البرور وكمال السرور, وفي فاتح دولته كانت وقعة احتلال الأسبان لتطوان , سببها ما أثاره الأوباش على الحدود بينهم وبين أهل انجر(كذا) بقرفي سبتة آخر أمرها بعد حروب عتيدة بين الفريقين أديت للأسبان غرامة حربهم وهو عشرون ألف ريال نصفها معجل ونصفها مؤجل يؤخذ مقسطا من مراسي الأيالة المغربية, وبالفعل أنزل الأسبان نوابه بالمراسي حتى استوفاها وعقدت معه معاهدة على شرو ط مضمنها البيع والشراء والمخالطة من الجانبين في الأمن والأمان ونيل امتيازات عديدة لدولة الأسبان، وقد صادفت هذه القضية السلطان على غير استعداد ولا أهبة لشغله باستتباب الأمن وجمع الكلمة , ومعلوم ما يقع من الرعية عند موت أميرها من الثوران والتزلزل، سيما سماسرة الفتن الذين لا

هَمّ لهم إلا إثارة الفساد عندما تسمح لهم الفرصة بموت الأمير، فكانت حالة المغرب مزعزعة الأركان إذ ذاك, فعلى هذه الحالة الهامة جاءت قضية تطوان، وقد كان رحمه الله من قضية إسلي نهض لتنظيم العسكر وجمعه لما علم أن الحاجة داعية إليه لمجاراة الدول في نظامها العسكري، ثم لما كانت وقعة تطوان جد في ذلك, وجمع منه جيشا عرمرما , وهو أول من أوجده من هذه الدولة على الطراز المعروف والوجه المألوف قبل عقد الحماية، وهذه القضية أزالت حجاب الهيبة عن المغرب وامتدت إليه بسبب ذلك الأنظار وتشوفت إليه الأطماع وكثر تداخل الدول في سياسته ومنحت لهم الامتيازات وتكاثرت الحمايات والاختلاط بالأوروباويين ونشأت مشاكل كثيرة بسبب ذلك، داخلية وخارجية، وكانت أيامه في أولها شديدة بما انضاف لوقعة تطوان من الغلاء والموت، ثم أعقب ذلك الخصب والأمن والعافية, ولاحت عن الناس سمة الحضارة الأوروباوية، وبدأت تتسرب إليهم الرفاهية شيئا فشيئا حتى انغمسوا في الشهوات, وغاصوا في بحر المستلذات, ولم يقفوا في ذلك عند حد محدود يليق بماليتهم وثروتهم, والحال أنهم في حال هبوط وتقهقر, فكان ذلك من أعظم عوامل الانحطاط والتأخر، والله غالب على أمره.

وفاته : توفي رحمه الله بمراكش عند زوال يوم الخميس الثامن عشر من شهر رجب سنة 1290 هـ، وله عدة آثار في عمران المغرب, كإجراء الأنهار والعيون , ومعمل السكر بمراكش ومعمل البارود وغير ذلك من الآثار الدينية رحمه الله.

آثاره في المعارف: كان له شغف بنشر العلم, وهو أول من جلب المطبعة من مصر فسميت المطبعة المحمدية باسمه فطبع أولا شرح الشمائل وشرح ميارة الصغير على ابن عاشر, وشرح الأزهري على الآجرومية , وبعث بهم إلى الخزائن العلمية بالأمصار, وكتب للقاضي السيد محمد بن عبد الخالق الأسفي كتابا مؤرخا بثامن صفر 1284 ه يأمره فيه باقتضاء ثمن ذلك من الأحباس, ثم طبع الخرشي وشرح ميارة على ابن عاصم وكتاب اقليدس في الهندسة، وفي سنة[ ][1] وسبعين كانت هدّة البارود بالبرج، المجاور للقصبة العليا المقابل لمقبرة اليهود شتاء، بسبب أنه لما كانت وقعة طنجة كان الناس قد وضعوا العسة في الأبراج فكان بهذا البرج الحاج محمد بن إبراهيم الناظر الحسني، وكان عنده صندوق من البارود فوضع عليه شمعة فغلبه النوم واعتراه صرع، يقال إنه كانت تصحبه جنية فبلغت النار للبارود فتفرقع البارود وانهد البرج، وكان له دوي وصوت مفزع، فارتاع الناس لذلك, ولبسوا

---

[1]- كلمة ساقطة في الاصل

السلاح وقصدوا محل الحادثة، فإذا البرج منهدم وصاحبه مات بذلك رحمه الله, ومازال أثر البرج إلى الآن بجانب السور، وفي يوم الأحد متم حجة سنة سبعة وستين ظهر في الجو بناحية مراكش شهاب ناري يلتهب نارا ويتساقط منه شرار النار مثلث الألوان خضرة وصفرة وحمرة حتى انقضت بناحية باب الرب من مراكش وكان لها تأثير هناك. وفي أواسط سنة 78 ه ورد الأمر المولوي على القائد الطيب بنهيمة بحصر رسوم الريال في ثلاثين أوقية وعشرة أوجه, وكان بأربعين, وفي رابع شوال منه ورد الأمر بعزل العمال عن النظر في المراسي, واستقل الأمناء بذلك تحت نظر السلطان, وكان ذلك في جميع الأيالة. وفي ربيع الأول سنة 80 ه قتل النائب الأسباني الذي كان بأسفي يقبض غرامة حرب تطوان، قتله يهودي كان متصلا به يخدمه، فقبض واعتقل بدار الأعشار, ففر منها, ووقع البحث الأكيد عنه حتى يوم الثلاثاء 23 ربيع الأول حيث وجد بدار كنبرو, وحمل إلى طنجة ليقتل بها، وفي سنة 81 ه ورد الأمر المولوي بتسوير مقبرة رباط أسفي لما بلغه من أنها ممتهنة بمرور الناس منها فبني عليها سورا من حيطين حسب الأمر المولوي بالكتاب المؤرخ ب 7 من ربيع الثاني من العام المذكور، وفي ليلة الثلاثاء 15 حجة عام 79 ه خسف القمرخسفا كليا وبقي كذلك ما شاء الله ثم انجلى شيئا فشيئا حتى عاد له ضياؤه , وفي أواخر هذا الشهر كان يطلع ثلاثة كواكب منتصف الليل يمين القمر أحد هما له ذنب صغير شبه عمود من دخان أسود رقيق، وفي إثر فجر يوم السبت ثاني جمادى الثانية سنة 1280 ه انبهر نور قوي من السماء وأضاءت له الأرجاء كضوء النهار وانفتح كالباب في السماء , ومكث الحال كذلك, ثم عاد لحاله المعتاد, وفي ليلة الخميس الخامس والعشرين من جمادى الأولى عام واحد وثمانين ومائتين وألف (1281) موافق 22 أكتوبر نزل مطر غزير دخل بسببه السيل لأسفي فوجد أبواب المدينة مغلقة فأتى المختار بن بوعزة السعيدي ليفتح باب الرباط فجرفه السيل وأدخله للبحر لولا أنه صادف رجلين على طرف البحر فأنقذاه بعد جهد جهيد، وبعد ما فتحت الأبواب جميعها تسرب الماء شيئا فشيئا ولم يقع ضرر. وفي ذي الحجة عام 1283 ه ظهر سكة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان , وفي ضحى يوم الأربعاء التاسع والعشرين من شوال عامه كسفت الشمس كسوفا جزئيا حتى ظهرت بعض النجوم بازائها, وانجلت في الحين من غير طول. وفي هذه السنة ظهر جراد كثير سد الأفق وأتى على الأخضر واليابس ودخل على الناس في الدور, وفي سنة 84 كان القحط والغلاء المفرط بالمغرب بصفة لم يتقدم لها نظير, قال بعضهم إنه ذهب بعشر سكان المغرب، وأمر السلطان بتفقد المساكين في

كل بلد وكتب للقائد الطيب بن هيمة كتابا مؤرخا ب 28 قعدة عامه يأمره بتقييد الخبز للمساكين الذين برباط الشيخ أبي محمد صالح وبغيره من المواضع التي يجتمع فيها المساكين على يد ثقة من مال الأحباس وذلك عشرون خبزة في اليوم, ورأيت بخط أبي السرور والفقيه السيد البشير بن الطاهر الحكيم الأسفي أنه في هذه السنة كثرت المصائب وتلونت الخطوب واشتد الغلاء وقلت الامطار ووصل المد الفاسي أربعة عشر مثقالا وكثر السعاة وضاع منهم بالجوع خلق كثير حتى عجز ناظر المارستان عن الدفن والتجهيز، ونفذ ما عنده وبخست البضائع والحرف ولم يبق نفاذ إلا في الخبز، فاشتغل غالب الناس ببيعه, وبلغ الحال في أسفي مبلغا عظيما وخصوصا من عاشر شوال إلى الخامس والعشرين من ذي الحجة, بلغ القمح مائة وثمانين أوقية للخروبة الأسفية والشعير تسعة وسبعين أوقية، واستمطر الناس فلم يمطروا حتى ظهر عجز الناس واعترفوا بعظمة الله فأمطرهم مطرا غزيرا يوم الجمعة موافق يوم عرفة، وبعده يوم الأضحى نزل بكيفية منعت الناس من الخروج إلى المصلى, فأحيا الله به الأرض بعد موتها وأنزل على عباده رحمته إنه على كل شيء قدير. وفي سنة 1285 ه كان الوباء بأسفي وعم بلاد المغرب , وكان بالقيء والإسهال المفرطين, هلك به خلق كثير، وفي ليلة الخميس الرابع عشر من ربيع الثاني خسف القمر خسوفا كليا بعد غروب الشمس مخسوفا إلى منتصف الليل فعاد له ضياؤه, وفي التاسع والعشرين من رمضان انكسفت الشمس وكان ابتداء الكسوف بعد الزوال بنحو نصف ساعة حتى أظلم الجو ولم يبق منها إلا حلقة نورانية يسيرة ولم يظهر تحقيق لوقت الانجلاء لتراكم السحاب.

دولة السلطان أبي علي المولى الحسن بن محمد العلوي

كان المولى الحسن ملحوظا عند والده وجده لما كان يظهر عليه من لوائح النجابة، فكان مرشحا لذلك من قبل والده، وقد عقد له عدة رايات، فكان النصر حليفه والسعد أيده, ولذلك لما توفي والده اتفق الناس على بيعته وتوليج الأمر إليه لما كان عليه من حسن السياسة والمعرفة بإدارة الأمور على ما ينبغي, وكانت بيعته بمراكش عقب موت والده وهو مرابط بحاحة, فوافته البيعة وهو هناك ودخل مراكش في السابع والعشرين من رجب سنة 1290 ه، واستقر بدار الخلافة ووردت عليه البيعة من جميع أمصار المغرب، ولما ثبت قدمه في الملك وثبت الأمر في نصابه اشتغل بتنظيم العسكر وجلب الأسلحة الحديثة من أوروبا وأرسل عدة بعثات من شباب ايالته إلى مدارس فرنسا وألمانيا وغيرهما ليتعلموا الفنون العصرية من رياضة وهندسة وحربية وغير ذلك, وبادر بإرسال سفرائه إلى الدول الأوروبية لربط العلائق الودادية، وأوفدوا له

أيضا سفراءهم بمثل ذلك, وفي سنة 94 وفد عليه عدة باشادورات من دول أوروبا، فتكلموا معه في شأن إدخال " بابور البر"[1] والسيارات والتيلغراف وأجرائها بإيالته كما بسائر المعمور، وبينوا له فائدة ذلك ونفعه, فشاور جلساءه في ذلك, فثبطوا عزمه عن ذلك خوفا من مغبته, وليتهم فعلوا حيث كانت الدولة منتظمة والكلمة مجتمعة, ولكن الناس أعداء ما جهلوا. وفي سنة 1297 ه موافق 1880م تجددت شروط الحماية بين السلطان ودول أوروبا وسببها أنه كانت وقعة تطوان، وأزالت تلك القضية حجاب الهيبة المسدود على المغرب , تكاثرت الحماية , وأول من تسارع إليها اليهود، لما كانوا يتجنون على المغاربة من الإهانة والأذية, فتكلمت جمعيات اليهود في بلاد أوروبا مع السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان بواسطة دولة انجلترا فأجابهم بأنه يسلك معهم المسلك اللائق ودين الإسلام يحرم كل إذاية واصلة لليهود, وأصدر منشورا بذلك ثم وقعت قضية يهودي بفاس كان محميا ببعض الدول كان طلب بشيء فسب الدين, وأبرق وأرعد فأريد القبض عليه فدخل لحانوت برادعي فأحرق عليه, فعادت الجمعيات اليهودية إلى التدخل في ذلك، ووجدت دولة إسبانيا الفرصة للتدخل في شؤون المغرب امتعاضاً منها على اليهود وتناست ما فعلته هي مما هو أشد من ذلك وهو تدميرهم بإشبيلية وصلبهم وإحراقهم، بالنار حتى إنهم في مرة واحدة أحرقوا ألفي نفس , ولم يكتفوا بحرق الأحياء حتى نبشوا على الأموات وأحرقوهم وحولوا كل أملاك الهالكين منفعة للكنيسة، وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى حد يستحيي منه وجه الانسان ويعجز لسان الفصيح البليغ عن وصفه ، ها هي وما بالعهد من قدم كانت تمنع اليهود لمملكتها, ولم يزل ذلك إلا عند إعطاء الحرية العامة في إسبانيا منذ عهد قريب, ولكنها غضت الطرف عن هذا كله وأظهرت الامتعاض والشفقة على اليهود بقصد التدخل في شؤون المغرب، فلذلك دعت دول أوروبا لعقد مؤتمر مدريد للنظر في أحوال اليهود والرعايا الأجانب في مملكة المغرب، فكان ممن شارك في هذا المؤتمر فرنسا وألمانيا والنمسا والبلجيك والدانمارك وأمريكا وإيطاليا والبرتغال والسويد واسبانيا وغيرهم، ومضمنه احترام المحمي وأهله والأجانب الذين لهم علاقة بدول المغرب، وقد احتوى على ثمانية عشر فصلا هذا مضمنه. وفي سنة 1299 ه خرج لتمهيد بلاد سوس إذ كان بعد عليهم العهد بإجراء الأحكام ولاستيلاء بعض الأجانب على مراسي ذلك الصقع , وكانت البلاد مجذبة، فحمل المؤونة من الجديدة ورجع, غير أنه

---

[1]- المقصود ببابور البر القطار

لم يتوغل في داخليتها لجذب البلاد وقلة المؤونة , إلا ما جلبه معه ثم رجع إليه سنة 1302 ه، فخرج من مراكش وجعل طريقه على أسفي، وفي يوم السبت ثاني جمادى الأولى 1302ه نزل خارج أسفي وفي يوم الأحد دخل المدينة وتطوف على المرسى والأبراج وزار الشيخ أبامحمد صالح ودخل المسجد فيه وصلى فيه وسأل عن مؤسسه وأثنى عليه، وزار الولي أبا زيد شمال أسفي، ولما رأى الأبراج والسور تحتاج إلى الترميم والإصلاح أوفد لها من مراكش سنة خمسة وثلاثمائة وألف هجرية مأمورا قام بترميمها وبنى دعائم القصبة العليا, وفي يوم الاثنين توجه إلى سوس عن طريق الصويرية وأسس بالسوس عدة مراكز كتزنيت وقصبة سوق الخميس بأيت باعمران وبلغ أكلميم وبنى به قصبة وترك في جميع تلك المراكز حمية من العسكر ووفدت عليه جميع تلك القبائل عربا وبربرا خاضعين طائعين، فاسعمل عليهم العمال والقضاة وطمس ما كان أسسه التجار الأنجليزيون بمرسى طرفاية , وفر بها من النصارى إلى مراكبهم وفتح مرسى أساكا وحصن تلك السواحل ورجع منصورا مؤيدا، وفي أواسط ربيع الأول من السنة المذكورة رفع السلطان ما كان موظف[1] على الأبواب في المدن والقرى، لأنه استغنى عنه بعمارة بيت المال وفي أواخر رجب سنة أربع بعد الثلاثمائة والألف هجرية ورد الأمر بإحراق عشبة الدخان, فأحرقت بأسفي بساحل البحر وكان ذلك في جميع الإيالة وفي ثاني جمادى الأولى عام 1310 ه أمر السلطان بإحداث البوسطة لحمل الأخبار في جميع الإياله بعد أن اختبرها فيما بعد في مراكش والجديدة فظهرت له نتيجتها وذلك بطلب تجار الدول وغيرهم من نزالة الأوروبيين , وفي أواسط سنة 1311ه موافق 1893/ أوفدت إنجلترا مأمورا ورد على السلطان مع فظاظته جاء يطلب امتيازات مجحفة بالدولة المغربية فلم يساعده على ذلك .

وفاته : توفي رحمه الله على الساعة الحادية عشرة من ليلة الخميس الثالث ذي الحجة سنة 1311 ه ودفن بضريح جده السلطان سيدي محمد بن عبد الله برباط الفتح رحمة الله عليهما, وقد كان خلد عدة آثار جليلة عمرانية ودينية كمعمل دار السلاح ومعملين للبارود أحدهما بفاس والآخر بمراكش، وكان له اهتمام بإدخال الشؤون العصرية كالكهرباء والسكة الحديدية والتليفون، وكان قد جرب ذلك وظهرت له نتيجته , لكن عاقه الأجل المحتوم، وكان قد جرب ذلك

[قال المؤلف رحمه الله : تكاثرت وأول من تسارع إليها اليهود إلخ... فأما كثرة الحماية بعد تطوان فصحيح إلا أن الدول لم يطلبوا المؤتمر لأنه ليس في صالحهم وإنما طلبه مولاي الحسن رحمه الله ولم يتوصل إلى تحقيق انعقاده.]

[1] مفروضا

حرصا منه على حفظ كيانه واستقلال دولته لما كان يرى من تزاحم الدول على المداخلة في ذلك, فكان يدافعهم بالشكر وعدم مساعدة الظروف وغير ذلك من الأعذار.

اثاره العلمية: كان رحمه الله كلفا بالعلم وخصوصا علوم الحكمة، فكان يفد عليه أربابها من كل ناحية من آفاق المغرب , وكانت له خزانة جميلة جلب كتبها من الآفاق كاستنبول وإسبانيا, وقام للوراقين سوق في زمانه، وكان ينتدب للخزانة كبار العلماء , وكان لا يمر في أسفاره الكثيرة بمكتبة إلا انتخب منها، وقد ندب شيخه أبا العباس أحمد بن الحاج بجمع تاريخ للدولة العلوية، وأغدق عليه النعم، وحشر أبا العباس من كتب التاريخ والرسائل وغير ذلك من المواد فألف باسمه كتاب : الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر السلطان مولانا الحسن،[1] في نحو أحد عشر مجلدا، وألف له غير ذلك في الطب وخواص النباتات، وألف عدة تأليف باسمه رحمه الله.

الحوادث : في سنة 1295 ه كان غلاء الأسعار وبلغ القمح بأسفي اثنين وعشرين مثقالا للخروبة الأسفية وانحبس المطر بحيث لم تنزل قطرة من السماء، فهلكت الدواب والأنعام، وأعقب ذلك الجوع ثم الوباء, مات به مالا يحصى من الناس حتى كان الناس بأسفي بل بغيره يدفنون الثلاثة فأكثر في قبر واحد، وكان إخوانهم ينبشون القبور على استلاب الأكفان, وأمر السلطان عمال الأمصار وأمناءه أن يرتبوا للناس الأقوات ففعلوا، وكانوا يجمعون الناس في الفنادق, وكانت الحالة من أسوأ الحالات وأفظعها، وفي سنة 1296 ه كان الوباء، ذهب بكثير من الأعيان، وفي سنة 1297ه كانت غلته الذرة فقط فتسلط عليها الفأر فأكل غالبها وأفسد ما وجد، وكان ذلك العام يعرف بعام الفأر، إذ ظهر ذلك الفأر المزوق وكان يطمع في الآدميين أحياء إذا وجدهم نياما، وفي سنة 1299 ه كان القحط بانحباس الأمطار حتى أكل الناس الكلاب وغيرها وهلك فيها خلق كثير، وفي عام 1300 ه كان الخصب فانجلت الخطوب وذهبت الكروب وتعرف هذه السنة بعام الصابة، وفي ليلة الاثنين قرب فجرها تاسع عشر رجب عامه كانت الزلزلة بأسفي كان ابتداؤها من ناحية البحر، شعر بها كل من كان مستيقظا، لكن صاحبتها السلامة , وفي ليلة الرابع عشر من ذي الحجة 1301 ه خسف القمر بعد العشاء خسوفا كليا بحيث لم يبق له أثر، وبقي الظلام مرخيا سدوله نحو الساعتين ثم انجلى وفي سنة خمسة هبت ريح عاصفة كسرت الأشجار وأرغمت خمس مراكب خرجوا إلى البر، فحرثوا بجانبه حيث كانت راسية ببحر أسفي.

---

[1] ـ يوجد هذا المؤلف مخطوطا بالخزانة الحسنية بالرباط، ونسخة أخرى مصورة على الميكروفيلم بالخزانة العامة بالرباط.

وفي خامس وعشرين شعبان عام 1311 ه صدر الأمر لعامل أسفي برد أمور اليهود ومحاكمتهم على الجزية إلى الأمناء بالمرسى.

دولة أبي فارس المولى عبد العزيز ابن المولى الحسن العلوي

بيعته: بويع بعد وفاة والده على صغر سنه , ووافته البيعات وهو برباط الفتح, وبايع أهل أسفي يوم الأحد ثالث عشر ذي الحجة سنة 1311 ه واستوزر الحاجب أحمد بن موسى, وكان هو القائم بأمر الدولة، مستبدا فيها بالنقض والإبرام، ثم تقدم لمكناس وفيه نكب أولاد المختار الجامعي واستصفى أموالهم انتقاما منهم لميلهم إلى تولية مولاي محمد بن مولاي الحسن، ثم تقدم لفاس ومكث بها وقامت الفتنة في القبائل الحوزية على ساق وانتهبت دور العمال وهدموها وبعضها أحرق بمن فيها، وهتكت الحريم، وسفكت الدماء وانقطعت السبل، وعدا الرحامنة على مراكش، وشنوا الغارات على أطرافه ،وكان رئيسهم مبارك بن الطاهر بن سليمان, ومكث الحال على ذلك نحو السنة , وهو كلما خمدت نار الفتنة أوقدها الغوغاء، وتلاهم على ذلك قبائل دكالة واحمر والشياظمة وزمران وغيرهم , وقد رام السلطان إخماد ذلك بالسلم, فأزال عمال الرحامنة وولى عليهم غيرهم , وأرسل لهم بالوعظ والزجر، فحصلت الهدنة والسكينة ما شاء الله, ثم أوقدت نار الفتن سنة 1313ه.

خروج المولى عبد العزيز إلى الحوز وتمهيد قبائله

لما اتقدت الفتنة بالقبائل الحوزية, وخصوصا الرحامنة خرج إليهم المولى عبد العزيز من فاس لإطفاء ثورة مبارك بن الطاهر بن سليمان, وكان على ما هو عليه من النشيطين ومحبة الثورة، ولقد لزمه شيطان آخر، وهو رجل آخر يقال له محمد الملقب التجاني , كان يتخيل إليه خيالات , ويزعم المعرفة بالجدول, فتقف أمام خيالات الشياطين, يعدونه بنصره, والإتيان بكل ما يحتاج إليه, ولما حقت الحاقة وصادفته الجيوش، لم يظهر له شيء من تلك الخيالات, وخنست شياطينه الموسوسة له، فخرج تحت جناح الظلام فارا بنفسه إلى صياصي الجبال, ومكث بزاوية أبي يعزى, وكان له هناك ظهور بين ضعفاء العقول, ولقد حدثني الثقة الذي حدثه بذلك، ولما جاوز المولى عبد العزيز وادي أم الربيع أوقع بالرحامنة, وفر رئيس الفتنة مبارك بن الطاهر بن سليمان إلى زاوية سيدي علي بن ابر اهيم فاحتزم بها، فأخرجه منها، ثم جعل في قفص وأدخل لمراكش، وقد كتب السلطان حمزة بن هيمة وأهل العلم والفضل كتابا مؤرخا بالثامن والعشرين من شعبان عام 1313 ه متحمدا فيه بالفتح, وذاكرا فيه أنهم ألقوا السلاح والتجئوا إلى المرافع محترمين بها إنه أدار بهم الجيوش

ن القبائل, وغيرها من كل جهة , وكانوا سريات ثمانية , وجعل الرؤساء ليهم أبناء عمه فأحدقوا بهم كدارة الهالة بالقمر والأكمام بالثمر , وقال عيمهم لمزعومهم لا مناص ولا مفر، وسد والهم موضعا كانوا يفزعون إليه , تى تبدى لرئيسهم الأعظم فسادا , أنه في رأيه وخروجه وشقه العصا كلاه قطع الشطرنج في غاية الاتساق والانتظام , ثم رأى ناحية في التزحزح, ففر ا ذاك لزاوية سيدي علي بن إبراهيم لائذا به , فأنهض له ثلاثمائة فارس, أعلمهم بمعنى الحرم , ومن يجاريه , ومن لا يجار, وأخرجه منه، فاستفتى به من بطرفه من العلماء, فأفتوه بأنهم محاربون, فقتل عتا تهم وسجن منهم 89, ووظف على الباقي أموالا باهظة، ولما فرغ من الرحامنة توجه اجيرانهم كزمران وتكانة ومسفيوة فوظف[1] عليهم أموالا وألزمهم بإعطاء الخيل والعدة , وعاقب آخرين منهم بالسجن والمال فتمهدت البلاد وأمنت السبل, وأخمدت نيران الفتنة في الجملة. وبعد قضاء هذا الغرض دخل لمراكش في ثاني عشر رمضان سنة 1313ه وأما فتنة غيرهم من القبائل كدكالة وأحمر والشياظمة وعبدة فإنها انتهت بالفتك بعمالهم وخلفائهم وهدم دورهم وهتك حريمهم وباستبدال السلطان عمالهم بضعف ما كانوا وخصوصا عندما رأوا ما فعله الرحامنة, فانزجروا إذ ذاك وأخمدت فتنهم إلا البحاترة من قبيلة عبدة فإنهم خبوا ووضعوا في هذه الفتنة .

فتنة أولاد زيد من بحاترة عبدة

لما قامت قبائل الحوز على عمالهم كانت قبيلة عبدة الربيعة من عبدة قامت أيضا على القائد الشافعي وكان بفاس, فهدموا داره وهتكوا حريمه وفعلوا الأفاعيل الشنيعة التي تستحيي منها الإنسانية, وفعلت كذلك قبيلة حمير مع عاملها القائد أحمد بن الجيلالي بن الضوء مثل ذلك, وكان السلطان لما سمع بذلك أرسل العمال كالقائد عيسى بن عمر وغيره من عمال دكالة, ولما كانوا بأزمور صدهم دكالة عن المرور، حاشا القائد الحاج محمد بن التمار العبدي، فإنهم تركوه جاء لداره في الأمان لما كان عليه من حسن السيرة والعفة، فلم يقع له ولا لداره شيء, وأما القائد عيسى فإنه استدعى من جملة العمال ومن معهم , ومر على طريق البحر حتى دخل داره وسرح المساجين,وألان الكلمة وخفض الجناح, وفي خلال ذلك استعملت العمال على القبائل ضعف ما كانوا أو أكثر رغبة في إخماد الفتن , ثم لما سكنت الفتن وأمنت السبل, ورجعت المياه إلى مجاريها في قبائل نواحي أسفي , قام أولاد زيد من بحاترة عبدة في

---

[1] فرض

ثاني عشر محرم سنة 1313ه على عاملهم القائد عيسى بن عمر, واجتمعوا بشاطئ البحر وتحصنوا بحصن كاسين, وهو سور مستدير كان للبرتغاليين فالتجأوا إليه . فأرسل إليهم يطلبهم في الصلح والهدنة فلم يقبلوا, فتحرك إليهم في أصحابه, وقبيلته من ثمرة , فكان الحرب بينهم سجالا ، ثم أرسل إليهم مع عاملهم القائد حمزة والأشراف في طلب الصلح فلم يقبلوا صلحا إلا حربه وهدم داره, فما انفصلوا عنهم حتى ناوشهم القائد عيسى, وأذاقهم أليم العذاب والنكال حتى أجلاهم عن السور المذكور وهدمه بالفؤوس حتى صيره حصيرا حصيرا ثم لاذوا بأسفي وجاؤا للقائد حمزة بثور هدية على أن يأذن لهم في شراء البارود والرصاص، من أسفي، فلم يأذن لهم في شيء , وكانت بينهم وقعات منها وقعة فليفل، هلك فيها من أولاد زيد 140 ووقعة المكادم، هلك فيها من شيعة القائد عدد كبير, ثم كانت له الكرة عليهم حتى التجئوا لناحية أسفي في الثالث والعشرين من المحرم سنة 1314ه، فكان الأسفيون على حذر, ولبسوا لامة ولالتمائهم الحرب وجعلوا العسة على الأبواب والأبراج ولالتجاءهم لأسفي ذهب القائد في شيعته من عبدة ودكالة بمواشي أهل أسفي وأموالهم عدا مال الحاج عبد المالك الوزاني, وفي الرابع والعشرين من المحرم 1314 ه طلبهم القائد العسال السحيمي وأهل حمير وأهل أسفي في الصلح مع عاملهم فلم يقبلوا صلحا وصمموا على قتاله, فطلبوا منهم التباعد عن ناحية أسفي حيث أن نزولهم تسبب للأسفيين في نهب أموالهم، فنهضوا يوم الخميس الخامس والعشرين من المحرم, ونزلوا موضعا من أسفي وظاهرهم أل غيات, وأولاد سلمان , والمغاوير, وأولاد لحسن وغيرهم, فاشتد أمرهم , وجعلوا يشنون الغارات على من ينخرط في سلكهم, فتحرك إليهم القائد مع أتباعه, فانتشبت بينهم الحرب, وثبتوا نحو نصف ساعة, ثم انهزموا, واجتمع المنهزمون, وأرادوا الأخذ بالثأر فنزلوا بالضريضرات, فأتاهم القائد على حين غفلة فأوقع بهم, وقتل رؤسائهم , وفي حال القتال خانهم الحاج مراح السلماني أحد المظاهرين لهم , فمال إلى جيش القائد، فكان من أعظم العوامل في هزيمتهم, فانحازوا ثانيا إلى أسفي، فورد الأمر المولوي على القائد حمزة بن هيمة والأمناء بأن يتوسطوا بينهم بالصلح مع القائد فكتبوا للقائد، فأوفد من ناب عنه وحضر لذلك رؤساء عبدة وعمالها وحمير, واستدعوا رؤساء الفتنة لحرم الشيخ أبي محمد صالح فاصطلحوا معه, وتفرق الناس, وأمنت السبل, واستمر الحال كذلك شهرا كاملا إلى خامس ربيع النبوي, فقام فيهم رجل يقال له الحاج عبد القادر البوذيني في ثمانية من مثله, فأوقدوا نار تلك الفتنة مرة ثانية , وتجهزوا قاصدين الانتقام من العامل المذكور, ولما رأى فتنتهم اتقدت كتب للسلطان المولى عبد العزيز, وطلب منه الأمر لعامل أسفي بتثقيف دورهم ونزائلهم التي بأسفي لتنحسم مادة

القاطنين منهم بحرم أبي محمد صالح , والأمر لعمال دكالة بشد عضده وإعانته و الإنعام عليه بقرطاس مارتيني وساسبوا وما تيسر من عدة مارتيني بالثمن إلى وقت اليسار , فأجابه إلى ذلك, وكتب لعمال دكالة بمكاثفته والكون معه على الفساد يدا واحدة, وأوعز لباشا أسفي بتثقيف دور الذين بأسفي, وأمر أمناء مرسى الجديدة بتوجيه مكاحيل مارتيني 50 مكحلة وقرطاسها عشرة آلاف بثمن قدره 1300 ريال إلى وقت اليسار بتاريخ 19 ربيع الثاني عام 1313ه، ولما تجهز الفساد هجم عليهم القائد عيسى في جيش دكالة ومن معه من عبدة فالتجئوا لأسفي، وتفرقوا على خمسة عشر مكمنا, وقاوموه أشد مقاومة فأقلع عنهم وزادوا في الظلم والعدوان والفساد في الأرض, وجعلوا يهجمون على الناس ويأتون بأموالهم فتباع برباط أسفي بأبخس الأثمان, ويرغمون الناس على مساعدتهم, فانسدت الطرقات, وانتشر الفساد, وحاصروا أسفي وقطعوا عنه الواردات, حتى ضاق الأمر بأهل أسفي فجاء القائد الحاج العربي بن التمار, وطلبهم في الصلح مع العامل فلم يقبلوا منه كلاما, وذبحوا على الأبراج بأسفي وبالمرسى وعلى القائد حمزة طالبين الكتب للسلطان بأن يستعمل عليهم عاملا آخر عينوه غير القائد عيسى , وزادوا في طغيانهم وفسادهم, وضيقوا على الأسفيين , وخصوصا من فيه رائحة البادية, فإنهم يقبضون عليه ويأتون به إلى موضع سموه بالمجزرة يقتلون الناس فيه صبرا إلا من فدى نفسه بالمال يطلقونه, وإلا فيقتلونه ونهبوا دولة البقر لأهل أسفي, وانتهبوا كل ما يجدونه بأطراف المدينة إلى أن ورد الأمر المولوي على القائد حمزة بضربهم , ففرق في أهل آسفي خمسمائة مكحلة ساسبو فيمن يعرفه من أهل النجدة والحزم وجاء في ميعاد ذلك القائد عيسى صبيحة يوم الخميس ثامن عشر جمادى الأولى، فأنشب الأسفيون الحرب من داخل، وتلاهم القائد عيسى من خارج في جيشه, وكان رؤساء الفتنة يقاتلون من مقبرة رباط أسفي وما والى ذلك, فما شعروا إلا والرصاص والمدفع ينصب عليهم من وراء وأمام فدام الحرب نحو ثلاث ساعات، ثم انهزم الفساد والتجأوا إلى حرم الشيخ أبي محمد صالح وللمسجد بأولادهم ونسائهم وتقدمت مقاتلة القائد عيسى إلى أماكن نزولهم بتراب الصيني فأحرقوها وكانت ستمائة مكان وهدموها، وكان أحد رماة القائد قد دخل لرحى الريح فكان يرمي كل من رآه بالرباط، فلما صعد المؤذن وقت الظهر لمنار مسجد الرباط رماه , فأخذ الأستاذ السيد محمد ابن الفقيه الكيري مدفعا, وكان راميا لا تسقط ضربته فرماه وهو بداخل الرحى من أحد ثقبها , واستراح أهل الرباط منه، ولم تصل الجمعة بالمسجد في اليوم بعده, وفي عشية يوم الجمعة رضوا بالصلح مع عاملهم، فكان الموعد لعقد الصلح هو هري التاجر خورخي الموالي لمقبرة رباط أسفي, وكان قد صدر

للقائد حمزة بن هيمة بالقبض عليهم أثناء مداولة الكلام على الصلح فخرج هو والأمناء والأعيان والعسكر معهم نحو أثني عشر قيدا , وهذا الذي عند الأسفيين من الأمر المولوي, فجاء القائد عيسى في أصحابه وقال لهم إنه لمجرد المواجهة كل واحد منكم يضرب من قابله منهم، فلما أقبل عليهم قاموا بالسلام عليه، فما كان من القائد إلا أن استل سيفه، وضرب الذي جاء للسلام عليه وهو السيد عبد الكريم بن العربي الزيدي وكان معهم، وضرب كل واحد من أصحابه من قابلهم من أولاد زيد فقتلوهم في لمحة البصر وانثنى راجعا عوده على بدئه، فحصل للحاضرين من أهل أسفي وغيرهم روع كبير إذ لم يكن عندهم علم بذلك, وظنوا أن القائد عيسى يريد الفتك بالجميع حتى أهل أسفي, فافتتن الناس ورجعوا قاصدين الباب ودخل القائد حمزة والأمناء من أعلى السور، ووقع الازدحام على الباب، وتراكم الناس عليه واختلط الحابل بالنابل حتى كان الناس بالباب على نحو أربع طبقات, ومات بالازدحام خلق كثير أقل ما قيل في عددهم مائة وسبعون رجلا، وكان الأسفيون يضربون كل من رأوه من أهل البادية من أعلى الأسوار وفي السكك, وكان الحادث فظيعا، من جميع جهاته طلبا لأولاد زيد، فجعل الناس يتساقطون في البحر, حيث أن الأسفيين كانوا يضربونهم من داخل والقائد عيسى لهم بالمرصاد من خارج، وكانت هذه الحادثة بالعشي مع غروب الشمس، والمؤذن صاعدا للمنار، فلم يؤذن ولم يصل أحد بالمسجد الكبير المغرب والعشاء, وأغلقت الأبواب نحو اليومين، ثم فتحت، ثم أغلقت إلى اليوم السادس من يوم الحادثة, وأمر القائد بدفن الأموات فدفنت بداخل أسفي لغلق الأبواب ومنهم من لم يدفن وبقي مطروحا نحو سبعة أيام تتبع القائد عيسى كل من فيه رائحة الفساد فقبض عليه وأودعه السجن, وجملة من سجنه 800 رجل فرقوا بسجن أسفي ومراكش والصويرة والرباط وغيرها ومات أكثرهم بالسجون، كان رحمه الله قد أمعن كل الإمعان في القتل, وكان ذا أذن صاغية للواشين فأباد كل من وشي له به, وكان قتله متنوعا, خنقا وضربا بالسيف والعصا وغير ذلك , عفا الله عنا وعنه, وفي رابع وعشرين جمادى الأولى ورد الأمر العزيزي ببيع دورهم التي بأسفي ولما وقعت هذه القلاقل والاضطرابات في الداخلية بادرت دول أوروبا كإنجلترا وألمانيا وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا والبرتغال بإرسال أساطليها البحرية إلى مياه طنجة مترقبين ما عسى أن يحدث لرعاياهم من أذى وضياع حق، فكانت سفنهم راسية لذلك ببحر المغرب، وفي ثالث عشر محرم سنة 1318 ه توفي الوزير أحمد بن موسى، وتوفي أخوه قبله إدريس الحاجب, وسعيد وزير الحربية، وبموت هذا الوزير أحمد انتثر سلك الدولة على ما كان عليه من الاستبداد، وفي يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة

1319ه وقع القبض على القائد عيسى ابن عمر العبدي بمراكش وسجن بمصباح , وصدر الأمر بحياطه ماله, فنزل على داره قائد المشور, في ألف من العسكر والأمناء والعدول من أسفي والقائد حمزة بن هيمة وعمال دكالة وأزمور والجديدة وفر أولاده من الدار, فهرب المساجين الذين بالدار ليلا وانتهبوا أموالا وذخائر نجوا بها تحت ستار الليل, وذلك في غيبة وزير الحربية السيد المهدي المنبهي سفيرا عند بعض الدول , فنزل بالجديدة يوم الجمعة تاسع ربيع الثاني 1319 ه ودخل مراكش ليلة الأحد 12 ربيع الثاني على الساعة التاسعة، وفي الحين اجتمع بالسلطان, وكان فيما كلمه فيه تسريح القائد عيسى وأزال ما في تسريحه, وفي صبيحة يوم الأحد جاء لدار السلطان فمثل بين يدي الوزير، وأنعم بمال جزيل، فسرح، وكانت مدة سجنه إحدى وعشرين يوما , وورد الأمر للعسكر وغيرهم فانفضوا عن الدار , وكان فيما طلب للسلطان تسريح مساجين عبدة وسرحوا، وفي سنة 1319 ه أمر السلطان بترتيب الضرائب على الأموال والمواشي والمزروعات والعقار والأنعام والدواب وغير ذلك على النمط الأوروبي, وأصدر بذلك ظهيرا مؤرخا بعاشر جمادى الثانية عام 1319 ه وخرج الأمناء والعدول من مراكش وبلغوا يوم الجمعة 6 جمادى الثاني وباشروا والعمل في ذلك، لكن عاقت العوائق هذا العمل , فلم يستمر عليه العمل, وقد كان المولى الحسن رحمه الله جربه بدكالة فأنف الناس من ذلك فأبطله.

ثورة الجيلالي اليوسفي الزرهوني المدعو أبا حمارة

في سنة 1321 كان نبوغ الجلالي الزرهوني المدعو بابي حمارة ببلاد الحياينة، وكان يتطور على اشكال, مرة يتزين بزي أهل التصوف, ومرة حكيما وأخرى أنه مولاي محمد ابن مولاي الحسن , وكان غاية في الشعوذة والسحر، فاستولى على قلوب العامة, وجمع حوله من الجهال جيوشا، فجهز له السلطان المولى عبد العزيز جيوشا عديدة فكانت الحرب بينهم سجالا، لكن نيله منهم أكثر، فكم من مرة تركوا له الأموال والذخائر مالا يعد ولا يحصى، كهزيمة الكعيدة عند غروب شمس يوم الثلاثاء من رمضان عام 1321ه، حدثني من حضرها أن الرحالة كانوا في جيش السلطان ثمانية طوابير، كل طابور فيه 800 فيكون جميع الرحالة 6400، فكيف بالخيالة، فكيف بالقبائل الذين معهم, ومع ذلك انهزموا أمامه هزيمة شنيعة وتركوا من الأموال الناضة , والذخائر والعدة ما زاده قوة واستعدادا, وهكذا في وقائع جرت بينهم, وإن كانوا نالوا منه أيضا لكن ولا سواء, ولم يزل داؤه ينخر في عظم الدولة, إلى

أن أوردها موارد الفقر والسقوط، زيادة على ما يسرقه الولاة المستبدون, وكان ولاة العسكر يزيدون فيه نحو الثلث أو أكثر، ويقبضون راتبه ويوم العرض يكترون من يقوم مقام المحسوبين, وقس على سرقة هؤلاء غيرهم من المتولين حتى احتاجت الدولة للقرض من دول أوروبا وظهر عجزها, فطلبت من دول أوروبا عقد مؤتمر للنهوض بها من وهدة السقوط.

مؤتمر الخزيرات بالجزيرة الخضراء

كان في 5 فبرائر سنة 1906 الموافق 10 حجة عام 1323ه حضره مندوبو دول أوروبا للتآمر في أمر دولة المغرب، فقرروا فيه عدة بنود، الأول: سن مشروع بخصوص تنظيم البوليس، وتقوم به الدولتان فرنسا وإسبانيا , والثاني نظام مراقبة تهريب الأسلحة, والثالث وضع عقد لامتياز بنك أهلي , والرابع وضع مشروع لتحسين مداخل الضرائب وفرض إيرادات جديدة, الخامس سن نظام للجمارك وعقاب المختلس المهرب, والسادس وضع مشروع يختص بالمصالح والأعمال العمومية, وبه ختم المؤتمر.

احتلال دولة فرنسا مدينة وجدة

في أول صفر 1325ه كانت حادثة قتل الطبيب موشان الفرنساوي بمراكش لما رفع علما بمحله, فتسارع إليه الرعاع وقتلوه شذخا بالحجارة, وضربا بالعصي، فقبض على المتهمين, وقتل آخر بطنجة, وجرح أخر بفاس وأخر بتكنة , فلذلك احتلت فرنسا مدينة وجدة طلبا للأنصاف من قتل الطبيب موشان وغيره، وكان احتلالها في رابع عشر صفر من السنة المذكورة, وفي عاشر جمادى الأولى منه صدر الأمر المولوي بجلوس المراقب الفرانساوي مع أمناء البيضاء لمدة خمس سنين ليأخذ ستين في المائة فيما أقرضته فرنسا للدولة المغربية، ويمكن من العمل على مقتضى ضابط خدمته, ومراقبة الداخل والخارج , ولذلك عقد أيضا مع إحدى الشركات الفرانساوية اتفاقا على إصلاح شؤون المرسى ليتسع نطاق تجارته مع دول أوروبا بتحسين المرسى, فشرعت الشركة في تنظيم شؤون المرسى بنقل الحجر في قطار, فتعرض الغوغاء من مديونة وأولاد زيان للقطار, وجعلوا في سكته حجراً وأعواداً , فانقلب بمن فيه، فمات تسعة من العملة الفرنساويين , وإسبانيين وإيطاليين, ثم رجعوا على من بالمعدن من العملة فقتلوهم , وكان هذا الحادث المؤلم يوم الثلاثاء 19 جمادى الثانية عام 1325 ه موافق 30 يوليو سنة 1907م ثم دخلوا للمدينة واشتغلوا بنهب الأموال , فوقع الهرج واختلط الحابل بالنابل , ودام ذلك ثلاثة أيام والفتنة قائمة على ساق, فوجهت فرنسا إحدى بوارجها بفرقة عسكرية, فأخبر قنصلها

عامل البلد بنزول الفرقة وأمره الا يتعرض لها بسوء، وإلا فإنها تضرب البلد، فتعامى عن ذلك خوف المسؤولية, فلما كانت الفرقة نازلة تناولها أحد المكلفين بالمرسى برصاصة, وعزز آخر بمدفع من الصقالة، فحينئذ وجهت الفرقة أفواه بنادقها لمن بالمرسى فتركتهم صرعى، وتقدمت لدارالقنصل وهي تحرق بنار بنادقها كل من وجدته أمامها, ولما بلغت دار القنصل وجدت الحرس المخزني حارسا الدار فقام وأدى التحية، وصارت تتابع وابل نارها على المدينة، ثم جاءت دراعة أخرى بفرقة عسكرية عززت بها الأولى , وشاركت الأولى في إطلاق النار على البلد، ثم جاءت بارجة إسبانية لحماية قنصلها بفرقة عسكرية, عززت الأوليين في رمي قنابلها المدمرة, وخرج الناس للسور الجديد مع الخليفة مولاي الأمين بإذن قنصل فرنسا, ولما رآهم الرعاع راموا الهجوم عليهم فصارت الدراعات من البحر تمطر وابل الكور على الجميع، ثم نزل القائد الجينيرال درود واحتل البلد بخيله ورجله,ثم نزلت الفرقة الإسبانية واتخذت المساجد أروية لربط دوابها وألواح الصبيان حطبا, وبالغت في العيث والتدمير, وكان هذا الحادث من أشد الحوادث وأفظعها وأشنعها, نطلب الله العافية, وفي سادس قعدة عام 1325ه صدر الأمر العزيزي بتنظيم العسكر على النمط الأوروبي بواسطة ضباط فرانساويين على مقتضى ما اتفق عليه دول أوروبا في مؤتمر الخزيرات, من إناطة ذلك بالدولتين الفرنسية والإسبانية لمدة خمس سنين، وفي رجب سنة 1325ه بويع المولى حفيظ بمراكش, وبايعته قبائل الحوز, فقصده المولى عبد العزيز, ولما بلغ بلاد السراغنة لقيه لفيف من العسكر عليه سيدي محمد بن سعيد العلوي, وقبائل السراغنة وزمران وبني مسكين وغيرهم, ولما التقى الجمعان صبيحة يوم الأربعاء 21 رجب عام 1326 ه انهزم جيش المولى عبد العزيز إذ كانت آذانهم صاغية للمولى عبد الحفيظ, ولم يبق معه إلا الدائرة الداخلية من العبيد فقتلوا في المعركة, ورجع المولى عبد العزيز ناجيا على فرسه, فاجتمع هناك بحشمه وأهله، وكانت هذه الهزيمة قد قضت على قوته القضاء الأخير, سيما أنه لما انفصل عن فاس خلعوه وبايعوا المولى عبد الحفيظ، فتنازل إذ ذاك في الخامس والعشرين من رجب سنة 1326 ه واستقر بثغر طنجة إلى الآن والملك لله يؤتيه من يشاء.

دولة المولى عبد الحفيظ ابن المولى الحسن العلوي

لما وقعت القلاقل والاضطرابات في الأيام الأخيرة رام بعض عمال الحوز تدارك هذا الأمر بتولية المولى عبد الحفيظ، ففرح الناس بتوليته وتيمنوا باسمه وطلعته, فبويع بمراكش يوم الجمعة سادس رجب سنة 1325 ه وبفاس في الثاني والعشرين من ذي القعدة عامه, وكتبوا له البيعة , وقيدوه بمشورة الأمة

بحيث لا يقطع أمرأ من الأمور الخارجية دون مشورتهم , لكن لما تمكن من السلطة , وسطا بالشيخ الكتاني لكونه المملي لها, ولما رأى له من النفوذ في قبائل البربر وغيرها, على أنه لولاه لم يمر في قبائل البربر، فهو الذي مهد له الطريق, وحمل الناس على بيعته, والأمر لله كيف شاء فعل، وبويع بأسفي في ثاني عشر رجب 1325 ه ثم أوفد المولى عبد العزيز 500 من العسكر فأرجعت البيعة له وأوعز المولى عبد الحفيظ لقبائل عبدة فحاصروا أسفي وقطعوا عنه المواد, ثم أرجعت أيضا إلى المولى عبد الحفيظ يوم السبت ثامن شعبان سنة 1326ه وفيه بايعه أهل الثغور أيضا بعد تنازل المولى عبد العزيز، ولما دخل المولى عبد الحفيظ فاسا في ثامن جمادى الأولى سنة 1326ه التفت إلى الثائر أبي حمارة, فلم يزل يجهز له الجيوش حتى فض أمره وقبض عليه في رابع شعبان عام 1327 ه وحمل في قفص وأدخل لفاس ثم قتل واستراح الناس من شره.

انتفاض القبائل وعقد الحماية

في سنة 1328 ه أوفد السلطان جيشا كثيفا على قبيلة الشراردة لقبض المغارم، فمكث في وسط قبيلتهم بحفرة الناكة مدة من نحو ثلاثة أشهر حتى انتسف جل أموالهم وكلفهم من مؤونة الجيش ما أضر بهم، ولما بلغ بهم الأمر منتهاه ونفذ صبرهم باستنزاف ماليتهم اجتمعت القبيلة لدى عمالها وقالوا لهم لا بد أن يرحل عنا هذا الجيش إن شاء طوعا أو كرها, فزجرهم العمال وذكروهم بقضية المولى عبد الرحمان الذي نقلهم من الحوز إلى الغرب في حالة سيئة , والآن إن وقعت العداوة بينكم وبين السلطان إلى أين ينقلكم.؟ فقالوا لهم ينقلنا حيث شاء , ولم يسمعوا لهم, فطلبوهم في تأجيل ثلاثة أيام تقدموا خلالها إلى أحد رؤساء الجيش : ابن الجيلالي السرغيني وآخر من الشرفاء العلويين وأنذروهم, فرحل الجيش حينا إلى فاس، ثم جهز لهم جيشا حربيا تلقاه الشراردة خارج تراب بلادهم وبدءوه بالحرب، لكن كانت الدائرة عليهم, فمات أحد رؤسائهم وهو الشيخ محمد بهيني الدرعي وانهزموا أمامه, فتقدم حتى نزل بإزاء جبل سلفات وسط بلادهم ودام القتال بينه وبينهم نحو تسعة أشهر، كان الجيش السلطاني فيها مدافعا عن نفسه,وآخر الأمر ألجأوه إلى وادي سبو ونالوا منه نيلا ظاهرا، ثم انهزم الجيش إلى فاس ورجع منهزما في 29 ربيع الثاني عام 1329 ه ولما تم لهم ذلك ايقنوا بعداوة السلطان وخافوا سطوته , وقالوا قد صرنا عدوا للسلطان, فإن أمر القبائل المجاورة لنا فإنها تأتي علينا ، فقال أحد كبرائهم وهو القائد ادريس الغنمي الزراري أنا لها, وكان داهية, استخدم في قيادة العسكر قبل ذلك فذهب إلى قبيلة جروان , فلم يزل يفتل لهم في الذروة

والغارب [1], وسول لهم في الخروج عن طاعة السلطان حتى ساعدوه , ثم ذهب بمثل ذلك لبني مطير، فساعدوه ودخلوا مكناسا ونصروا به المولى الزين بن مولاي الحسن, وأجلبوا به على المولى عبد الحفيظ بفاس وحاصروه حتى ضاق بهم الأمر وقلت الأقوات وقامت الفوضى في البوادي على ساق وقطعت الطرقات، ودام الحصار نحو تسعين يوما, فرام المولى عبد الحفيظ صلحهم على مال يدفعه لهم فلم يقبلوا، فاستنجد قبائل الحوز فلم ينجده أحد، ولما ضاقت به المسالك استغاث بفرنسا بإشارة قدور بن غبريط وقنصل فرنسا كايار الذي كان بفاس، ذكر أنه في الفصل الستين من صك مؤتمر الخزيرات أن الدولة المغربية إذا احتاجت لإخماد ثورة أو نحوها فإن فرنسا مستعدة لإمدادها، فأغاثته بجيش كثيف من الدار البيضاء ناوشته بعض القبائل في طريقه بما لا جدوى له , ولما قرب من فاس انفضت الجيوش المحاصرة لفاس وذهب كل من حيث جاء، وتركوا المدافع بالموضع، ودخل الجيش الفرانساوي فاسا يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الأولى عام 1329ه ثم وقع المولى عبد الحفيظ على صك الحماية مع الدولة الفرانساوية، فتولت أسبانيا تطوان ومنطقتها، الريفية, وتولت دول أوروبا طنجة ومنطقتها وما سوى ذلك تولت حمايته الدولة الفرنسية, وذلك في عاشر ربيع الثاني عام 1330ه وتخلى الملك لأخيه المولى يوسف رحمه الله.

آثاره العلمية : كانت له عناية كبيرة بالعلم, ومآثرة على الطلب ومحبة في أهله، بحيث كان يجري عليهم الجروايات الواسعة والإقطاعات المتنوعة, وجمع حوله ثلة من أهل العلم من الشناكطة[2] وغيرهم كانوا يشاركونه فيما ألفه من الكتب, وألفوا باسمه بعض التآليف, وفي آخر دولته اقترح عليه سن نظام لترقية أهل العلوم والمعارف فبوشر ذلك، بالفعل، لكن عاق عن سيره انتشار الفوضى والثورة في المملكة, ومن حسناته طبع كثير من الكتب التي كانت تسمع ولا ترى في التفسير والحديث والفقه والأصول، وكانت له خزانه فهرستها في خمسين ورقة مرتبة على الفنون فيها كثير من مكاتب الأحباس ومن مكتبة الكتانيين عقب نكبتهم إلى ما جلب له بالشراء, ولما تخلى عن الملك نقل منها نحو اثني عشر صندوقا مملوءة بالذخائر النفيسة إلى طنجة، ثم لما حدثت الحرب العالمية الأولى

---

[1] - مثل معروف يضرب في المخادعة

أبو الفضل الميداني ، مجمع الأمثال ج2 ص 85 دار الكتب العلمية ط1-1988 بيروت لبنان

[2] - الشناكطة، نسبة إلى شنقيط، وهي بلاد صحراوية تشمل عدة مناطق تابعة للمخزن قبل الاحتلال الفرنسي، وهي مايعرف اليوم بموريتانيا، كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الامين الشنقيطي.

انتقل إلى مدريد، وحمل معه ما خف من ذلك وترك 477 مجلدا حجزت للمكتبة العمومية بالمدرسة العليا برباط الفتح، والله سبحانه الموفق.

الدولة المغربية في طور الحماية الفرنسية

يمتاز طور الحماية بكثير من المزايا التي لا تحتاج إلى إقامة برهان، كنظام الإدارة وعموم الأمن وتمهيد السبيل وحد (كذا) السكك، ووفور العمارة، وانتشار الحضارة، وتأسست المدارس الصناعية والعلمية في جميع المدن المغربية بل وفي البوادي, وقد فتحت أيضا أبواب المواصلة بين المغرب والاقطار الإسلامية بما صار به المغاربة يشعرون نحو وطنهم العزيز، وترقية شؤونه ماديا وأدبيا، واستفاقوا من غفلتهم، ومن محاسن هذا العصر، عصر الحماية إحداث المكتبة العمومية بالعاصمة الرباطية، وهي مكتبة جميلة قد ضمنت من الذخائر الثمينة والكتب النفيسة المخطوطة والمطبوعة العربية والأوروبية ما يفتخر به هذا العصر على ما قبله, بها من المخطوطات العربية أكثر من ألف مجلد والمطبوعات العربية والأوروبية ما يقرب من الألفين إلى ما فيها من المجلات والجرائد والوثائق على نظام عصري، ومحافظها يقتبل الناس ببشاشة ومجاملة, واستعداد لقبول طلبات الناس من الكتب. إن لم تكن بالخزانة يرسل لها ولو للأقطار البعيدة حتى تاتيه ويمكنها من طلبها , يستفيد منها ويردها للخزانة , وهي في الازدياد، فلا يمر عليها من الدهر حين تكون في صف المكاتب الكبار، وعلى كل حال فهي من المفاخر التي يسجلها التاريخ بقلم الشكر والإطراء للدولتين الحامية والمحمية, ومن ذلك نظام الدروس بالقرويين المنجز أواخر سنة 1349 ه وإن لم يكن وافيا بالمرام كما يقوله بعضهم، فإن المستقبل ضامن لبلوغه الغاية القصوى فإن كل بداية شأنها أن يكون فيها بعض النقصان، ثم يتبع إكمالها تدريجيا حتى تبلغ أوج كما لها، إلا أن المرجو من سادتنا الفقهاء وغيرهم من الذين لهم إلمام به أن يحافظوا على نظامه ومواده, حتى لا يقع خرم فيها ويرجع إلى وراء، وتلك الطامة لا قدر الله, نعم لا بأس بتعديل بعض المواد إلى ما هو أنتج منها وأفيد، وذلك بالتدرج، كما أن المطلوب من سلطاننا، محب العلم والنظام ورجال الدولة الحامية أن يشدوا العضد في ذلك حتى يتم على أحسن الوجوه وأكملها وتقر العين بعمومه في سائر مدن المغرب وآفاقه, ويكون ذلك من الحسنات المسجلة في صحف الدهر التي ينقلها الجيل بقلم الإعجاب والإكبار للدوليتين الحامية والمحمية, وتنتشر العلوم والصنائع والحضارة ويرتقي المغرب إلى موقعه اللائق به, ويتم الوفاق والوئام بين الأمتين بانضمام سياسة اللطف والمجاملة، وذلك في ظل سلطاننا سيدي محمد بن سيدنا ومولانا السلطان المقدس مولانا

يوسف، بمساعدة الدولة الحامية الفرنسية، وفق الله الجميع إلى ما فيه خير للجميع.

دولة السلطان المقدس مولانا يوسف بن السلطان مولانا الحسن العلوي

بيعته : بويع في فاتح رمضان بجميع الإيالة المغربية, ووردت عليه البيعات من جميع آفاق المغرب، وجعل في المنطقة الريفية الإسبانية خليفة عنه من أقاربه، وفي المنطقة الطنجية الدولية مندوبا, واستقر هو بالعاصمة الإدارية الرباطية, يتجول بين فاس ومراكش والثغور لتفقد أحوال إيالته، والأمن والهدوء ينتشران شيئا فشيئا بواسطة الدولة الحامية الفرنسية، وهو مشرف بنفسه على جميع الشؤون, وظهرت في دولته الحضارة والصنائع والمعاهد الدينية والعلمية, والمدارس الابتدائية والثانوية في جميع مدن إيالته حتى البوادي، ولم يزل كذلك حتى لقي الله,
وفاته : توفي رحمه الله صبيحة يوم الخميس 21 جمادى الأولى عام 1346ه وحملت جنازته في محفل رهيب إلى أن دفن بضريح جده مولانا عبد الله بفاس الجديد مأسوفا عليه، رحمه الله ورفع درجته وألحقه بصالح سلفه المقدسين.

دولة سيدي محمد ابن مولانا يوسف العلوي

لما توفي والده المقدس اجتمع أهل الحل والعقد من وزراء ورجال الدولة الحامية الفرنسية على تولية ولده السلطان سيدي محمد لأولويته ولياقته دون غيره، فبويع بفاس بعد صلاة الجمعة الثاني والعشرين من جمادى الأولى من العام المذكور 1346 ه ووردت البيعات من جميع آفاق المغرب وحواضره، وهو الآن ملك المغرب حفظه الله وجعل النصر والتأييد حليفه, والسعد واليمن رائده، وله شعور نحو ترقيته شؤون وطنه المغربي المادية والأدبية وشغف كبير بانتشار العلوم والصنائع والحضارة بجميع إيالته، وفي دولته السعيدة كان نظام القرويين وترتيب دروسه وإدخال فنون عليه كانت جديرة بالتدريس، والزيادة في رواتب المدرسين ووضع الرقابة عليهم وغير ذلك مما هو مبسوط عند من له عناية به، وهو من أهم الدلائل على محبته للعلم, نطلب الله أن يديم دولته السعيدة حتى يرقى المغرب إلى مكانته اللائقة به، ويكون في صف الأمم الراقية بمساعدة الدولة الحامية الفرنسية . وفق الله الأمتين معا لما فيه الصلاح والنجاح بجاه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحوادث : في سنة 1312 إلى أواسط السنة بعدها كانت أوجاع وأمراض الجدري والسعال، مات به كثير من الصبيان, وانتقصت السكة , وعزل فيها كثير من العمال والوزراء والأمناء, وفي سنة 14 اتقدت النار بخط أزكان قرب أسفي حتى انتهت لتانسيفت، وأحرقت ما أتت عليه من الغرس والغابات وغير ذلك، وفي ليلة الاثنين رابع عشر صفر سنة 1316 خسف القمر، وفي ثامن عشر ذي الحجة سنة 1317ه ورد الخبر بوقوع قضية غريبة بالجديدة، وهي أن رجلا جاء لأمنائها بكتاب مزور على السلطان يأمرهم فيه بدفع أربعة آلاف ريال معجلة له , فأدوا ذلك من غير تأمل، ثم لما انفصل عنهم تأملوا الكتاب فإذا هو مزور, فما وسعهم إلا أن أدوا ذلك من مالهم الخاص , ثم وقع البحث عنه فوجدوا ثلاثة من أهل مراكش، فوقع القبض على الكاتب وصاحب الطابع والثالث احترم بضريح سيدي محمد بن سليمان الجزولي، ولما رأى الفسحة فر , فقبض على مقدم الحومة في محله، وفي سنة 1318 كان الجراد منتشرا بناحية الحوز فأضر بالنبات والأشجار، وخرج الأمناء يوم الأحد ثالث ذي الحجة للوقوف على محق بيضه، وفي عشية يوم الثلاثاء خامس رمضان سنة 1319 نزل مطر غزير دخل السيل بسببه إلى أسفي من باب الشعبة، وذلك أنه نزل المطر بناحية امتلأت منه الشعاب والجنان المجاورة للبلد , وحبس الماء على سور خارج باب الشعبة حتى سقط السور المذكور ودخل الماء دفعة واحدة من باب الشعبة, وامتدت منه حتى بلغ ضريح سيدي عبد الرحمان، ودخل للحوانيت والدور القريبة من ممره ودخل المسجد الكبير وجاوز المرافع حتى قرب من السقف ودخل المدرسة التي على باب المسجد وبلغ أعلى بابها , وجاوز الزاوية الناصرية وبلغ ضريح السيدة أم علي بدرب القوس, ولما بلغ باب البحر وجده مغلقا والخراجة ضيقة، فانحبس هناك وانتشر في الدور والحوانيت، والأماكن المجاورة لطريقه فأفسد ما فيها حتى انهدمت الديوانة التي في طريقه، فأخذ يتسرب وينقص شيئا فشيئا في الساعة العاشرة ليلا وامتدت الأيدي إلى النهب والاختلاس إلا من حفظ متاعه بالوقوف عليه، وقد رأيت مبيضة كتاب موجه للحضرة العزيزية معلما بهذا الحادث وطالبا الاعانة للمنكوبين من بيت المال على وجه السلف بخط الفقيه أبي العباس أحمد بن علي الصويري رحمه الله :[1] نص المقصود منه : إن الخديم كان أنهى للعلم الشريف خبر السيل الذي سال بمحروس ثغر أسفي, ولم يكن إذ ذاك تحقق له الواقع على وجهه، لأنه أذهل الأذهان وشغل البيان، وقد تحقق أمره

---

[1] ـ أعتمد المؤلف على مبيضة بيت المال بخط الفقيه أحمد بن علي الصويري فيما يخص الحوادث التي وقعت بأسفي سنة 1319 ، كالسيل الذي أغرق معالم المدينة.

الآن فتعين الإعلام بحوادثه العظام، فإنه عشية النهار قد أقبل يملأ السهل والجبل، فعفى من البلد بعض آثارها، وهد بعض أسوارها، واحتمل ديوانة المرسى, وبعض الحوانيت من السوق وألصق بالأرض جدرانها, وفاض الماء حتى على الأموال فأغرقها, مات فيها من الخلق ما يقرب المائتين من أهل البلد وغيرهم، ودفنت الحوانيت بالحجارة والرمال، وقلع جل مصاريعها, واكتسح ما فيها واضمحلت نعمة أربابها، ودخل لبعض الدور فأفسد القماش والزروع، وأتلف الموجود، فصار الناس لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ولا يحكمون تدبيرا، ولا يملكون قليلا ولا كثيرا، وعجزوا حتى عن إصلاحها ولا من يرقع خرقهم ويسد ثلمتهم إلا اللجوء إلى الله ثم إلى باب سيدنا المنصور بالله، وقد لجئوا إلى ظل إحسان مولانا , وصرفوا أوجه قصدهم إليه، وطلبوا من الخديم استعطاف الخواطر الشريفة في الإنعام عليهم بما يجبر كسرهم ويرقع خرقهم, والمحترفون بالبيع والشراء يطلبون تسليمهم من بيت المال عمره الله ما يقيمون به حرفتهم، وكل واحد يشهد عليه ما حاز، يؤدي كل سنة ربعه، وفي خامس عشر رمضان 1319 ه ولسببه اشترى الجنان أمام باب الشعبة وخط به الوادي المار للبحر، ثم تم إصلاحه بعد كما سيأتي، وفي سنة 1322هـ نزل مطر غزير حول أسفي بعد حر شديد فدخل السيل لأسفي ودخل ماؤه لبعض الحوانيت المنحدرة الأبواب ولم يكن به بأس، وفي ليلة الخامس والعشرين من صفر من العام المذكور وقعت زلزلة اضطربت منها الأبنية والسقوف وفر الناس من تحت البناءات خوف سقوطها, ولكن الله سلم، وفي يوم الأربعاء الثامن والعشرين من جمادى الثانية عام 1323 كسفت الشمس، وفي هذه السنة، أعني سنة 1323 ه لم ينزل من المطر ما يكفي فكان الغلاء والقحط وارتفعت الأسعار وقل الحياء من الناس، فكانوا ينهبون ويسرقون متاع بعضهم بعضا ولو كان صاحبه ينظر إليه، ومات بالجوع كثير من الناس وضاعت البهائم والدواب, وصدر الأمر العزيز بجمع الفقراء في الفنادق وأمر الأغنياء بالقيام بمئونتهم، ورحل الناس من الحوز إلى الغرب وتسمى هذه السنة بعام الغبراء, واستمر الحال كذلك في السنة التي بعدها وفي سنة 1325 كان الخصب بالمغرب وانتعش أمر الناس، وفي الثامن والعشرين من جمادى الأولى عام 1326 ه بعد زوال يومه بأربع ساعات و35 دقيقة كسفت الشمس كسوفا جزئيا وسطه في الخامسة وخمسة وأربعين دقيقة وآخره تقريبا الساعة السادسة وخمسة وثلاثين دقيقة، وقد انكسفت في ثمانية أجزاء ونصف جزء من اثني عشر جزءا، وفي يوم الأحد حادي عشر رجب عامه قبيل الغروب وقعت باسفي زلزلة، وفي نحو منتصف ليلة الأربعاء الموالي هب ريح عاصفة اهتزت له الأبنية ومصاريع الأبواب اهتزازا هائلا خشي

الناس منها السقوط، وأخبر بعضهم أنه صحبته زلزلة، وفي هذه السنة كان الجراد منتشرا بهذه الناحية أكل الزرع والأشجار، وبعد غروب يوم الخميس ثاني المحرم سنة 1328 ه ظهر النجم ذو الذنب وصار يطلع نحو ست ليال، ثم صار يضمحل شيئا فشيئا إلى أن لم يبق له أثر، وهم سبعة نجوم تحت الشمس إذ ا بعدت الشمس عن واحد منها ظهر، وإذا قربت منه غبر، وفي سنة 1329 كان الطاعون منتشرا بدكالة، فكان يظهر في الناس نقط وبترات تحت الآباط وغيرها من المرافق، فيموت صاحبه، ويعرف عند الناس بأبي طابق , وقد مات منه خلق كثير، ثم دخل منه يسير لعبدة واسفي وفي هذه السنة كان الموت بأسفي بالحمر في الساق فقط, وفي سنة إحدى وثلاثين كان الجراد منتشرا بنواحي أسفي حتى ولج الديار، وفي ليلة الخامس عشر من رمضان سنة 1335 كان خسوف القمر، وبعد شروق شمس يوم الجمعة ثامن رمضان 1337 نزل مطر كثير معه برد كالحجر دخل السيل بسببه لأسفي ودخل الحوانيت المنحدرة، لكن خفف وطأته الوادي، وفي ثاني عشر ربيع الأول منه نزل مطر غزير يتقدمه ريح عاصفة، ورمى البحر بمركب إلى البر حول ضريح أبي زكرياء، وفي ليلة الخميس 23 منه نزل مطر غزير ودخل السيل لأسفي، لكنه خفيف الوطأة وتكلم رعد قاصف قرب الفجر بصفة هائلة استيقظ الناس من أجله فزعين مذعورين , ومرض ناس بسبب هوله, وحدث ذوو الأسنان(المسنون) أنهم لم يسمعوا مثله هولا وفظاعة، وفي ليلة الاثنين تاسع عشر ربيع الأول 1337 على الساعة السابعة وقعت زلزلة اهتزت لها الأرض والأبنية، وفي الثانية عشرة من ليلة الاثنين الثاني والعشرين من جمادى الأولى سنة 1346 ه ابتدأ نزول المطر بأسفي فلم يزل يزداد المطر حتى اجتمعت منه السيول وانسد الوادي ودخل السيل للمدينة من باب الشعبة, وأقلع مصاريع الحوانيت وولج الدور القريبة منه, وأتلف السلع والأثاث, ودخل للمسجد الكبير والمدرسة أمامه والزاوية الناصرية, ولم تقم الصلاة بالمسجد إلا يوم الأحد تاسع جمادى الثانية، ومات به ناس من الغرباء وكان الحادث عظيما والمنظر فظيعا، وكانت السيول في كثير من آفاق المغرب ومن أجل هذا السيل التفت رجال الأشغال البلدية إلى حفر الوادي والزيادة فيه حتى اتسع وأمن أهل أسفي من حوادثه الفظيعة التي تهلك الأنفس والأموال، ولقد أخذت من حوادثه الخزانة الكتبية قسطا كبيرا، فكم من كتب تلاشت وانمحت بسببه والله سبحانه المسؤول أن ينور بالعلم والفهم قلوبنا ويطهر من الفتن أسرارنا ويكون لنا فيه منقلبنا ومثوانا، وأن يجمع على مرضاته شملنا، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما. وكان الفراغ من مبيضته يوم الأربعاء الموالي عشرين من ربيع الأول سنة 1347 ه ثم نقحته وفرغت من تنقيحه عشية يوم

الاثنين تاسع جمادى الثانية عام إحدى وخمسين وثلاثمائة وألف هجرية، جعله الله من الأعمال التي لا تنقطع بالموت, ولا يعقب صاحبها حسرة الموت, إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير، حسبنا الله ونعم الوكيل وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كان الفراغ من هذه النسخة في صباح يوم الخميس ثلاثي ربيع الثاني عام 1383 ه موافق 19 شتنبر سنة 1963 على يد العبد الضعيف أحمد بن عبد السلام الوزاني الأسفي من نسخة بخط المؤلف شيخنا محمد بن أحمد العبدي يعرف بالكانوني وجدتها عند صديقنا الفقيه الأجل المؤرخ سيدي عبد الله الرجراجي الشياظمي المقدم بزاوية ابن حميدة , أعارني إياها جزاه الله خيرا وختم لنا وإياه بالسعادة الأبدية إنه على ما يشاء قدير بالإجابة جدير.

نقلت هذه النسخة عن نسخة أعارني إياها الشريف سيدي التهامي بن علال الوزاني الأسفي وفرغت من نقلها يوم الأحد 8 جمادى الثانية عام 1399 ه الموافق 6 ماي سنة 1979 م وقام بالنقل العبد الضعيف محمد بن محمد فتحا بن محمد بن بوزيد، ألهمه الله طريق الصواب, وشمله بلطفه وعفوه في الحال والمآل وحقق له ما يرجوه من خير الدنيا والآخرة ومتعه ما دام حيا بالصحة والعافية وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

نقلتها عن صورة شمسية لنسخة موجودة بمكتبة إعدادية سيدي عبد الكريم بأسفي بخط الأستاذ الحاج عبد الهادي بن أحمد بن محمد بنحيدة، وقد حاولت قدر المستطاع المحافظة على ما جاء مكتوبا فيها كما هو صحيحا كان أم خطأ، ووفقت لإتمامها يوم الجمعة ثاني عشر رمضان عام 1416 هجرية الموافق الثاني من فبراير 1996 ميلادية استعان بالله على نقلها أحمد بن أبي بكر بن الحاج عبد القادر الوازاني الأسفي جعل الله هذا العمل من الصدقات الجارية آميـــن.

الفهارس

فهرس الأعلام

فهرس البلدان والأماكن

فهرس المصادر والمراجع

- ابتهاج القلوب بخبرالشيخ ابي المحاسن وشيخه المجذوب ابو زيد الفاسي مخطوط، خع، ك 326الرباط .
- أخبار الدول واثار الدول ابي العباس احمد القرموني- اخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين ابو بكر البيدق، دارالمنصور، للطباعة والوراقة، الرباط،1971 .
- الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى، احمد بن خالد الناصري، مطبعة دارالكتاب، الداربيضاء، 1954.
- الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبارملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ابن ابي زرع الفاسي، تحقيق عبدالوهاب بن منصور، طبعة 2،1999 .
- الروضة السليمانية في مفاخر الدولة الاسماعيلية أبو القاسم الزياني مخطوط الخزانة العامة رقم 1275 د .
- المنهاج الواضح في كرامات الشيخ أبي محمد صالح، ابن ابراهيم الماجري تحقيق عبد السلام السعدي، ددع كليةالاداب والعلوم الانسانية، الرباط ،1992 .
- ابحاث في تاريخ المغرب لويس شيني الفرنساوي
تاريخ ابن خلدون ابن خلدون، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1988 .
- اتحاف اعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، عبدالرحمان ابن زيدان ط 1 ، المطبعة الوطنية ، الرباط، 1929.
- البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية سليمان الحوات، تحقيق عبد الرحمان كظمي، د د ع . الرباط، 1992.
- البستان الظريف في دولة مولانا علي الشريف، ابوالقاسم الزياني، تحقيق رشيد الزاوية، مركز الدراسات والبحوث العلمية، الريصاني، الطبعة الاولى، 1992.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي ،تحقيق ج، كولان، ليفي بروفانصال، دار الثقافة بيروت لبنان، الطبعة الثالثة، 1983.
- بيوتات فاس الكبرى. ابن الاحمر، ط، دارالمنصور، الرباط.
- التشوف الى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، ابن الزيات التادلي، تحقيق احمد التوفيق، منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية، بالرباط، 1984.
- تاريخ الضعيف الرباطي، محمد بن عبد السلام الرباطي الضعيف، دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشيخي، دار الثقافة الدار البيضاء، الطبعة الاولى، 1988 .
- جدوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام بمدينة فاس، محمد ابن القاضي، دار المنصور، الرباط، 1973.
- جمهرة التيجان في أشياخ مولانا سليمان، ابو القاسم الزياني مخطوط، خ ع، الرباط، ك1220.
- جواهر الكمال في تراجم الرجال، محمد بن احمد العبدي الكانوني، منشورات جمعية البحث والتوثيق، الرباط، 2004.
- الجيش العرمرم الخماسي في دولة اولاد مولانا علي الشريف السجلماسي، محمد بن احمد اكنسوس، ط، فاس الحجرية، 1918.
- الحركة الصوفية واثرها في أدب الصحراء المغربية، محمد الظريف، منشورات كلية الاداب، المحمدية، 2002.

- الحلل الموشية في ذكرالأخبارالمراكشية مؤلف مجهول، حققه سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دارالرشادالحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الاولى، 1979.
- الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن، احمد بن الحاج السلمي، مخطوط الخزانة الزيدانية، مكناس، والجزء الخاص بالسلطان محمد بن عبد الله، الخزانة العامة بالرباط، رقم الفيلم 2149 .
- الدرر المرصعة بأخبارأعيان درعة، أبو عبد الله محمد المكي، بن موسى بن محمد ابن ناصر الدرعي، مخطوط خ ع الرباط، 265.
- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ابن ابي زرع الفاسي، دار المنصور، الرباط، 1972.
- رسائل اليوسي، ابو الحسن علي بن مسعود اليوسي، تحقيق فاطمة خليل قبلي، الطبعة الاولى 1981.
- روضة النسرين في دولة بني مرين، ابوالوليد اسماعيل بن الاحمر، المطبعة الملكية، الرباط، 1962 .
- الرياض الربانية في الشعبة الكتانية ، خ ع 497 ك .
- الطرائف التالدة من كرامات الشيخين الوالد والوالدة المختار الكنتي ، مخطوط خم ، 690 .
- فتح الشكور في معرفة اعيان علماء التكرور، ابوعبد الله البرتلي الولاتي،تحقيق محمد ابراهيم الكتاني ومحمد حجي ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت، 1981 .
- الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة ، أبو زيد عبد الرحمان التمنارتي ، تحقيق اليزيد الراضي ، الطبعة الاولى ، 1999
- القران الكريم ، رواية ورش .
- كتاب العبروديوان المبتدأوالخبرفي أيام العرب والبربر ، ابن خلدون دار الكتاب [illegible] بيروت ، 1959 . وطبعة دار طباعة الدولة ، الجزائر 1851 .
- مجمع الامثال أبو الفضل الميداني ، ط 1 ، – 1988 بيروت لبنان
- المدرسة الكنتية كأبرز قناة للتواصل بين الافريقيتين فى العصر تحقيق محمد [illegible] ، مجلة كلية الاداب الدار البيضاء ،عدد 4، 1981 .
- مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن ، أبو حامد العربي الفاسي تحقيق محمد حمزة الكتاني" منشورات رابطة أبي المحاسن، الطبعة الاولى، 2003 .
- المسالك والممالك ،ابو عبيد البكري ، حققه وقدم له وفهرسه ادريان فان ليوفن، اندري فيري ، الدار العربية للكتاب 1992 .
- المسند الصحيح الحسن في مأثر مولانا ابي الحسن ،محمد ابن مرزوق التلمساني ، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيفيرا، تقديم محمود بوعياد ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1981 .
- المعجب في تلخيص اخبارالمغرب عبدالواحد المراكشي تحقيق محمد سعد العريان ومحمد العربي العلمي ، مطبعة دار الكتاب الدار البيضاء، 1978 .
- نزهة الحادي باخبارملوك القرن الحادي ، اليفرني، تحقيق عبداللطيف الشادلي، الطبعةالاولى 1998 .
- نشر المثاني في اخبار اهل القرن الحادي عشر والثاني ، محمد بن الطيب القادري ، تحقيق محمد حجي ، احمد التوفيق،منشورات الجمعية المغربية للتاليف والترجمة والنشر ، الرباط ، 1986 .

- نفح الطيب من عصن الاندلس الرطيب ودكر وزيره لسان الذين بابن الخطيب، ابو العباس احمد المقري تحقيق احسان عباس، دار صادر بيروت، 1988.
- واسطة السلوك في سياسة الملوك، موسى أبو حمو، مطبعة الدولة التونسية،1279 ه .
- الوسيط في تراجم ادباء شنقيط، احمد بن الأمين الشنقيطي، مطبعةالمدني ، ط ، 4،1989 .
- وصف افريقيا ، الحسن الوزان ، ترجمة محمد حجي ، محمد الأخضر ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت الطبعة الثانية ، 1983 .
- زهر الاس في ذكر بيوتات اهل فاس، محمد بن عبد الكبير الكتاني ، تحقيق علي بن منصور الكتاني ، منشورات مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الاولى ، 2002 .

المحتويات

أبو
عبد الله محمد بن أحمد الزيدي
العبدي الكانوني الصدي الملقب بابن عائشة

- ولد في أولاد زيد ناحية أسفي سنة ١٨٩٣.
- انتقل إلى مدينة سلا، حيث أنهى حفظ القرآن ثم ذهب إلى فاس للدراسة في جامع القرويين.
- ثم عاد إلى منطقة عبدة حيث شرع في التدريس بضريح سيدي كانون، ثم بأسفي بضريح الشيخ أبي محمد صالح.
- وتولى وظيفة العدالة والإمامة والوعظ والإرشاد وانخرط في العمل الوطني.
- نفي إلى مراكش إثر تزعمه لحركة قراءة اللطيف خلال صدور الظهير البربري سنة ١٩٣٠.
- ثم انتقل إلى البيضاء، حيث توفي سنة ١٩٣٨.
- ترك مجموعة من المؤلفات في علوم مختلفة مثل التاريخ والفقه والآداب وغيرها...

... فهو مصدر أساس من مصادر التاريخ التي لا غنى للباحثين والمهتمين من الرجوع إليها للتعرف على التاريخ المحلي لحاضرة أسفي ودورها في توجيه الأحداث الكبرى التي عرفها المغرب على امتداد التاريخ. ويستمد قيمته العلمية مما يحيل عليه من أمهات المصادر المغربية الثمينة مثل كتاب الجمان للشاطبي والحلل الموشية للمراكشي ووصف إفريقيا للحسن الوزان والبذور الضاوية للحوات، والاستقصا للناصري وغيرها، فضلا عما يتضمنه من رسائل ووثائق وشهادات حية ونُقول من بعض الكتابات الأجنبية ككتابات شينيي الفرنسي ودوسوزي ومانويل البرتغاليين، وغيرهم.

